النبوة المحمدية

دلائلها وخصائصها

دار الاعتصام

اهداءات ٢٠٠٢

د/ محمد سيد احمد المسير

القاهرة

النبوة المحمدية
دلائلها وخصائصها

أ. د. محمد سيد أحمد المسير

دار الاعتصام

دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازى ـ القاهرة
هاتف : ٧٩٥١٧٤٨ - ٧٩٤٤٧٤٨ - فاكس : ٧٩٤٦٠٣١
ص : ب : ٤٧٠ القاهرة - الرمز البريدى : ١١٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى..

أما بعد.

فيسرني أن أقدم للقارىء الكريم هذه الطبعة الثالثة من كتاب «الرسول والوحى» فى دراسة موضوعية تعتمد التحليل العقلى والفهم الصافى لمعالم السيرة النبوية فى جانب مهم يتصل اتصالا وثيقاً، ويرتبط ارتباطاً جوهرياً بعقيدة المسلم..

وقد قمنا فى هذه الطبعة الجديدة بحذف بعض البحوث وإضافة بحوث أخرى، كما أعدنا ترتيب الأبواب حتى تجمع بين العقيدة والسيرة جمعا يصحح للإنسان عقيدته ويتسامى به إلى علياء الخلق العظيم لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.، ولذا فقد آثرنا عنوانا جديدا هو «النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها»

وجاءت أبواب الكتاب على النحو التالى:

الباب الأول: ملامح الشخصية المحمدية:

ويتضمن ستة مباحث:

الأول: اليتيم:

لقد ولد محمد صلى الله عليه وسلم يتيما فآواه الله.. وإن حكمة بالغة تشد عقل الإنسان هنا إلى آفاق عليا من التأمل.. فالأسباب المادية التى تعارف الناس عليها ليست هى كل شىء، ووراء كل ظاهرة فى الطبيعة والإنسان تدبير إلهى محكم.

ومحمد صلى الله عليه وسلم هو اليتيم الذى كفله أكثر من شخص، وعاش فى أكثر من بيت، فما وُجد فيه عيب، ولا عُرف عنه مطعن، وإنما كان الطاهر النزيه والعفيف الزاكى.

وقد أشار البحث إلى إرهاصات المولد الشريف، وأكد أن لدينا من الحق والصدق ما يباعد بيننا وبين قصص الوضاعين..

الثاني: راعى الغنم:

لعل لله حكمة فى رعى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للغنم فى شبابه، فهو يكسب صاحبه يقظة، حتى لا يعدو الذئب على شاة منها، ويجعله حريصاً على المصلحة، صابراً على المشاق، مثابراً على الهدف.. ويدَع للراعى فرصة التأمل فى مظاهر الطبيعة ونظام الكون حين يجلس الراعى فى امتداد الصحراء.

وعاش محمد صلى الله عليه وسلم بعيداً عن زخرف الحياة، فلم يسْعَ إلى شهرة، ولم يعبأ بمادة، وكان قبل البعثة وبعدها عزيز النفس كريماً، يتسامى على كل المتع، ويتعالى فوق كل إغراء..

والمتتبع لتاريخ الأنبياء يجد أن للغنم دوراً فى هذا التاريخ، فإسماعيل وقصة الفداء، وموسى وعصاه، وامرأتا مدين، وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث..

لقد كان للرعى دور أساسى فى التاريخ الإنسانى، ولا زال للأغنام ارتباطها الوثيق بحياة البشر.

الثالث: الصادق الأمين:

لقد كان الصدق والأمانة هما العَلَمَ المرفوع من أعلام النبوَّة فى يومها الأول حين قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقىَّ؟).

قال الناس يومئذ: ما جربنا عليك كذبًا..!

والمنطق السليم يقول: لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله..!!

لقد شارك محمد صلى الله عليه وسلم فى بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود، وارتضاه القوم حكماً بينهم وقالوا: هذا الأمين، رضينا..!!

وشهد محمد صلى الله عليه وسلم فى دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول، لنصرة المظلوم ومؤازرة الحق، وقال: (ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت).!!

وتحنَّث محمد صلى الله عليه وسلم فى غار حراء، تأملاً وفكراً، وانقطاعاً وخلوة، وصلة وبراً..

كل ذلك بإلهام الله وتوفيقه.

الرابع: الأمى:

إن حكمة إلهية كبرى تكمن فى أن هذا الوصف ملاحظ فى صدق الرسالة وحقيقة الوحى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

إن معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسِّية ترتبط بشخصية رسولها ووقت ظهورها ولا تُعلم إلا لمن شاهدها أو نُقلت إليه تواتراً..

أما معجزة القرآن العظيم فهى معجزة عقلية ذاتية، تحمل الدليل معها على أنها من عند الله، لا ترتبط بزمن ولا تختص بحياة الرسول..

وكل من أدرك أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أمى، وأن القرآن المجيد سجد له البلغاء، وتتلمذ عليه الفلاسفة، وأصلح شئون الحياة كلها ـ يزداد عمق إيمانه ويقينه بأن محمدا رسول الله..

وكل شواهد الحياة المحمدية تدل دلالة قاطعة على أنه صلى الله عليه وسلم ما توقع رسالة ووحيا، ولا أعد نفسه لزعامة أو سلطان، ولا عُرف عنه الانفعال والثورة..

وعندما يتحمل بعد ذلك رسالة للعالمين لا تكون إلا تكليفا إلهيا..

الخامس: كلمة تنبيه:

إن اليتم والفقر والأمية لا شك أنها ـ فى مجموعها ـ قادحة فى شخصية الإنسان على وجه العموم..

لكنها فى نطاق الإعداد للنبوة والاصطفاء للرسالة تضعنا فى نطاق القدرة الإلهية والعناية الربانية..

ولا يحق لمسلم أن يقيم على فقر أو أمية مدعيا أن الرسول كان كذلك، وإن الفقر الذى ينشأ عن تكاسل أو ترك للسعى مع القدرة عليه هو فقر معصية، يحاسب عليه الإنسان أمام ربه، كما أن الفقر الذى ينجم عن التبذير والإسراف هو أيضا فقر معصية يُسأل عنه المرء يوم القيامة.

السادس: حديث هرقل:

إن حديث هرقل الروم مع أبى سفيان حين جاءه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام يمثل منهجا صحيحاً فى الاستدلال، فهو قائم على استقراء أحوال النبى صلى الله عليه وسلم، وتتبع أطوار حياته وملامح شخصيته ليتخذ من ذلك كله أعلاماً للنبوة..

الباب الثانى: دلائل النبوة المحمدية:

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: العمق التاريخى لشخصية الرسول:

لسيدنا رسول الله عمق تاريخي يتجلى فى تذكير الله تعالى لأنبيائه وأقوامهم بتلك الرسالة الخاتمة التى يبعث بها النبى العربى والرسول الأمى، باعتبارها الرسالة العامة الخالدة..

والدراسة فى هذا الفصل قائمة على ثلاثة مباحث:

(الأول) ميثاق النبيين:

وهو المشار إليه فى قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ»(١).

(الثانى) دعوة إبراهيم:

وهى المشار إليها فى قوله جل شأنه: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»(٢).

(الثالث) بشرى عيسى:

وقد تظاهرت آيات القرآن المجيد مؤكدة حقيقة البشارة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل، وملزمة لأهل الكتاب ضرورة الإيمان بهذه النبوّة الخاتمة تصديقاً لما معهم.

---

(١) آل عمران ٨١ (٢) البقرة ١٢٩

الفصل الثانى: الواقع المعاصر لنشأة الدعوة:

إن الإنسانية قبيل البعثة المحمدية كانت فى حاجة ماسة، وضرورة ملحة لدعوة الإسلام الخالدة، فلم يتوفر للناس صحة الإيمان وصدق اليقين فى مذهب أو نحلة أو دين.. وباستقراء الواقع التاريخى لا نجد إلا وثنية مشركة، أو يهودية مادية، أو نصرانية محرفة..

وهذا الفساد العقدى لا ينجم عنه إلا فساد خلقى، فأخلاق الناس على قدر دينهم..

ومن ثم جاءت أبحاث هذا الفصل على جانبين:

١ ـ الدين

٢ ـ الأخلاق

فى الجانب الأول ناقشنا ظهور الوثنية فى جزيرة العرب، وكيف بلغت المهانة الدينية مبلغاً جعل العقل الجاهلى يصنع الصنم فيعبده وانقلبت الحقيقة فأصبح العابد يصنع المعبود..!!

وعرضنا لعقائد المجوس ونظرتهم الى الطبيعية وما وراءها..

وأظهر البحث أن اليهود أعداء الإنسانية، فدينهم لا يمنح سكينة النفس والعقل، وهم يرون عقيدتهم حكرا عليهم، ولا يقبلون أن يتهوّد البشر، ولايرضون للإنسان إلا أن يكون ذليلاً لهم، مسلوب الإرادة أمام مخططاتهم..

والنصرانية لم تكن بالدين الصحيح الذى جاهد عليه المسيح، واكتنفها الغموض ودخلها التحريف ومزقتها الصراعات..

وفى الجانب الثانى: قدمنا تصوراً عاما عن الفساد الخلقى من الواقع الجاهلى فى المنطقة العربية، وعرضنا لأنواع النكاح فى الجاهلية، ووأد البنات، وقانون الغاب الذى ساد فيها..

ولم يكن هذا العرض إلا مثالا لما يجرى فى العالم أجمع، ففى فارس جعل «مزدك» الناس شركاء فى النساء والأموال، وفى الهند ساد نظام الطبقات الاجتماعية

الشاذ، وعلى الصعيد العالمى دارت الحرب سجالا بين الفرس والروم، وشقى الناس بويلاتها..

ولا ينفى هذا أن هناك أضواء خافتة ظهرت فى حياة هؤلاء البشر:

فالحنفاء بحثوا عن الدين الصحيح..

ووجد من أحياء الموءودة..

ومنهم من أحب مكارم الأخلاق..

لكن هذه اتجاهات فردية وليست ظواهر اجتماعية عامة، وليس لها من صحة القصد وسلامة الاعتقاد ما يجعلها مذهباً أخلاقيا..

الفصل الثالث: المعجزة الكبرى:

إن المعجزة الكبرى للرسول صلى الله عليه وسلم هى القرآن المجيد، وبه وقع التحدى للإنس والجن، ومن المقطوع به أن القرآن نزل مفرقا طوال مدة الرسالة وهى ثلاث وعشرون سنة، ومع هذا الانفصال الزمنى فإن القرآن المجيد محكم الأسلوب، قوى الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض فى سوره وآياته، فى انسجام ووحدة وترابط، كأنما نزل جملة واحدة، وماذاك إلا لأنه تنزيل رب العالمين..

وتتعدد وجوه الإعجاز القرآنى، ومنها:

- الإعجاز البيانى.
- الإعجاز العقدى.
- الإعجاز التشريعى.
- الإعجاز العلمى.
- الإخبار بالغيب.

الفصل الرابع: المعجزات الحسية:

لقد وقعت على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم خوارق للعادات حسية، واجتمع له صلى الله عليه وسلم ما لم يجتمع لنبى قبله، وهذه الخوارق منها ما يدخل تحت المعجزة الاصطلاحية كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر، لأن التحدى

وقع بها، ومنها ما يعد تكريما للنبى وتثبيتا للذين آمنوا معه، وذلك كنبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكثير الطعام القليل، وحنين الجذع وغيرها..

الفصل الخامس: الخلق العظيم:

إن جوانب الأخلاق كثيرة متعددة، ولكل إنسان نصيب منها قلّ أو كثر، لكن أن نجد إنسانا جمع فضائل الأخلاق كلها، وحاز المكارم بأجمعها، والتقى فيه شرف النسب، وجمال النفس والبدن، ومحاسن السلوك، فهذا لا يكون إلا محمداً صلى الله عليه وسلم صاحب الخلق العظيم.

الباب الثالث: الوحى المحمدى:

وفيه فصلان:

الفصل الأول: صور الوحى المحمدى:

إن تتبع أحوال الوحى مع الرسول صلى الله عليه وسلم واستقراءها تصل بنا إلى أن صور الوحى المحمدى هى:

١ ـ الرؤيا الصالحة.

٢ ـ لقاء إسرافيل.

٣ ـ صلصلة الجرس.

٤ ـ تشكل الملك فى صورة رجل.

٥ ـ رؤية الملك فى صورته الحقيقية.

٦ ـ المناجاة فى الحضرة الإلهية.

الفصل الثانى: شبهات حول الوحى المحمدى:

إن الدفاع عن الوحى المحمدى هو دفاع عن شرف الأنبياء جميعاً، وإن إثبات النبوة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به إنما هو إثبات لنبوة الأنبياء جميعا، وإيمان بهم بلا تفريق.. وقد ناقشنا أربع شبهات هى:

البشرية ـ السحر ـ الجنون ـ الصرع.

الباب الرابع: خصائص النبوة المحمدية:

وفيه فصلان:

الفصل الأول: عموم الرسالة:

إن آيات القرآن وأحاديث الرسول قاطعة فى عموم الرسالة المحمدية زمانا ومكانا، فلا تقف عند زمن معين، ولا يحدها مكان خاص، ولا يخاطب بها جنس دون آخر.

وإن اليقين بصدق الرسالة بناء على المعجزة العقلية والمعجزات الحسية وبشائر الأنبياء والخلق العظيم يستلزم صدق ما يصدر عن صاحب الرسالة فيما يبلغ عن ربه عز وجل..

الفصل الثانى: ختم النبوة

انطلاقا من دلائل النبوة وتأكيدا لعموم الرسالة تأتى قضية ختم النبوة لتقرر أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء وأن رسالته باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلا وحى بشريعة جديدة، ولا نسخ للشريعة الإسلامية، فقد تكامل الدين وتمت النعمة الإلهية على الخلق، ونزل قول الله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة/ ٣].

أبو حذيفة

د. محمد سيد أحمد المسير

أستاذ العقيدة والفلسفة ـ كلية أصول الدين

القاهرة فى ١٣ من ربيع الأول ١٤٢١هـ

١٦/ ٦/ ٢٠٠٠م

الباب الأول

ملامح الشخصية المحمدية

الـيـتـيـم

راعـى الـغـنـم

الـصـادق الأمـيـن

الأمـى

كـلـمـة تـنـبـيـه

حـديـث هـرقـل

اليتيـــم

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، الهاشمى، القرشى، سلالة الأطهار، وسليل الكرام.. صلى الله عليه وسلم.

سمى محمداً لكونه جامعا لصفات الخير فيحمده الله والناس..

ولم يجعل الله لهذا الاسم سميًّا إلا قبيل الميلاد الشريف، لما تسامع الناس أن نبياً يبعثه الله من العرب يسمى محمداً، فكانوا ستة لا سابع لهم، وهم:

* محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى.
* محمد بن مسلمة الأنصارى.
* محمد بن براء البكرى.
* محمد بن سفيان بن مجاشع.
* محمد بن حمران الجعفى.
* محمد بن خزاعى السلمى.

ويعلق القاضى عياض قائلا: (ثم إن الله حمى كل من يسمى به أن يدّعى النبوّة أو يدّعيها له أحد، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً فى أمره)(١).

وعبد الله هو أصغر ولد أبيه، كان وسيماً، ومات فى ريعان شبابه.

وجده عبده المطلب سيد قومه، ويقال له شيبة الحمد، لكثرة جوده وكرمه، وهو الذى جدّد حفر زمزم، وهو أول من طلى الكعبة بذهب فى أبوابها..

ومحمد الهاشمى، نسبة إلى هاشم بن عبد مناف، واسمه عمرو، وأطلق عليه (هاشم) لهشمه الثريد مع اللحم لقومه فى أوقات الشدّة والقحط، وهو أول من سنّ رحلتى الشتاء والصيف.

ويستمر النسب الشريف إلى النضر بن كنانة الجد الثانى عشر ـ وهو قريش.

---

(١) نقلا عن البداية والنهاية لابن كثير ـ ، ج٢ ص ٢٥٩ ط مكتبة المعارف ـ بيروت

وفى اشتقاق هذه الكلمة نجد أنها من القرش بمعنى الكسب والجمع، أو من التقريش بمعنى التفتيش..

فهو الذى وحّد القبيلة بعد تفرّق، وهو الذى كان يبحث عن حاجات الناس فيقضيها لهم..

ويذكر المؤرخون الإجماع فى النسب الشريف على عشرين جداً، هكذا:

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان..

ولا خلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ وما بين عدنان وإسماعيل مختلف فيه، وكان ابن عباس وغيره إذا بلغ عدنان قال: كذب النسّابون..!!

وكره الإمام مالك رفع النسب إلى ما بعد عدنان..

ويُروى عن عروة بن الزبير قوله: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا ما وراء قحطان[1] إلا تخرّصاً.

وكان قوم من السلف منهم عبد الله بن مسعود، وعمرو بن ميمون الأزدى، ومحمد بن كعب القرظى إذا تلوا: «والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله»[2].

قالوا: كذب النسّابون[3]!!.

ويكفى أن نؤمن بالحديث الشريف ـ كما فى صحيح مسلم ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم).

---

(١) قحطان : جد العرب العاربة ، ومهدها بلاد اليمن ، ثم انتشرت فى أنحاء الجزيرة العربية.

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٩.

(٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٢ ، ص ١٩٤.

وفى مسند الإمام أحمد: قال العباس: بلغه صلى الله عليه وسلم بعض ما يقول الناس.. فصعد المنبر فقال: (من أنا؟!).

قالوا: أنت رسول الله..

قال: (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.. إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه.. وجعلهم فريقين، فجعلنى فى خير فرقة..وخلق القبائل، فجعلنى فى خير قبيلة.. وجعلهم بيوتاً، فجعلنى فى خيرها بيتاً.. فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً).

وقد وُلد محمد صلى الله عليه وسلم من نكاح، ولم ينله من سفاح الجاهلية شيء، فقد تزوج عبد الله بن عبد المطلب من سيدة بنى زهرة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى..

وبعد أن بنى عبد الله بآمنة خرج فى تجارة إلى الشام، وفى طريق العودة تخلَّف عند أخواله بنى عدى بن النجار بالمدينة لمرض ألمَّ به، فمكث شهراً ثم وافاه الأجل المحتوم بعد حياة لم تزد عن خمس وعشرين سنة.

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يُولد محمد دون أن يرى أباه، فأرضعته أمه، كما أرضعته مولاة عمه أبى لهب ثُويبة، ثم استرضع فى بنى سعد من حليمة بنت أبى ذؤيب، وظلّ معها خمس سنوات فى بيت زوجها الحارث بن عبد العزى، فى جوّ الصحراء الطلق يستصفى لغة العرب..

ويذكر الإمام السهيلى الأسباب التى دفعت قريشاً وغيرهم من أشراف العرب إلى استرضاع أولادهم، وهى: تفريغ النساء إلى الأزواج، كما قال عمار بن ياسر لأم سلمة رضى الله عنها، وكان أخاها من الرضاعة ـ حين انتزع من حجرها زينب بنت أبى سلمة قال: دعى هذه المقبوحة المشفوحة [1] التى آذيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد يكون ذلك منهم أيضاً لينشأ الطفل فى الأعراب، فيكون أفصح للسانه، وأجلد لجسمه، وأجدر أن لا يفارق الهيئة المعدية [2]، كما قال عمر رضى الله عنه: تمعددوا، وتمعززوا[3]، واخشوشنوا.

---

(١) المشفوحة : المبعدة.

(٢) نسبة إلى معد وكانوا أهل قوة وشدة.

(٣) اشتدوا.

وحين قال أبو بكر ـ رضى الله عنه : ما رأيت أفصح منك يا رسول الله؟.

قال صلى الله عليه وسلم: (وما يمنعني وأنا من قريش، وأرضعت فى بنى سعد).

فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء إلى المراضع الأعرابيات، وقد ذكر أن عبد الملك بن مروان كان يقول: أضرّ بنا حبُّ الوليد..!!

لأن الوليد كان لحَّاناً، وكان سليمان فصيحاً، لأن الوليد أقام مع أمه، وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية فتعرَّبوا ثم أدِّبوا فتأدَّبوا[1].

وعاد محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمه فمكث معها عاماً، ثم خرجا فى زيارة للمدينة، فماتت وهى راجعة به إلى مكة، فكفله بعد ذلك جده عبد المطلب مدة عامين، توفى بعدهما، فانتقل إلى كفالة عمه أبى طالب..

ومن الملاحظات الطريفة ما قيل:

إن فى اسم الوالدة والقابلة الأمن والشفاء، فأمه آمنة وقابلته الشفاء[2]..

وفى اسم حاضنته البركة والسخاء فهى أم أيمن..

وفى اسم مرضعته الأولى الثواب فهى ثويبة جارية أبى لهب.

وفى اسم مرضعته المستقلة برضاعه الحلم والسعد فهى حليمة السعدية..!

ولقد صاحب الميلاد الشريف آيات تعد إرهاصاً لما ينتظر هذا الوليد من شأن عظيم..

ويذكر كتَّاب السيرة عن هذه المرحلة من حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مرويات تعقّبها علماء الحديث.

فما يقال من أن مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون حضرتا الميلاد الشريف، أو أن جبريل ختنه حين طهر قلبه، أو أنه صلى الله عليه وسلم خرَّ جاثياً رافعاً رأسه إلى السماء، أو ما يذكر من أن إيوان كسرى ارتجس ونار فارس خمدت، وبحيرة

---

(١) الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام ـ للإمام السهيلى، ج ١ ، ص ١٨٧.

(٢) الشفاء بكسر الشين المعجمة وتخفيف الفاء ، وقيل بفتحها وتشديد الفاء مقصوراً.

ساوة غاضت.. إلـخ، ففى كثير مـنها غرائب ومناكيـر.. وكان الإمام ابن كثـير عقب رواية هذه الآثار يقول مثلا[1]:

ـ فى صحتها نظر..!!

ـ وهذا غريب جداً..!!

ـ لكن فلاناً هذا متـروك كذاب متهم بالوضع، فلهـذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يُفرح به..!!

ـ هذا الحديث لا أصل له فى شىء من كتب الإسـلام المعهودة ولم أره بإسناد أصلا..!!

حتى الإمام ابن إسحق يسوق عبارة الزعم ـ ومعروف أن (زعم) مطية الكذب ـ فيقول مثلا:

ويزعمون ـ فـيما يتحـدث الناس والله أعلم ـ أن آمنة ابنة وهب أم رسول الله صلى الله عليـه وسلم كانت تحـدث: أنها أُتيت حـين حملت برسـول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل لها: إنك قد حمـلت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولى أُعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سمـيه محمداً، ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام.

ونحن لا ننكر أن للمرأة الحامل أوضـاعاً نفسية تجعلها تتطلـع إلى المستقبل فى محاولة لاستقراء الغيب..

ونحن لا نشك أن لسيـدنا محمـد صلى الله عليه وسلم إرهاصـات فى حمله وولادته ونشأته، أهمها حفظ الله تعالى الكعبة المشرفة من هجمة الأحباش..

ونحن لا نريد أن نتكلم رجماً بالغيب أو نتتـبع قصص الوضّاعين والمجهولين والمتروكـين، ويجب أن نفرِّق بين إمكـان الشىء ووقوعه، فكل شىء ممـكن فى قدرة العلى الأعلى، لكن السؤال المطروح هو: هل وقع ذلك أم لا؟!

إن من أغرب الخيال ما ساقه أبو نعيم منسوباً إلى ابن عباس:

---

(١) راجع البداية والنهاية، ج ٢، ٢٦٢ : ٢٧٧.

«فكان من دلالات حمل النبى صلى الله عليه وسلم أن كل دابة كانت لقريش نطقت تلك الليلة وقالت: حُمِل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة، وهو أمان الدنيا وسراج أهلها.

ولم يبق كاهنة من قريش ولا قبيلة من قبائل العرب إلا حجبت عن صاحبتها وانتزع علم الكهانة.

ولم يكن سرير ملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً، والملك مخرساً لا ينطق يومه ذلك.

ومرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات، وكذلك البحار يبشر بعضهم بعضاً به.

وفى كل شهر من شهوره نداء فى الأرض ونداء فى السماء أن أبشروا فقد آن لأبى القاسم أن يخرج إلى الأرض ميموناً مباركاً».

ثم تستطرد تلك الرواية المزعومة فتصف لحظة المخاض وما صحبها من طيور أقبلت، مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من اليواقيت، وكشف عن بصر آمنة الحجاب فرأت مشارق الأرض ومغاربها، ثم تقول: رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت من السماء تنزل حتى غشيته، فغيب عن وجهى، فسمعت منادياً ينادى، يقول: طوفوا بمحمد صلى الله عليه وسلم شرق الأرض وغربها، وأدخلوه البحار كلها ليعرفوه باسمه ونعته وصورته.. ويعلموا أنه سمى فيها الماحى، لا يبقى شىء من الشرك إلا مُحِى به فى زمنه.

ثم تجلت عنه فى أسرع وقت فإذا به مدرج فى ثوب صوف أبيض أشد بياضاً من اللبن، وتحته حريرة خضراء، قد قبض على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الرطب الأبيض، وإذا قائل يقول: قبض محمد على مفاتيح النصر، ومفاتيح الذبح، ومفاتيح النبوّة[1].

إن هذه الرواية أشبه بالأدب الرمزى، ونكاد نقطع أن السيدة آمنة لم نقلها وأن ابن عباس لم ينقلها.

وأين كان ابن عباس يوم الميلاد الشريف؟.

---

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم الأصبهانى، ص ٢٢١.

إن هذه الأحداث كـانت قبل وجود ابن عـباس بما يزيد على الخـمسين عـاماً. وهل سمع أحد نطق كل دابة لقريش؟

وإذا لم يكن سمعها أحد فما قيمة هذا النطق؟

وإذا سمعها أحد فمن هو؟

وهل هذا الحدث ـ من السهولة ـ حتى لا يتناقله الناس ويتواتر؟!

إن قدر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومكانته رفيعة وليس فى حاجة إلى أوهام ننسجها حول ميلاده الشريف..

وإن لدينا من الحق والصدق ما يزيدنا إيماناً على إيمان، وإن أعلام نبوّته صلى الله عليه وسلم أظهر من الشمس فى رابعة النهار..

ويكفينا فى ميلاده الشريف أن نتأمل العبرة الكبرى:

لقد ولد محمد يتيماً فآواه الله..

ونشأ دون أب يرعاه فأدبه ربه..

وتلقفـته أيد كثـيرة من شـأنها أن تورث شتـاتاً فى الفكر والسلوك، ولكن الله تعالى أراد أن يصـنعه على عينه وأن تـتمحض العناية الإلـهية فى كـفالة هذا اليـتيم، فيستقيم له الفكر والسلوك فكان الصـادق الأمين فى الجاهلية، وكان خلقه القرآن فى الإسلام.

ثم إن هناك تأملا آخر، فالعـادة جارية بأن اليتيم الذى تتلقفه أيد كثـيرة وتتعدد عليه الولايات، لا يخفى من أمره شىء، وتظهر أخلاقياته وتتضح سلوكياته فلا شىء مستور منها..

ومحمد ﷺ وهو اليتيم الذى كفله أكـثر من شخص، وعاش فى أكثر من بيت وتعدّد كافلوه ـ ما وُجد فيه عـيب وما ظهر منه نقص، وما عُرف عنه مطعن، ولا أخذ عليه مأخذ، وإنما كان الطاهر النزيه، والصادق الأمـين، والعفيف الزاكى.. إنها كفالة الله.. وعناية المولى.. وتدبير الحكيم العليم..

ولعل نظرة فى حياة الأنبياء ترينا أن أصحاب الرسالات الكبرى نشأوا فى غير كفالة أب، وتباعدوا عن جو الأسرة الحانية، وذلك لحكمة بالغة.

فإسماعيل عليه السلام ألقى به فى وادٍ غير ذى زرع، وجاء فى بعض الروايات:

(ثم قَفَّى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس؟!.

فقالت: آلله أمرك بهذا؟! قال: نعم.

قالت: إذن لا يضيعنا..).

ويوسف عليه السلام ألقاه إخوته فى الجب والتقطه بعض السيارة وبيع لعزيز مصر، ثم دخل السجن، ثم خرج منه أمينا على خزائن الأرض، واستخلصه الملك لنفسه..

وموسى عليه السلام ألقت به أمه فى اليم والتقطه آل فرعون، وتربَّى فى قصر فرعون، ولبث فيه السنين الطوال..

وعيسى عليه السلام أتت به مريم قومها دون أن يمسها بشر ودون أن يقوم على أمر رعايته والد..

إن هؤلاء جميعاً كانوا أنبياء وتحملوا رسالة الوحى الإلهى.

«وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا»(١).

«وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ»(٢).

«فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ»(٣).

---

(١) سورة مريم الآيتان ٥٤ و ٥٥.

(٢) سورة يوسف، الآيتان ٥٦ و ٥٧.

(٣) سورة طه، الآيات ١١ ـ ١٣.

«إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ..»[1].

إن حكمة بالغة هنا تشدّ عقل الإنسان إلى آفاق عليا من التأمل..

فالأسباب المادية التى تعارف الناس عليها ليست هى كل شىء..

إن وراء كل ظاهرة فى الطبيعة والإنسان تدبيرًا إلهيا محكماً..

وإن عقل الإنسان فى إدراكه لقضايا الحياة قاصر عن الإحاطة والاستيعاب..

إن الحقيقة الكبرى التى يجب أن تكون فلسفة الإنسان في حياته كلها هي ما عبر عنه القرآن العظيم فى قوله: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا»[2].

* * *

---

(1) سورة آل عمران ، الآيتان ٤٥ و ٤٦.

(2) سورة الفرقان ، الآية ٥٨.

راعى الغنم

ورث سيدنا محمد ﷺ عن أبيه خمسة من الإبل ، وقطيعاً من الغنم ، وجارية هى أم أيمن[١]..

وتلك ثروة ـ فى عرف زمانها ـ ضئيلة، إلا أن الله تعالى هيأ له الأسباب وعمل سيدنا محمد فى رعى الغنم، فقد رعاها وهو صبى فى بنى سعد، ورعاها وهو شاب فى مكة، وكان يذكر ذلك مغتبطاً، فالعمل شرف، واكتساب الرزق فريضة..

وفى رواية البخارى قال عليه الصلاة والسلام: (ما بعث الله نبيا إلا وقد رعى الغنم). فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله ؟

قال : (وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط)[٢].

ولعلّ لله حكمة فى رعى الغنم، فهو يكسب صاحبه يقظة حتى لا يعدو الذئب على شاة منها، ويجعله حريصاً على المصلحة، صابراً على المشاقّ، مثابراً على الهدف، كى يوفر لغنمه مآكلها ومشاربها..

ثم إن الرعى بعد ذلك يدع للراعى فرصة للتأمل فى مظاهر الطبيعة ونظام الكون حين يجلس فى امتداد الصحراء يلحظ غنمه..

والمتتبع لتاريخ الأنبياء يجد أن للغنم دوراً فى هذا التاريخ ..

فإسماعيل عليه السلام ترتبط قصة حياته بكبش أنزله الله فداءً له وتصديقاً لرؤيا أبيه..

«فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ»[٣].

وموسى عليه السلام، وهو فى الوادى المقدس، حال المفاجأة الكبرى، جرى هذا الحوار:

---

(١) أعتقها الرسول فيما بعد ، وزوجها مولاه زيد بن حارثة فولدت له أسامة.

(٢) القراريط: أجزاء من الدراهم والدنانير يشترى بها الحوائج اليسيرة.

(٣) سورة الصافات ، الآيات ١٠٣ ـ ١٠٧

«وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ؟ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ»(١).

ولما ائتمر القوم بموسى وتوجه تلقاء مدين وقعت أحداث كان للغنم فيها نصيب، فقد سقى للمرأتين ثم دُعى إلى بيت أبيهما الشيخ الكبير، وانتهى الأمر بالزواج من إحداهما، وظل مع أبيهما عشر سنين يرعى له الغنم: «قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ»(٢).

وداود عليه السلام تسور عليه الخصمان مكان عبادته ليحكم بينهما فى شركة: لأحدهما تسع وتسعون نعجة وللآخر نعجة واحدة، وأراد صاحب النصيب الكبير أن يستأثر بالشركة كلها لنفسه، فحكم داود وعدل وبين عبرة الحياة:

«قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ»(٣).

وأشار القرآن إلى قصة نزاع بسبب الغنم تحاكم فيها أصحابها إلى داود وسليمان عليهما السلام، فحكم سليمان وهو صغير بحكم غير حكم أبيه، وكان حكم سليمان أرفق:

«وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا..»(٤).

قال أكثر أهل العلم: (إن الحرث الذى حكم فيه سليمان وداود ـ إذ نفشت فيه غنم القوم ـ بستان عنب.

---

(١) سورة طه ، الآيتان ١٧ و ١٨.

(٢)سورة القصص ، الآيات ٢٦ ـ ٢٨.

(٣) سورة ص ، الآية ٢٤.

(٤) سورة الأنبياء ، الآيتان ٧٨ و ٧٩.

والنفش: رعى الغنم ليلا خاصة.

وقيل: كان الحرث المذكور زرعاً.

وذكروا أن داود حكم بدفع الغنم لأهل الحرث عوضاً عن حرثهم الذى نفشت فيه فأكلته.

وقال بعض أهل العلم: اعتبر قيمة الحرث فوجد الغنم بقدر القيمة فدفعها إلى أصحاب الحرث، إما لأنه لم يكن لهم دراهم أو تعذر بيعها ورضوا بدفعها ورضى أولئك بأخذها بدلا من القيمة.

وأما سليمان فحكم بالضمان على أصحاب الغنم وأن يضمنوا ذلك بالمثل بأن يعمروا البستان حتى يعود كما كان حين نفشت فيه غنمهم، ولم يضيع عليهم غلته من حين الإتلاف إلى حين العود، بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان فيستوفوا من نماء غنمهم نظير مافاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النماءين فوجدهما سواء..

قالوا: وهذا هو العلم الذى خصَّه الله به وأثنى عليه بإدراكه.. هكذا يقولون والله تعالى أعلم)(١).

لقد كان للرعى دور أساسى فى التاريخ الإنسانى، ولا زال للأنعام ارتباطها الوثيق بحياة الإنسان.. وصدق الله حيث يقول:

«أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ»(٢).

والأنبياء ما هم إلا بشر يعيشون مجتمعهم بكل معالمه الإنسانية، ولعل فى رعى الغنم توطئة لرعى الخلق وسياستهم..

ولم يكتف سيدنا محمد ﷺ برعى الغنم، بل ذهب فى شبابه المبكر مع عمه أبى طالب فى تجارة إلى الشام..

---

(١) أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ـ العلامة محمد الأمين الشنقيطى، ج ٤ ص ٦٦٩.

(٢) سورة يس، الآيات ٧١ ـ ٧٣.

وفى مرحلة شبابه المتأخر تسامعت به السيدة خديجة بنت خويلد فعرضت عليه أن يخرج لها فى تجارة إلى الشام، لما بلغها عنه من صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق.

فبارك الله فى هذا المال وربحت التجارة ربحاً كبيراً..

ومن هنا حرصت السيدة خديجة ـ وهى ذات الشرف والنسب ـ على أن تقترن بهذا الرجل الأمين، ليحفظ لها أموالها ويصون ثروتها وتسكن إليه فى وحدتها، فهى الثيب الأرملة بعد زوجيها أبى هالة بن زرارة، وعتيق بن عائذ..

وتحكى الروايات أن سيدنا محمداً أصدقها عشرين بكرة..

وعاش معها صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة وفياً أميناً، ورزقه الله منها البنين والبنات، ولم يتزوج عليها امرأة أخرى رغم فارق السن بينهما وظلت حبه الأول والكبير حياته كلها..

تقول السيدة عائشة ـ كما فى الصحيح ـ:

(ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط، ولكن كان النبى ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يبعثها فى صدائق خديجة).

وعندما يكثر الرسول من ذكر خديجة تقول له عائشة: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين[1]! فأبدلك الله خيراً منها..!؟

فيقول الرسول الأمين ﷺ :

والله ما أبدلنى الله خيراً منها.. آمنت بى إذ كفر الناس.. وصدقتنى إذ كذبنى الناس.. وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس.. ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء).

إن الدرس الذى يجب أن نعيه تماماً من هذا الجانب فى حياته ﷺ أن زخرف الدنيا ومتاعها لم يكن هدفاً لسيدنا محمد يحرص عليه، ولا غاية يسعى إليها.

وعاش ﷺ قبل البعثة وبعدها عزيز النفس كريماً، يتسامى على كل المتع المادية، ويتعالى فوق كل إغراء..

---

(١) سقطت أسنانها.

وعندما عرض المشركون عرضاً سخيا على رسول الله وقالوا:

إن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوِّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً ـ فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال عليه الصلاة والسلام: (ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم.. ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل علىّ كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً.. فبلّغت رسالات ربى ونصحت لكم.. فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم).

لقد عاش سيدنا محمد ﷺ المثل الأعلى فى السمو على متاع الحياة فى خاصة نفسه وأهل بيته، وها هى ذى السيدة عائشة تحدثنا عن طعام بيت النبوّة فتقول ـ كما فى صحيح البخارى ـ:

(إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة فى شهرين، وما أوقدت فى أبيات رسول الله ﷺ نار..!!

فسألها ابن أختها عروة بن الزبير: يا خالة ما كان يُعيشكم؟!.

قالت: الأسودان: التمر والماء..).

وعندما سُئلت السيدة عائشة: ما كان فراش رسول الله فى بيتك؟!

قالت ـ كما رواه الترمذى ـ: من أدم [1] حشوه ليف..

وسئلت حفصة بنت عمر نفس السؤال فقالت: (مسْحاً[2] نثنيه ثنْيتين فينام عليه؛ فلما كان ذات ليلة قلت: لو ثنيته بأربع كان أوطأ له، فثنيناه بأربع ثنيات.

(١) الأدم ـ بالفتح ـ باطن الجلد الذى يلى اللحم.

(٢) كساء غليظ.

فلما أصبح قال: ما فرشتم لى الليلة؟!. قالت: هو فراشك، إلا أنا ثنيناه بأربع ثنيات، قلنا هو أوطأ لك.

فقال عليه الصلاة والسلام: ردوه لحالته الأولى فإنه منعتنى وطأته صلاتى الليلة).

وكيف كانت بيوت أزواج النبى؟.

هل كانت ناطحات سحاب، أو قصوراً ضخمة ذات أفنية، أو بيوتاً من زخرف فيها الأرائك والمعارج؟!.

لقد أخرج ابن سعد أن عطاء الخرسانى قال فى الروضة الشريفة: أدركت حُجَر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل، على أبوابها المسوح من شعر أسود.

فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ، يأمر بإدخال حجر أزواج النبى فى مسجد رسول الله، فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم..

قال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله لوددت أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناشئ أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق فيرى ما اكتفى به رسول الله فى حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس فى التكاثر والتفاخر فى الدنيا.

وقال يومئذ أبو أُمامة: ليتها تركت فلم تهدم حتى يقصُرَ الناس عن البناء، ويروا ما رضى الله لنبيه ومفاتيح خزائن الدنيا بيده..!!

ويوم أحسّ نساء النبى صلى الله عليه وسلم أن الدنيا قد فتحت على المسلمين وأن الغنائم تكاثرت فى أيديهم - سألن رسول الله مزيداً من النفقة ومزيداً من متع الحياة، وألحن فى السؤال حتى شقّ ذلك على النبى فاعتزلهن شهراً من شدة غضبه عليهن، وشاع بين المسلمين أن الرسول طلّق نساءه..

هنا نزلت آية التخيير لأمهات المؤمنين: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا»(١).

وكلهنّ اخترن الله ورسوله..

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان ٢٨ و ٢٩.

هذا الثبات على الحق.. وهذا المنهج الذى لم يتغير فى الزهد والإقبال على الآخرة.. وهذا العزوف الكامل عن متع الحياة الرخيصة.. ألا يؤكد الحقيقة الكبرى، أنه يبلِّغ رسالة ربه ويبتغى وجه الله والدار الآخرة..؟!

وحين عاند المشركون واستهزءوا وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق؟!.

وأرادوه ملَكاً رسولا أو ملِكاً مترفاً، لم يعبأ القرآن بهذا الموقف وصحَّح لهم مفاهيم النبوة فقال:

«انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً * تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً»[1].

* * *

(١) سورة الفرقان، الآيات ٩ ـ ١١.

الصادق الأمين

قال ابن إسحاق :

(فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلا.. أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً، حتى ما اسمه فى قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة...)[1].

وشواهد ذلك من حياة المصطفى كثيرة..

فقد جاء فى صحيح الحديث أنه ﷺ حين جدّدت قريش بناء الكعبة المشرفة (كان ينقل الحجارة مع قومه.. وكانوا يحملون أزرهم[2] على عواتقهم لتقيهم الحجارة، وكان رسول الله يحملها على عاتقه وإزاره مشدود عليه.. فقال له العباس: يا ابن أخى لو جعلت إزارك على عاتقك؟!. ففعل، فسقط مغشياً عليه، ثم قال: إزارى، إزارى. فشد عليه إزاره وقام يحمل الحجارة).

وفى ذلك حرص على ستر العورة وطهارة العرض..

وعندما بلغ بنيان الكعبة موضع الحجر الأسود اختصمت قبائل قريش فيمن يحوز شرف وضعه فى مكانه، وكادوا يقتتلون لولا أن الوليد بن المغيرة قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم.

وشاء الله أن يكون محمد بن عبد الله أول داخل عليهم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين.. رضينا، هذا محمد..

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: (هلم إلىَّ ثوبا...).

فأتى به، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوا جميعا.. ففعلوا حتى إذا بلغوا به مكانه وضعه هو بيده الشريفة..

وهكذا حلت كلمة الوفاق محل الشقاق ببركة سيدنا محمد وحكمة عقله..

(١) الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام ـ للإمام السهيلى، ج ١ ، ص٢٠٧.
(٢) جمع إزار وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

ومع أن محمد بن عبد الله ﷺ عاش فى مجتمع فيه النقائص والتناقضات العقدية والأخلاقية، إلا أن عصمة الله له ظاهرة جلية، فلم يشارك فى لهو، ولم يسجد لصنم..

واخترع الوهم الجاهلى فى دين الله، وابتدع الحمس [١] أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها، زاعمين أنهم أهل الحرم فلا يخرجون منه، وحرموا على الناس المآكل والمشارب التى تأتى من خارج الحرم، وصنعوا ثياباً خاصة لمن يطوف بالبيت، فمن لم يجدها طاف عرياناً..

ولكن سيدنا محمداً وفقه الله وألهمه، فيقول جبير بن مطعم: (ولقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى، وإنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس من بين قومه حتى يدفع معهم منها توفيقاً من الله له)[٢].

وشأن الحياة أن لا تتمحض للشر أو للخير، فقد وجد فى المجتمع الجاهلى بقايا قيم وخير ومعروف..

ويحكى أن رجلا قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، فحبس عنه حقه، وحاول الرجل أن يستخلصه، فأعيته الحيل، فرقى جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ونادى بأعلى صوته:

يا آل فهر، لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة، نائى الدار والنفر
ومُحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال، وبين الحِجْر والحجَر[٣]
إن الحرام[٤] لمن تمت مكارمه ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام إليه الزبير بن عبد المطلب، وعبد الله بن جدعان، واجتمعوا ـ بنو هاشم وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة ـ فى دار عبد الله، وتحالفوا فى ذى القعدة قبيل البعثة بعشرين سنة، وتعاهدوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه.

(١) جماعة من المتشددين ، والتحمس التشدد ، والمفرد أحمس بفتح الميم

(٢) الروض الأنف ، جـ ١ ، ص ٢٢٣.

(٣) الحجر بكسر فسكون ـ جزء من الكعبة لم تستطع قريش إكمال بنائه، والحجر بفتح الأول والثانى هو الحجر الأسود

(٤) الحرام بمعنى الاحترام.

ثم مشـوا إلى العاص بن وائل فانتزعـوا منه سلعة الرجل ودفعوها إليـه، ولقد شهد هذا الحلف سيدنا مـحمد ﷺ وقال عنه بعد البعثة: لقـد شهدت فى دار عبد الله ابن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت).

فنصرة المظلوم قيمة إنسانية كبرى..

والإسلام يؤازر الحق وأهله ويجيب نداء المستغيث..

فالحق عرض الله والعدل شريعته..

وقد اختار سيـدنا محمد الخلوة بغار حراء اعتزالا لبـاطل قومه، وفكراً وتأملا فى ملكوت السموات والأرض، ونظراً إلى الكعبة المشرفة من قمة جبل النور..

وهو فى خلوته هذه لم ينس واجب المواساة للضعـفاء وذوى الحاجات، فكان يطعم من جاءه من المساكين، وكلما فرغ زاده عاد إلى بيـته ليتزود، وجاء فى صحيح البخارى بسنده عن عائشة قالت:

(أول ما بدىء بـه ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحـة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يخلو بـغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء...).

ويروى ابن إسحق: (أن رسـول الله ﷺ كان يجاور ذلك الشـهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصـرف من جواره[1] الكعبـة قبل أن يدخل بيته، فـيطوف بها سبعـاً أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته...).

وهنا مجموعة ملاحظات:

أولا: هذا الشهر الذى اختـاره الرسول الكريم للتعبد هو شـهر رمضان كله أو معظمه، لأن الوحى تنزل فى شهر رمضان والرسول كعادته فى خلوته..

(١) الجوار ـ بالكسر ـ فى معنى المجاورة وهى الاعتكاف، إلا أن الاعـتكاف مختص بالمسجد، والجوار قد يكون خارج المسجد، ولذا لا يسمى جواره صلى الله عليه وسلم اعتكافاً لأن حراء ليس بمسجد ولكنه من جبال الحرم.

قال تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»[1].

وتكون الليالى ذوات العدد التى ذكرت فى حديث السيدة عائشة تعنى فترة بقاء الزاد فقط، أى أنه يحمل زاده لعدة ليال، فإذا نفد عاد فتزود لمثلها، إذ لم يتوافر لديهم وسائل لحفظ الطعام مدة طويلة، أو ربما نفد الزاد لإطعامه المساكين..

ثانياً: ما الذى دفع المساكين أن يذهبوا إلى غار حراء؟!.

وهل اختيار غار حراء للخلوة مختص برسول الله؟!.

بالتأمل قليلا نجد أن ذهاب المساكين إلى الغار ينم على أن ذلك المكان مقصود للحنفاء وأصحاب التأملات، ولمن يريد أن ينقطع عن المألوف من مظاهر مجتمعه..

قال الإمام الحلبى:

(وعن عبيد بن عمير رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ يجاور فى حراء، فى كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تتحنث فيه قريش فى الجاهلية). أى المتألهين منهم، وكان أول من تحنث فيه من قريش جده ﷺ عبد المطلب، فقد قال ابن الأثير: أول من تحنث بحراء عبد المطلب، كان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين، ثم تبعه على ذلك من كان يتألَّه - أى يتعبَّد - كورقة بن نوفل، وأبى أمية بن المغيرة)[2].

ثالثاً: إن غار حراء هو كهف فى قمة جبل، بينه وبين مكة ثلاثة أميال، عن يسار الذاهب إلى منى.

والكهف من حيث الموقع الجغرافى والتكوين الجيولوجى مكان ملائم لإثارة خيال الإنسان وقوى التأمل فيه، وعلى مدى العصور كان الكهف ملجأ للإنسان من غوائل الطبيعة، كما كان رمزاً للرفض الفردى لأوضاع اجتماعية ونظم سياسية.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

(٢) إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون - الشهير بالسيرة الحلبية - تأليف على بن برهان الدين الحلبى، ج ١، ص ٣٨٢.

ويحدثنا التاريخ عن قصة أصحاب الكهف التى حكاها القرآن، وهم فتية آمنوا بربهم وآثروا الفرار بدينهم من بطش قومهم وجبروت حكامهم فآوَوْا إلى الكهف ولبثوا فيه ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً.

رابعاً: تساءل بعض الباحثين:

على أى دين تعبد سيدنا محمد قبل البعثة؟

وذهبوا مذاهب شتى، فقيل: على شرع نوح، وقيل: على ملة إبراهيم، وقيل: على دين موسى أو عيسى عليهم السلام..

ونحن نرى أن هذه الاتجاهات لا دليل عليها، فلم يثبت أن سيدنا محمداً بحث عن الشرائع أو قرأ فى الكتب أو تعلم من راهب..

قال تعالى: «مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ»(١).

ولم يذكر التاريخ أن سيدنا محمداً شارك الحنفاء الذين التمسوا لأنفسهم أديان أهل الكتاب، وتفرقوا فى البلاد يبحثون عن دين صحيح..

والأوفق أنه ﷺ تعبد قبل النبوة بالتأمل والفكر، والانقطاع والخلوة، والصلة والبر.. كل ذلك بإلهام الله وتوفيقه.

وهذا هو ما تؤكده الروايات الصحيحة عن السيدة عائشة فى حديث بدء الوحى.

واشتهر ﷺ بأنه الصادق الأمين، وتفرد بهذه الشهرة؛ ولقد كان الصدق والأمانة هما العَلَمَ المرفوع من أعلام النبوّة منذ يومها الأول، فعن ابن عباس رضى الله عنهما ـ كما فى الصحيح ـ قال: لما نزلت هذه الآية: «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ»(٢) خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه..!!

فقالوا: من هذا الذى يهتف؟ قالوا: محمد

فاجتمعوا إليه، فقال: يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى عبد المطلب.

فاجتمعوا إليه.. فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقىَّ؟!.

---

(١) سورة الشورى، الآية ٥٢.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

قالوا: ما جربنا عليك كذباً..

قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تباً لك، أما جمعتنا إلا لهذا..!؟

ثم قام فنزلت هذه السورة: «تبت يدا أبى لهب وتب...».

انظر معى إلى براعة الاستهلال، ولباقة العرض، وبلاغة الحوار، وتأمل معى كيف استنطقهم بصدقه وألزمهم بتصديقه..!!

فإن المنطق السليم يقول: لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله..!!

إن شخصية سيدنا محمد، وعظم أخلاقه، ونبل سلوكه، وكرم معاشرته، كانت أهم العوامل الرئيسية فى نجاح دعوته.

وإن الذين أسلموا فى أوائل العهد المكى لم يكن يجذبهم لهذا الدين الجديد إلا يقينهم الكامل بصدق صاحب الدعوة.

فأول الناس إيماناً على الإطلاق خديجة بنت خويلد، حاضنة الإسلام، فعندما فَجَأَهُ الحق فى غار حراء، ورجع إلى زوجه يقص عليها ما حدث، قالت فى ثقة كاملة:

(أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً.. والله إنك لتصل الرحم.. وتصدق الحديث.. وتحمل الكل.. وتكسب المعدوم.. وتقرى الضيف.. وتعين على نوائب الحق..).

ثم كان أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، صاحب الرسول قبل البعثة، ودخل معه وخرج، وعرف سريرته وعلانيته، فلم يتردد لحظة يوم دعاه إلى الإسلام..

وقال عنه ﷺ: (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر، إلا أبا بكر، ما عكم[1] عنه حين ذكرته، ولا تردد فيه).. رواه ابن إسحق.

ولم يكتف أبو بكر بإسلامه، بل أخذ يدعو إلى الله، فأسلم على يديه كثير من السابقين إلى الإسلام..

---

(١) عكم: تلبث.

إن الصدق هو المعجزة الأولى التى دفعت النـاس إلى الإيمان بالرسالة لسيدنا محمد ﷺ، فالقرآن ـ وهو المعجزة الكبرى ـ كان فى بداية الشروق، ومازال يتنزل نجوماً، والقدر المنزل يومئذ كان آيات متفرقات من سور العلق والقدر والمدثر والمزمل.. ولم يتلفت الناس إليـها بعـد، وخوارق العادات التى امتن اللـه بها على رسوله لـم تظهر وقتها..

وظل الصدق فى سويداء قلب المجتمع المكِّىِّ لا يتزلزل اليقين به لسيدنا محمد حـتى مع كـفـرهم بالرسـالة.. وتـدور الأيام ويخـرج الرسـول مـهـاجـراً إلى المدينة ويستخلف علياً فى فراشه ليـوارى عنه أعين المشركين المؤتمرين به، وليرد عنه الودائع التى ائتمن أهل مـكة الرسول عليهـا، فلم يكن بمكة أحد عنده شىء يخـشى عليه إلا استودعه عند الصادق الأمين..

ومع أن المسلمين خـرجوا من مكة، وتركوا ديارهم وأموالهم بـغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله، فقد حرص الصادق الأمين على رد الودائع إلى أصحابها المشركين.

أليس هذا هو الخلق العظيم؟!.

* * *

الأمى

العرب أُمةأُمية لم تعتمد على الكتاب كثيراً، ومنحها الله موهبة عقلية وذهنية تمثلت فى ملكة الحفظ، فتناقلوا أشعارهم وأيامهم، وأجادوا فى ضبط أنسابهم وذرياتهم.

وغلب عليهم هذا الوصف، فعرفوا به بين الأمم. قال تعالى عن اليهود وعلى لسانهم: «وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»(1).

واستعمل القرآن هذا اللفظ فى وصف العرب فقال: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»(2).

ويشاء الله أن ينشأ سيدنا محمد من هذه الأمة ويشاكل عامتها فى عدم القراءة والكتابة، فلم يجلس إلى معلم ولم يقرأ فى كتاب..

وذات يوم حدث الرسول أصحابه عن الشهر القمرى، وبين لهم أنه لا يزيد عن ثلاثين ليلة ولا ينقص عن تسع وعشرين، فقال لهم ـ كما فى الصحيح عن ابن عمر ـ: (إنا أُمة أُمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا، وعقد الإبهام فى الثالثة، والشهر هكذا وهكذا وهكذا، يعنى تمام الثلاثين).

والمراد بهكذا الإشارة بأصابع يديه العشرة.

وقد سجل القرآن العظيم أن هذا الوصف لسيدنا محمد مدوَّن فى الكتب السابقة، فقال: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ»(3).

ولفت القرآن المجيد أنظار العرب إلى واقعية الحياة التى عاشها سيدنا محمد قبل الرسالة، فلم تكن تنبئ بعمق دراسة ولا حرص على تغيير.. ومكث ﷺ أربعين

(1) سورة آل عمران ، الآية ٧٥.

(2) سورة الجمعة ، الآية ٢.

(3) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧.

سنة قبل الوحي إليه، هادئاً ساكناً، وديعاً لا يندُّ عن مألوف قومه، اللهم إلا في اشتهاره بالصدق والأمانة..

قال تعالى: «قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ»(١).

ولحكمة ما عندما فجأ الوحي سيدنا محمداً كان الأمر الإلهي الأول: اقرأ، وكان الجواب التلقائي السريع: ما أنا بقارئ..!!

إن الحكمة الإلهية الكبرى تكمن في أن هذا الوصف ملاحظ في صدق الرسالة وحقيقة الوحي إلى سيدنا محمد ﷺ.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية هذه الملاحظة في تأكيد الإعجاز القرآني الدال على تصديق الله لعبده محمد في دعوى الرسالة، فقال: «وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ»(٢).

إن معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسية ترتبط بشخص رسولها وقت ظهورها، ولا تعلم إلا لمن شاهدها أو نقلت إليه تواتراً..

أما معجزة القرآن العظيم فهي معجزة عقلية ذاتية تحمل الدليل معها على أنها من عند الله، لا ترتبط بزمن، ولا تختص بحياة الرسول..

وكل من أدرك أن سيدنا محمداً أُمِّيّ، وأن القرآن سجد له البلغاء والفصحاء، وتتلمذ عليه العلماء والفلاسفة، وأصلح شئون الحياة بكاملها، وبنى حضارة إنسانية، يتزايد عمق إيمانه ويقينه بأن محمداً رسول الله.

قال تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»(٣).

ونقل الإمام الرازي عن أهل التحقيق أن كونه ﷺ أمياً بهذا المعنى من جملة معجزاته، وبيانه من وجوه:

(١) سورة يونس، الآية ١٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان ٤٨ و٤٩.

(٣) سورة الشورى، الآية ٥٢.

الأول: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوماً مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته، والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فإنه لابد وأن يزيد فيها أو ينقص عنها بالقليل والكثير، ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب ولا يقرأ؛ يتلو كتاب الله تعالى من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير، فكان ذلك من المعجزات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ»(١).

الثانى: أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهماً فى أنه ربما طالع كتب الأولين، فحصَّل هذه العلوم من تلك المطالعة، فلما أتى بهذا القرآن العظيم، والمشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات.

وهذا هو المراد من قوله تعالى: «وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ»(٢).

الثالث: إن تعلم الخط شىء سهل، فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعى، فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم فى الفهم.

ثم إنه تعالى آتاه علوم الأولين والآخرين، وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر.

ومع تلك القوة العظيمة فى العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذى يسهل تعلمه على أقل الخلائق عقلا وفهماً.

فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جارياً مجرى الجمع بين الضدَّين، وذلك من الأمور الخارقة للعادة، وجارٍ مجرى المعجزات(٣).

هذا ولم يثبت أن سيدنا محمداً ﷺ خرج من مكة وغاب عنها غيبة طويلة تمكنه من التعلم، وكل ما ورد فى كتب السيرة أنه ﷺ خرج مرتين إلى الشام:

(١) سورة الأعلى، الآية ٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

(٣) التفسير الكبير للإمام الرازى، ج ١٥، ص ٢٥، طبعة دار الفكر - بيروت سنة ١٤٠١ هجرية.

الأولى: مع عمه أبى طالب، وكانت سنّه حينئذ تقارب الثانية عشرة، وتفيد الروايات أنه التقى براهب يسمى (بحيرا)، وأن الراهب أخذ يستفسر منه عن أحواله فى نومه وهيئته، وتساءل مع عمه عن نشأته وأبيه، وتفحص شئونه، فأدرك أن لهذا الغلام شأناً، وأفضى بذلك إلى عمه أبى طالب، ونصحه بالعودة به إلى مكة.

الثانية: مع ميسرة غلام السيدة خديجة بنت خويلد فى تجارة لها، وسنه يؤمئذ خمس وعشرون، ونزل سيدنا محمد للراحة فى ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له: (نسطورا)، وتبين هذا الراهب ـ بفراسته ـ شيئاً من تكريم الله لهذا الشاب فأفصح عنه لميسرة قائلا: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبى..!!

يريد تأكيد أن هذا الشاب الذى يجلس الآن تحت هذه الشجرة سيكون النبى المنتظر لدى أهل الكتاب..

ويعود سيدنا محمد إلى مكة، ويخوض معمعة الحياة، ويتزوج السيدة خديجة، وتشغله شئون الأسرة، ويتحمل أعباء تكاليفها.. ثم يفجؤه الوحى بعد ثلاثين سنة تقريباً من اللقاء بالراهب الأول وخمسة عشر عاماً من اللقاء بالراهب الثانى..

إن كل شواهد الحياة المحمدية تدل دلالة قاطعة على أنه ﷺ ما توقع رسالة ووحياً، ولا أعد نفسه لزعامة وسلطة، ولا عرف عنه انفعال وثورة.

وكل الإرهاصات التى أحاطت بمولده الشريف أو بنشأته الطاهرة لم تأخذ مجراها التأثيرى البين على واقع حياته المباركة، وإنما كانت طوالع عامة لم يعرها سيدنا محمد الاهتمام البالغ الذى يجعله يسترق السمع أو ينتظر المستقبل أو يعيش على أحلام اليقظة..

ويشاء الله أن عمه أبا طالب الذى صاحبه فى رحلة الشام الأولى لم يُسْلم يوم دعا رسول الله إلى الدين الجديد، فلو أن المسألة معدة أو فيها شىء من الترتيب البشرى أو دخلها التصنع لكان أبو طالب أول المؤمنين، ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون أبو طالب أول المدافعين عن الرسالة رغم شركه الذى أصر عليه.

* * *

كلمة تنبيه

إن اليتم والفقر والأمية لا شك أنها ـ في مجموعها ـ قادحة في شخصية الإنسان على وجه العموم..

لكنها في نطاق الإعداد للنبوّة والاصطفاء للرسالة تضعنا في نطاق القدرة الإلهية والعناية الربانية..

ولا يحق لمسلم أن يقيم على فقر أو أُمية مدعياً أن الرسول كان كذلك.

لقد سبقت كلمة الله جل جلاله أن أجل الإنسان إذا حان لا يؤجِّله طب ولا تردُّه قوة، واقتضت حكمته سبحانه أن يتكافل الناس ويتعاونوا وبذلك جرى الطبع السليم وأوجب الدين الحنيف، فكان الإحسان إلى الضعيف وكفالة اليتم ورعاية المريض في شرع الله ديناً، وبين الناس خلقاً كريماً..

واليتم في اللغة هو الانفراد، ومنه الدرة اليتيمة أي الفريدة التي لا مثيل لها..

واليتامى هم الذين مات آباؤهم فانفردوا عنهم..

وقيل: اليتيم من الناس من فقد أباه، ومن البهائم ما فقد أُمه.

وحق هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار، إلا أن العرف خصَّه بمن لم يبلغ مبلغ الرجال، فهو الذي يحتاج إلى كفالة من يقوم بأموره من نفقة وتأديب حتى يرشد ويستطيع أن يواجه الحياة بأعبائها، ولهذا ورد في الأثر: (لا يُتْم بعد البلوغ)..

وقد جعل رسول الله ﷺ القائم على رعاية اليتيم قريباً له في الجنة، فقال ـ كما في الصحيح ـ: (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة) وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى.

كما بين المصطفى صلوات الله وسلامه عليه عظم ثواب كفالة المحتاجين والسعي في مصالحهم فقال: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله).

قال أبو هريرة: وأحسبه قال: (وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر).

فانظر كيف جعل قضاء حوائج هؤلاء يعدل قمماً ثلاثاً من العمل الديني السامي، وهي الجهاد في سبيل الله، وصلاة الليل بغير انقطاع، وصيام الدهر بغير إفطار..

وهذا تأكيد نبوى كريم لأهمية أن يتكافل الناس، وأن يأخذ القوى بيد الضعيف، وأن يكونوا عباد الله إخواناً..

هذا وإن التماس الرزق والسعي له أمر واجب شرعاً، قال تعالى: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»(١).

وقد علّم الرسول ﷺ أصحابه أن أطيب الكسب عمل الرجل بيده، فقال ـ كما فى الصحيح ـ: (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده).

وفى الصحيح أيضاً: (لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ويستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه، فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى).

ونستطيع أن نقول مطمئنين: إن الفقر الذى ينشأ عن التكاسل وترك السعى مع القدرة عليه هو فقر معصية يحاسب عليه الإنسان أمام ربه، وإن الفقر الذى ينجم عن التبذير والإسراف هو أيضاً فقر معصية يسأل عنه المرء يوم القيامة..

قال تعالى: «وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُوراً»(٢).

وقد شدَّد الإسلام النهى عن المسألة والتسول، فقال النبى ﷺ ـ كما فى الصحيح ـ: (من سأل الناس أموالهم تكثُّراً فإنما يسأل جمراً، فليستقل أو ليستكثر) أى أن مال التسوّل شؤم على صاحبه يتحوّل إلى جمر يكوى به يوم القيامة.

وفى حديث آخر صحيح: (لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم) أى قطعة لحم، ومعناه أنه يأتى يوم القيامة ذليلا لا كرامة له عند الله.

ولنتذكر هذا التنبيه الرائع من سيدنا رسول الله فى قوله: (ليس المسكين بهذا الطوّاف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: (الذى لا يجد غِنى يغنيه ولا يُفطن له فيُتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً).

(١) سورة الملك ، الآية ١٥.

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٢٩.

وليكن معلوماً أن التسوّل ليس وقفاً على من يمد يديه فى الطرقات، بل أشد أنواعه التسول أمام الرؤساء وذوى السلطان، فإن الله قد نزع البركة منه، وليس الغنى عن كثرة العَرض، وإنما الغنى غنى النفس..

وذات يوم وقف الرسول ﷺ وقال لأصحابه: (إنما أنا خازن، فمن أعطيته عن طيب نفس فيبارك له فيه، ومن أعطيته عن مسألة وشَرَه كان كالذى يأكل ولا يشبع).

وقد تأدب الصحابة رضى الله عنهم بهذا الأدب النبوى الشريف، فكان عمر ابن الخطاب يعطى العطاء فيقول: أعطه يارسول الله أفقر إليه منِّى!!.

وكان يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه..!!

وهذا النبى الأمى هو الذى جعل فداء بعض الأسرى من المشركين فى غزوة بدر الكبرى أن يعلِّم الواحد منهم عشرة من أبناء المسلمين..

وهو الذى أشار على زيد بن ثابت أن يتعلَّم لغة أجنبية، وتحدث الروايات عن زيد أنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: إنها تأتينى كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد، فهل تستطيع أن تتعلم كتاب العبرانية أو قال السريانية؟!

فقلت: نعم. فتعلمتها فى سبع عشرة ليلة.

ويكفى أن أول آية فى القرآن المجيد نزولا، أمر بالقراءة، وإشارة إلى آفاق عليا فى علم الأجنة، وامتنان بالتعليم بالقلم..

«اقْرأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ منْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذي عَلَّمَ بَالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ..»(١).

واهتمام المسلمين بالمعرفة، وقيام حضارتهم على الفكر، وقرائح أذهانهم التى ضمنوها ملايين الكتب والمجلدات ـ أوضح من أن نتكلم فيها أو نعرض لها..

يقول الإمام الحلبى: (لا ينبغى لأحد عُيِّر برعاية الغنم أن يقول: كان النبى ﷺ يرعى الغنم، فإن قال ذلك أُدِّب، لأن ذلك ـ كما علمت ـ كمال فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دون غيرهم، فلا ينبغى الاحتجاج به.

ويجرى ذلك فى كل ما يكون كمالا فى حق النبى ﷺ دون غيره كالأمية.

---

(١) سورة العلق الآيات ١ ـ ٥

فمن قيل له: أنت أُمِّى، فقال: كان النبى ﷺ أُمياً أُدِّب. والله أعلم)[1].

ويحق أن نقف خاشعين أمام سورة قرآنية توحى بكل هذه المعانى التى مضى حديثنا عنها؛ حول ملامح الشخصية المحمدية..

تلك السورة هى سورة الضحى..

تبدأ السورة بقسَم إلهى:

«والضحى * والليل إذا سجى».

الضحى هو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى شعاعها.

سجى: أظلم وسكن وغطى الكون..

فهذا قسم بالحياة فى سرَّائها وضرَّائها، ونورها وظلمتها..

ثم تأتى بشرى إلهية:

«مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ».

تحدث الروايات أن الوحى فتَر، فقالت أم جميل امرأة أبى لهب: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك..!!

فنزلت هذه السورة تصحح المفاهيم، وتعلى من شأن الإنسان المصطفى والرسول المجتبى..

فانقطاع الوحى فترة زمنية ليس عزلا عن النبوَّة..

وتصورات هؤلاء الواهمين بعيدة كل البعد عن الحقيقة.

فلمحمد ﷺ فى الآخرة المقام المحمود، والحوض المورود، والشفاعة العظمى.. بل إن مستقبله فى الحياة الدنيا لهو خير من حاضره فى بادىء العهد المكِّىِّ.

فهو وعد إلهى بالظفر والنصر حتى يدخل الناس فى دين الله أفواجاً، ويطلع هذا الدين على ما يطلع عليه الفجر..

---

(١) إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون ـ الشهير بالسيرة الحلبية ، ج ١ ، ص ٢٠٧.

ثم تقرر السورة وقائع الحياة النبوية:

«أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ».

وقد سبق تفصيل هذه الوقائع، ولكن ننبه إلى معنى كلمة (ضالاً)، وقد ذكر الإمام الرازى فى تفسيرها عشرين وجهاً نختار أرجحها وأقواها:

١ ـ ما روى عن ابن عباس والحسن والضحاك وغيرهم: «ووجدك ضالاً» عن معالم النعمة وأحكام الشريعة، غافلا عنها، فهداك إليها.

٢ ـ يقال: ضلَّ الماء فى اللبن إذا صار مغموراً، فمعنى الآية: كنت مغموراً بين الكفار بمكة فقوَّاك الله حتى أظهرت دينه.

٣ ـ العرب تسمى الشجرة الفريدة فى الفلاة ضالَّة، كأنه تعالى يقول: كانت تلك البلاد كالمفازة ليس فيها شجرة تحمل ثمر الإيمان بالله ومعرفته إلا أنت، فأنت شجرة فريدة فى مفازة الجهل، فوجدتك ضالاً فهديت بك الخلق.

ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: (الحكمة ضالة المؤمن).

٤ ـ كنت ضالاً عن النبوَّة، ما كنت تطمع فى ذلك، ولا خطر شىء من ذلك فى قلبك، فإن اليهود والنصارى كانوا يزعمون أن النبوَّة فى بنى إسرائيل، فهديتك إلى النبوَّة التى ما كنت تطمع فيها ألبتة[1].

وكان ختام السورة تعليماً وإرشاداً إلهياً.

«فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ».

وتلك هى الثمرات الاجتماعية لأدب الدين وخلق الإيمان، وما جعل التحديث بالنعمة إلا لمزيد من الاقتداء والقوة، فشأن مجتمع المسلمين التواصى بالحق والتواصى بالصبر.

* * *

(١) التفسير الكبير، ج ٣١، ص ٢١٦.

حديث هرقل

حين استقر الأمر للمسلمين فى المدينة المنوّرة بصلح الحديبية مع قريش فى العام السادس للهجرة، اتجه الرسول ﷺ إلى مخاطبة ملوك العالم وأمراء الجزيرة العربية، وبعث رسائل شخصية إلى هرقل عظيم الروم، وإلى كسرى عظيم فارس، وإلى النجاشى فى الحبشة، وإلى المقوقس فى مصر.. إلخ.

وكان لكل واحد من هؤلاء ردٌّ خاص على الرسالة النبوية، ويعنينا هنا الآن موقف هرقل من رسالة النبى وتأملاته حولها واستنتاجاته منها..

والحديث بتمامه مخرَّج فى الصحيحين، وقصَّه أبو سفيان بن حرب الذى كان أحد الأطراف..

وجو الحديث هو:

(أن هرقل أرسل إلى أبى سفيان فى ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام، فى المدة التى كان رسول الله ﷺ، مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش.

فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم فى مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟

فقال أبو سفيان: أنا أقربهم به نسباً.

فقال هرقل: أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إنى سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذَبنى فكذِّبوه..)

هذا هو الإطار العام للحديث..

وانظر كيف استوثق هرقل قبل أن يبدأ الحديث؟!

وكيف جعلهم شهوداً على أبى سفيان؟!

وكيف استوقفهم خلف ظهره لمعنى نفسى كبير، حتى لا يراهم أبو سفيان أثناء حديثه فيهمز إليهم بشىء، ولكى يلحظ هرقل الأثر النفسى المفاجئ إذا كذب أبو سفيان؟!!

ولهـذا قال أبوسـفـيان: فـوالله لولا الحـيـاء من أن يؤثروا عليَّ كـذباً لكذبت عنه..!!

ثم بدأت تساؤلات هرقل تتوالى هكذا:

١ ـ كيف نسبه فيكم؟

ـ هو فينا ذو نسب.

٢ ـ هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

ـ لا.

٣ ـ هل كان من آبائه من ملكٍ؟

ـ لا.

٤ ـ فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

ـ بل ضعفاؤهم.

٥ ـ أيزيدون أم ينقصون؟

ـ بل يزيدون.

٦ ـ هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

ـ لا.

٧ ـ هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

ـ لا.

٨ ـ هل يغدر؟

ـ لا، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها.

ويعلق أبو سفيان قائلا: ولم تمكنى كلمة أُدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

٩ ـ هل قاتلتموه؟

ـ نعم.

١٠ ـ كيف كان قتالكم إياه؟

ـ الحرب بيننا وبينه سِجال[1]، ينال منا وننال منه.

١١ ـ بماذا يأمركم؟

ـ يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة.

وأسدل الستار على الأسئلة، وبدأت الاستنتاجات العقلية تترى أمام كل سؤال وجوابه، وأفصح عنها هرقل لجالسيه ومن معهم من تجار قريش هكذا:

١ ـ وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها.

٢ ـ لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسى بقول قيل قبله.

٣ ـ لو كان من آبائه مَلك قلت رجل يطلب مُلك أبيه.

٤ ـ الضعفاء أتباع الرسل.

٥ ـ وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

٦ ـ وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

٧ ـ لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

٨ ـ الرسل لا تغدر.

وبتمام إجابة السؤال التاسع والعاشر والحادى عشر أخذت هرقل هزة عقلية وعاطفية جعلته يقول: (إن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين.. وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم.. فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه).

إن هذه الاستنتاجات العقلية تمثل منهجاً صحيحاً فى الاستدلال، فهى قائمة على استقراء أحواله ﷺ وتتبع أطوار حياته وملامح شخصيته لتتخذ من ذلك كله أعلاماً للنبوة..

---

(١) السجال بكسر أوله: النوب، وجمع السجل وهو الدلو إذا كان فيه ماء، شبه المحاربين بالمستقين، يستقى هذا دلواً وهذا دلواً.

وقد حدث هرقل نفسه أن يصل بالاستدلال إلى نتيجته، ويلتزم بها إقراراً بصحة الدليل، واعترافاً بصدق النتيجة، فدعا وجهاء قومه وأهل الرأى فيهم إلى قصره وغلّق الأبواب ثم قال لهم: يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم؟ فتابعوا هذا النبى!

ولكن القوم آثروا متاع الحياة الرخيص، واستمرءوا ما هم فيه من منصب وجاه، فرفضوا بشدة:

فحاصوا عليه حيْصَة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقتْ..!!

ولم يكن هرقل بالرجل الذى يستطيع أن يواجه الناس بما يعتقد، أو ليقنع من حوله بما يرى، فتراجع عن مقالته السابقة، وقال: إنى قلت مقالتى آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت.

فسجدوا له ورضوا عنه..

فكان ذلك آخر شأن هرقل.

* * *

الباب الثانى

دلائل النبوة المحمدية

- العمق التاريخى لشخصية الرسول
- الواقع المعاصر لنشأة الدعوة
- المعجزة الكبرى
- المعجزات الحسية
- الخلق العظيم

الفصل الأول

العمق التاريخي لشخصية الرسو

- ميثـــاق النبييـــن.
- دعـــوة إبراهيـــم.
- بشـــرى عيســـى.

ميثاق النبيين

لسيدنا رسول الله ﷺ عمق تاريخي، يتجلى في تذكير الله تعالى لأنبيائه وأقوامهم بتلك الرسالة الخاتمة التي يبعث بها النبي العربي والرسول الأمي..

وقد أخذ هذا التذكير أكثر من شكل، وورد في أكثر من كتاب منزل..

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

لقد ورد هذا الميثاق خلال حديث طويل ـ في سورة آل عمران ـ عن أهل الكتاب ومناقشتهم في عقائدهم المحرَّفة، وجاءت هذه الآيات إلزاماً لهم بضرورة الإيمان بالرسالة المحمدية وفاءً لهذا الميثاق؛ ثم تلاها استفهام إنكاري لموقفهم المعاند الخارج عن كل النواميس الكونية:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(٢).

ثم حددت الآيات حقيقة الإيمان الواجب شرعاً على كل مكلف، فقالت: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٣).

والملاحظ أن هذه الآية الكريمة بدأت بإثبات الإيمان بالله باعتباره أصلا للإيمان بالنبوَّة، ثم قدمت الإيمان بالوحي لسيدنا محمد ﷺ باعتباره المصحح لأوهام

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان ٨١ و ٨٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٨٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٨٤.

أهل الكتاب وتحريفاتهم، ثم ذكرت الإيمان بالوحى لإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط باعتبارهم منشأ أهل الكتاب من يهود ونصارى، وإليهم يرجع نسبهم ودينهم، ثم خصصت ما أُوتى موسى وعيسى باعتبارهما أصحاب الرسالتين الأخيرتين قبل رسالة محمد ﷺ، فاليهود يقفون عند شريعة موسى، والنصارى يقفون عند دعوة عيسى..

ثم عممت الآية ضرورة الإيمان بجميع الأنبياء السابقين، من نعرف ومن لا نعرف على وجه الإجمال..

وأخيراً أعلنت الآيات فى سورة آل عمران الحقيقة الكبرى المتمثلة فى طريق النجاة الأوحد والوحيد، فقالت: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(1).

هذا ويحتاج ميثاق النبيين إلى توضيح:

هل هو ميثاق أخذه الله من النبيين أو أخذه الله للنبيين؟!..

فعلى الاتجاه الأول يكون المعنى أن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين، كى يصدّق بعضهم بعضاً، حتى تصل الرسالة إلى ختامها ببعثة محمد ﷺ، فكل نبى لا ينافس أخاه ولا ينازعه، وإنما هم يكملون الرسالة الإلهية للبشر، كل فى زمانه ومكانه، وهم لبنات بناء عال وصرح مشيد، يشد بعضه بعضا..

قال عليه الصلاة والسلام ـ فى الصحيح : (مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه إلا موضع لبنة فيه، فجعل الناس يطوفون به، ويتعجبون ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين).

وفى حديث آخر: (لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والله لو كان موسى بن عمران حياً لما وسعه إلا اتباعى).

وعلى الاتجاه الثانى يكون المعنى أن الله تعالى أخذ الميثاق من الأمم بتصديق كل نبى يؤيد بالمعجزة، ويواصل المسيرة المؤمنة فى الهدى والرشاد.

(1) سورة آل عمران ، الآية ٨٥.

وعلى هذا دعا الأنبياء أقوامهم إلى الإيمان بمن يليهم، وضمَّنوا الميثاق كتبهم ووصاياهم لأممهم.. حتى تظل المعالم واضحة يتوارثها الأجيال، وينضموا لركب الإيمان المتجدد..

وعلى كلا الاتجاهين يتحتم على أهل الكتاب الإيمان بالرسالة لمحمد ﷺ، وفاءً بالعهد، والتزاماً بالميثاق، فهو مصدِّق لما معهم، ومؤيد بالمعجزة، داعٍ إلى الحق وصراط مستقيم..

لكن ما معنى تصديق الرسول لما معهم؟

وهل يلزم منه أن الرسول الخاتم لا يأتى بجديد فى التشريع؟

إن الرسالات الإلهية جمعاء اتفقت على أصول الدين فى التوحيد، وأمهات الأخلاق والعبادات..

فما من نبى إلا ودعا قومه إلى التوحيد:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾(١).

وما من نبى إلا بين للناس عبادتهم ومعاملتهم:

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾(٢).

وما وراء ذلك من تفاصيل العبادة وكيفيتها وشرائط المعاملات وأنواعها وحدودها، فذلك مرهون بالزمان والمكان ومقتضيات العصر وأشكال العمران البشرى.

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٥.

(٢) سورة البقرة ، الآيتان ٨٣ و ٨٤.

وهذا فى الحقيقة ليس بخلاف، بل هو ضرورة الحياة المستمرة.

وهكذا يكون تصديق الرسول ـ أى رسول ـ لمن سبقه من الرسل.

ويضاف إلى هذا الفهم معنى آخروهو أن وصف سيدنا محمد ﷺ ومعالم حياته الرئيسية مذكورة فى التوراة والإنجيل، وتَطابُق الأحوال مع الأوصاف تصديق لما معهم..

وقد فهم البعض من آية ميثاق النبيين فهماًغريباً، فزعم أن الله تعالى أخذ من النبيين ميثاقاً خاصاً فى عالم الذر، يوم أخذ ميثاق بنى آدم حين قال: «ألست بربكم».

ورُويت أحاديث تفيد أن النبوة لسيدنا محمد ﷺ وجبت له قبل خلق آدم، أو كما يقال: (وآدم مجندل فى الطين) أو (وآدم بين الروح والجسد).

وفى بعض الروايات: (كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث)؛ ونحن إزاء هذا الفهم نقول:

قضية ميثاق بنى آدم فى عالم الذر أو ميثاق النبيين فيه ليس عليها دليل يعتمد، والأحاديث التى ذكروها فى إثبات ميثاق عالم الذر لا تخلو من مقال، وبعض رواتها ضعيف أو متروك أو مجهول..

والآية الكريمة: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾[1] أبعد ما تكون عن هذا الفهم.. وهى ترشد العقول إلى آيات الأنفس والآفاق التى نصبها الله تعالى أمام الإنسان فى كل عصر وجيل شاهدة على وحدانية الله فى الخلق والأمر[2].

ويجب أن نعى أن عقيدة المؤمن لا تؤخذ من أحاديث غريبة أو موقوفة، وطالما أن الآيات لها من الفهم الصافى والتفسير الصحيح ما يخدم العقيدة بعيداً عن هذه الآثار الضعيفة ـ فهذا أولى وأجدر بالاعتبار.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

(٢) راجع كتابنا (الروح فى دراسات المتكلمين والفلاسفة) ص ٧٧، ط دار المعارف بمصر.

وبعض هؤلاء الذين قبلوا الآثار على علاتها لم يفهموها الفهم السطحى المتبادر، بل ذهبوا فيها مذاهب أقرب إلى رفضها.

يقول الإمام ابن كثير:

(وهذا إخبار عن التنويه بذكره فى الملأ الأعلى، وأنه معروف بذلك بينهم بأنه خاتم النبيين وآدم لم ينفخ فيه الروح، لأن علم الله تعالى بذلك سابق قبل خلق السموات والأرض لا محالة، فلم يبق إلا هذا الذى ذكرناه من الإعلام به فى الملأ الأعلى، والله أعلم)[1].

فإحالة الأحاديث على علم الله تعالى أو إعلام الملأ الأعلى به قضية لا نتنازع فيها، فعلم الله أزلى محيط، ولا يعزب عنه شىء، وإعلام الملأ الأعلى هو إرادة الله ومشيئته لا دخل لنا بها.

* * *

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ صـ٣٢١ ط مكتبة المعارف ـ بيروت.

دعوة إبراهيم

إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو الجد الأعلى للعرب واليهود.

عاش إبراهيم مع زوج عاقر هى سارة، وشاء الله أن يُرزق بولد من جارية له هى هاجر المصرية.. وجاء فى الحديث الشريف عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات[1]، اثنتين منهنَّ فى ذات الله، قوله: «إنى سقيم»، وقوله «بل فعله كبيرهم هذا»

وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذا أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأتى سارة فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أُختى، فإنك أُختى فى الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك.

فأرسل إليها فأتى بها وقام إبراهيم يصلى..

فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأخذ حتى ركض برجله فقال: ادعى الله لى ولا أضرك..!!

فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعى الله لى ولا أضرك..!!

فدعت الله فأطلق، فدعا بعض حجبته فقال: إنك لم تأتنى بإنسان إنما أتيتنى بشيطان..!!

فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلى، فأومأ بيده: مهْيَم[2]، قالت: ردّ الله كيد الكافر فى نحره، وأخدم هاجر..

قال أبو هريرة: تلك أُمكم يا بنى ماء السماء[3]».

---

(١) الكذب هنا من باب المعاريض وهى أن يقصد المتكلم معنى ويفهم منه المخاطب معنى آخر، وهى من المباح شرعاً، ولو كان كذباً محضاً فهو جائز أيضاً لدفع الظالمين.

(٢) ما شأنك وما خبرك؟

(٣) العرب كلهم لخلوص نسبهم، وقيل: لأن أكثرهم أصحاب رعي يتعقبون ما ينبت بماء السماء، وقيل: المراد به الأنصار خاصة لنسبتهم إلى جدهم عامر بن حارثة بن امرئ القيس وكان يعرف بماء السماء.

هذا وولد هاجر هو إسماعيل عليه السلام.

واقتضت الحكمة الإلهية أن يحمله إبراهيم مع أمه هاجر ليسكنهما بواد غير ذى زرع، وتركهما هنالك عن أمر الله له.

وظل إبراهيم يطالع أمرهم بين الحين والآخر، وشب إسماعيل محفوظاً برعاية الله وعنايته، فنبعت عين ماء زمزم، وتقاطر الناس على المكان..

ويأتى امتحان جديد لما بلغ إسماعيل السعى، فكانت الرؤيا المنامية بذبح إسماعيل، ولنقرأ: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

ولنتأمل أن الغلام الحليم هو إسماعيل، وأن إبراهيم رزق به بعد هجرته من قومه الذين ائتمروا به، وهذا هو تفسير الحديث السابق حين قال لسارة: ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك.

وأن المكافأة التي تلت هذا الابتلاء هي البشرى بإسحق من زوجه سارة.. فقال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[2].

وإسحاق هو الغلام العليم كما وصف فى قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾[3].

نشأ إسماعيل فى أرض الحجاز، وإليه ينسب عربها، ويسمون العرب المستعربة.

ونشأ إسحق فى أرض الشام، ومن ذريته يعقوب المسمى بإسرائيل، وإليه ينسب اليهود.

استقر الأمر بإسماعيل فى أرض الحجاز، وكلفه الله بمشاركة أبيه فى رفع قواعد البيت الحرام ليكون مثابة للناس وأمناً.

---

(١) سورة الصافات ، الآيات ٩٨ ـ ١٠٢.

(٢) سورة الصافات ، الآية ١١٢.

(٣) سورة الذاريات ، الآية ٢٨.

وعند بناء هذا البيت توجه إبراهيم وإسماعيل بالدعاء إلى الله تعالى، فذكرا أنواعاً ثلاثة:

الأول: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١).

فإن غاية المؤمن أن يرضى ربه، ويحظى عنده بالقبول، فالله سميع للدعاء، عليم ببواطن الأمور وخفايا الصدور.

الثاني: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٢).

فالإخلاص لله والاستسلام لأحكامه والرضا بقضائه، والرجوع إليه سبحانه دائماً بالإنابة والتوبة النصوح.. ذلك هو سبيل النجاة وطريق السعادة في الأولى والآخرة.

وناسب ذلك التذييل بقوله: «إنك أنت التواب الرحيم»، لأن الكمال في أداء العبادة والمناسك متعذر، وشأن العبد أن يحتاج إلى عفو سيده ورحمته.

والعاقل لا يلذ له العيش إلا بمشاركة أبنائه له، ولا تتم سعادته إلا أن تعم أبناءه معه.. وهكذا دائماً عباد الرحمن يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾(٣).

الثالث: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٤).

دعا إبراهيم عليه السلام لذريته أن تظل على إسلام الوجه لله، والعبادة بإخلاص، والإنابة بالتوبة.

لكن الإغراء والأهواء، وتقلّب الليل والنهار لا يديم شيئاً على حاله فكان الدعاء بأن يجدد الله لهذه الأمة أمر دينها وإسلامها بإرسال رسول يتم الدين والملة.

وحدد إبراهيم لهذا الرسول صفات أربعاً:

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٧.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٢٨.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٧٤.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٢٩.

«يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم».

فالتلاوة حفظ للنص، وإبقاء للتواتر، وصيانة للوحى عن التحريف والتصحيف.

والتعليم بيان للأحكام والشرائع وإظهار لحقائق الدين وأصول الإيمان.

والحكمة فقه مقاصد الشريعة فى مصالح العباد..

والتزكية مكارم الأخلاق وفضائل السلوك، وتلك غاية قصوى من غايات العبادة والنسك، فالدين المعاملة..

وكان تذييل هذا الدعاء: «إنك أنت العزيز الحكيم»

والمناسبة واضحة جلية، فإن بعثة الرسول هى مقتضى الحكمة ودليل القدرة الإلهية التى لا تقهر؛ فالله تعالى هو الذى يصطفى من يشاء، وهو سبحانه الذى يؤيده بالمعجزات، وينصره النصر المؤزر، كما قال جل شأنه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[1].

هذا وإجماع المفسرين على أن هذا الرسول الذى دعا به وله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إنما هو محمد ﷺ، فلم يبعث الله نبياً إلى العرب منذ إسماعيل عليه السلام.

وذرية إسماعيل هى المقصودة بهذا الدعاء، لأنه الذى رفع القواعد مع أبيه فى هذا الوادى.

أما إسحق فلم يشارك فى البناء ولم يحضره..

ثم إن الدعاء إنما هو ببعثة رسول واحد لهذه الأمة المسلمة، وقد تعددت الرسل والأنبياء إلى بنى إسرائيل من نسل إسحق. وقد وردت آثار تؤكد أن محمداً ﷺ هو دعوة إبراهيم، ففى مسند أحمد عن أبى أمامة قال:

قلت: يا نبى الله ما كان بدء أمرك؟ قال: (دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام)[2].

---

(١) سورة غافر، الآية ٥١.

(٢) قال عنه ابن كثير، تفرد به الإمام أحمد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، ج٢، ص٣٢٢ من البداية والنهاية.

وقد اهتم القرآن المجيد كثيراً بهذه الصلة الوثيقة بين إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فحكم أن محمداً وأمته أولى الناس به فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وجعله أباً للمسلمين فقال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

وفرض الله على الأمة الإسلامية التوجه في صلاتها إلى الكعبة بناء إبراهيم فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾(٣).

وجعل الحج إلى الكعبة تلبية لنداء إبراهيم فريضة وركناً من أركان الدين فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(٤).

ولكل هذه المعانى وغيرها اقترن ذكر إبراهيم بذكر محمد فى الصلاة والتسليم عليهما، وأفضل الصيغ ما جاء فى التشهد:

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، فى العالمين إنك حميد مجيد.

* * *

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٨.

(٢) سورة الحج ، الآية ٧٨.

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٤٤.

(٤) سورة آل عمران ، الآيتان ٩٦ و ٩٧.

بشرى عيسى

تظاهرت آيات القرآن المجيد مؤكدة حقيقة البشارة بمحمد ﷺ في التوراة والإنجيل، وقد اتخذ البيان القرآني أنماطاً متعددة في التعبير عنها، وهذه أمثلة منها:

. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1].

وفي سبب نزول هذه الآيات يروي ابن إسحق عن عاصم بن عمر عن قتادة عن رجال من قومه قالوا:

(إن مما دعانا إلى الإسلام ـ مع رحمة الله تعالى وهداه ـ لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك، أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور..

فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم..!!

فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة..)[2].

. قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3].

وفي آية أخرى يقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٨٩.

(٢) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ـ للإمام السهيلي، ج١، ص٢٤٥.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٤٦.

(٤) سورة الأنعام، الآية ٢٠.

وفى هذا التعبير: «يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» تأكيد وضوح النبوّة لسيدنا محمد ﷺ وصدقه فى دعواها، وتصديقه لما مع أهل الكتاب من بشارات..

وفى الآية الأولى بين الله تعالى أن فريقاً منهم يكتم الحق، وفى الآية الثانية حكم عليهم بالخسران والوبال لتركهم الإيمان بالرسالة المحمدية.

وينسب إلى أحد أحبار اليهود الذين أسلموا قوله: والله إن معرفتى بمحمد أشدّ وما ندرى ما تصنع النساء[1]..!!

. ثم نلتقى بالنص الصريح والعبارة القوية والصفة القاطعة بالبشارة بمحمد فى التوراة والإنجيل، فيقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾[2].

. وتحدث القرآن كثيراً عن جماعة عرفوا الحق فاتبعوه وأدركوا صدق البشارة على سيدنا محمد ﷺ فآمنوا برسالته..

. ففى سورة المائدة تحدث الآيات عن القسيسين والرهبان الذين أسلموا ورفضوا متاع الحياة الرخيص ومظاهر الرئاسة الكاذبة، فقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[3].

ثم تسوق الآيات هذا التساؤل منهم: «وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق!؟».

فكانت عاقبتهم حسن الجزاء من الله تعالى: «فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين»[4].

---

(١) فى تفسير الكشاف، ج١، ص ٣٢١، وعن عمر رضى الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله ﷺ فقال: أنا أعلم به منى بابنى. قال: ولم؟ قال: لأنى لست أشك فى محمد أنه نبى، فأما ولدى فلعل والدته خانت، فقبل عمر رأسه.

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧.

(٣) سورة المائدة ، الآيتان ٨٢ و ٨٣.

(٤) سورة المائدة الآية ٨٥

. وفى سورة الإسراء اتخذ القرآن من إيمان هؤلاء حجة على المشركين وأكد أن علمهم بالكتاب الأول هو الذى ساقهم إلى الإيمان بالرسول الخاتم، فكيف يكفر به من لا علم له ولا دين من الوثنيين؟! فقال: ﴿قُلْ آمنوا به أَوْ لا تؤمنوا إنَّ الَّذين أُوتُوا الْعِلْمَ من قَبْله إذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ للأَذْقَان سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ للأَذْقَان يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[1].

. وفى سورة القصص بين القرآن أن الرسالة المحمدية حلقةأساسية فى الوصل بين الرسالات الإلهية، وأن أهل الكتاب الذين يصلون إيمانهم بموسى وعيسى عليهما السلام بإيمانهم بمحمد ﷺ؛ لهم أجر مضاعف، ثم وصفت الآيات ثباتهم على الحق، ويقينهم الكامل بالرسالة المحمدية، ومدحت سلوكهم الراشد تجاه جهلاء العقل وغرباء الكلمة فقالت: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[2].

و ساق القرآن تشبيهاً لأمة محمد ﷺ ووصفاً لهم ذكره الله تعالى فى التوراة والإنجيل فقال: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[3].

(١) سورة الإسراء، الآيات ١٠٧ ـ ١٠٩.

(٢) سورة القصص، الآيات ٥١ ـ ٥٥.

(٣) سورة الفتح، الآية ٢٩.

فقد وصف الرسول وأصحابه فى التوراة بالشدة على الكفار والرحمة مع المؤمنين وكثرة الصلاة والسجود، فزادهم ذلك بهاءً وضياءً، وكانت صفحات وجوههم تشع نوراً.

ومثل الرسول وصحبه فى الإنجيل كزرع يبدو فى أول أمره ضعيفاً هشاً، فيعمق جذوراً ويمتد سيقاناً ويزداد فروعاً ثم يؤتى ثمره طيباً مباركا فيعجب الزراع بقوته وثمره وجمال منظره.

وحرص القرآن على تأكيد أن الرسول المبشَّر به فى التوراة والإنجيل إنما هو النبى العربى الهاشمى، فذكره بالاسم ليقطع الطريق على الأدعياء ولتتضح الحقيقة لكل ذى عينين، وأردف ذلك بأن النصر المؤزر لرسول الهدى أحمد وأن رايته ستعلو خفاقة فى العالمين، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[١].

وكان ختام البيان القرآنى فى هذا المجال ـ حسب ترتيب المصحف الشريف ـ فى سورة البينة؛ معلناً أن حجة الله على خلقه من أهل الكتاب والمشركين قد قامت ببعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم، وأن الحنيفية السمحة هى طريق البشرية إلى الله.. فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ[٢] حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٣].

(١) سورة الصف ، الآيات ٦ ـ ٨.

(٢) منفكين: منتهين.

(٣) سورة البينة ، الآيات ١ ـ ٥.

من هذا العرض السريع وتلك الإلمامة اليسيرة يتضح أن القرآن أكد تأكيدا قوياً، واحتجَّ احتجاجاً ظاهراً على نبوَّة سيدنا محمد ﷺ ببشارات التوراة والإنجيل، وألزم أهل الكتاب ضرورة الإيمان بهذه النبوَّة المحمدية تصديقاً لما معهم وما ثبت لديهم من أنه ﷺ جاء بالحق وصدَّق المرسلين.

ويعتبر هذا الاتجاه القرآنى فريداً فى إثبات النبوَّة.

يقول الإمام الرازى: (وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوَّته مكتوب فى التوراة والإنجيل، لأن ذلك لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفِّرات لليهود والنصارى عن قبول قوله، لإن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفِّرات..

والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفِّر الناس من قبول قوله.

فلما قال ذلك دلَّ هذا على أن ذلك النعت كان مذكوراً فى التوراة والإنجيل، وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوَّته)(١).

وفى هذا المعنى أيضاً يقول الإمام ابن تيمية: (نفس إخباره بذلك فى القرآن مرة بعد مرة، واستشهاده بأهل الكتاب، وإخباره بأنه مذكور فى كتبهم مما يدل العاقل على أنه كان موجوداً فى كتبهم.

فإنه لا ريب عند كل من عرف حال محمد من مؤمن وكافر؛ أنه كان من أعقل أهل الأرض، فإن المكذبين له لا يشكون فى أنه كان عنده من الخبرة والمعرفة والحذْق ما أوجب أن يقيم مثل هذا الأمر العظيم الذى لم يحصل لأحد مثله لا قبله ولا بعده..

فعلم ضرورة أنه لا يفعله ولا يخبر به، وهو من أحرص الناس على تصديقه، وأخبرهم بالطرق التى يصدق بها، وأبعدهم عن أن يفعل ما يعلم أنه يكذِّب به..

فلو لم يعلم أنه مكتوب عندهم، بل علم انتفاء ذلك، لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة، ويستشهد به، ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه، وأوليائه وأعدائه، فإن هذا لا يفعله إلا من هو أقلّ الناس عقلا، لأن فيه إظهار كذبه عند من آمن به منهم، وعند

---

(١) التفسير الكبير، ج١٥، ص ٢٦.

من يخبرونه، وهو ضد مقصوده. وهو بمنزلة من يريد إقامة شهود على حقه فيأتى إلى من لا يعلم أنه لا يكذب، ويعلم أنه ليس بشاهد، ولا حضر قضيته ويقول: هذا يشهد لى، فإنهم كانوا حاضرين هذه القضية.

فيقول أولئك: لسنا نشهد له ولا حضرنا هذه القضية.

فهذا لا يفعله عاقل يعلم أنهم لم يكونوا حاضرين، وأنهم يكذبونه ولا يشهدون له..)[1].

ويعدّ ابن تيمية هذا الطريق من أظهر الحجج على أهل الكتاب وأظهر الأعلام على نبوّته ﷺ.

* * *

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج٣، ص ٢٩٢، طبعة مطابع المجد التجارية.

الفصل الثاني

الواقع المعاصر لنشأة الدعوة

(أ) الدين:

١ ـ الوثنيـــة.

٢ ـ المجوسيـــة.

٣ ـ اليهوديـــة.

٤ ـ النصرانيـــة.

(ب) الأخلاق:

١ ـ نكاح الجاهلية.

٢ ـ وأد الأولاد.

٣ ـ قانون الغاب.

٤ ـ كلمة توضيح.

(أ) الدين

ما الإنسان فى حقيقته؟! وما الإنسان فى رسالته؟!

إن الإنسان ليس مادة فحسب، وليس بالخبز وحده يعيش الإنسان.

إن هناك عقلاومشاعر وأحاسيس تمثل حقيقة الإنسان، وتمايز بينه وبين سائر فصائل الحيوان..

وإذا أغفلنا هذا الجانب الرئيسى فلن نجد الإنسان، وإنما سنرى قطيعا من الأحياء يحكمه قانون الغاب، ويحدد مساره المأكل والمشرب والشهوة.

إن السعادة هى أقصى آمال الإنسان العاقل، وهى قمة الفضائل الإنسانية.. فهل ناطحات السحاب والتكنولوجيا وأبحاث الفضاء تهب النفس الإنسانية السعادة والاستقرار؟!

وهل الإنسان الآلى والأدوات الكهربائية الحديثة أضفت على البيوت هدوءها، ومكنت أهلها من راحة البال وانشراح الفؤاد؟!

وهل وسائل الإعلام المسموعة والمرئية مَكنت العقل الإنسانى العام من النضج والوعى وسلامة التفكير؟!

إن الواقع المرير أن الإنسان سُلب عقله وغاب وعيه، وأن الضمير الإنسانى ناله سكون الموتى، وأن مشاعر الإنسان أضحت كصخر الجبال، وأن آمال الإنسان تقوقعت وانحصرت فى المآكل والمشارب والشهوات المادية الرخيصة..

وضاعت قيم الحياة..!!

ما أريد أن أحدِّده وأؤكده هو: أن الحياة فى حاجة ماسة إلى الإيمان بالله، واكتساب العقيدة الحقيقية، التى هى ميزان السلوك والأخلاق، ومعيار الاستقامة، ونقطة البدء لسعادة الفرد وأمن المجتمع.

فهل توافر للناس صحة الإيمان وصدق اليقين فى مذهب أو نحلة أو دين قبيل البعثة المحمدية؟!!

إن استقراء الواقع التاريخى يرفض بإصرار واقتناع أن يجيب: نعم..
وهذه هى الأسباب..

* * *

١ ـ الوثنية:

عاش إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فى أم القرى، وتلقى رسالة ربه، وبلغها أهل مكة ومن حولها.. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾[١].

وطبيعة الحياة التغير وعدم الثبات على شىء، ويعترى العقائد ما يعترى الأجسام من ضمور وفساد، فمع تباعد الزمن، وتطاول العهد؛ أحدث العرب فى دين الله مالم يأذن به، وانحرفت بهم الأهواء وأغرتهم الشياطين، فعبدوا غير الله وأشركوا معه ما لا ينفعهم ولا يضرهم وما ليس لهم به علم..

وتتعدد الروايات فى نشأة الوثنية فى جزيرة العرب.

ويسوق ابن هشام رواية تفيد أن عمرو بن لحى الخزاعى قدم الشام، فرآهم يعبدون الأصنام[٢] فقال لهم: ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟!

قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا.

فقال لهم: أفلا تعطونى منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟!

فأعطوه صنماً يقال له (هبل)، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

---

(١) سورة مريم، الآيتان ٥٤ و ٥٥.

(٢) الصنم فى المعاجم وتفاسير القرآن هو ما اتخذ إلهاً من دون الله، ويفرق بوجه عام بين كلمة صنم وكلمة وثن بأن الصنم ما كان له جسم وهو يصنع من الحجر أو الخشب أو المعدن، فى حين أن الوثن يكاد يرادف الصورة أو الرسم.

وتزيد المعاجم العربية بأن كلمة صنم كلمة أعجمية الأصل، مشتقة من كلمة شنم، ولكنها لا تعرف اللغة التى اشتقت منها هذه الكلمة. ويذهب علماء اللغة الأوروبيون إلي أنها من حيث الاشتقاق هى عين الكلمة العبرية صلم أى الصورة أو التمثال. (من دائرة المعارف الإسلامية ج١٤، ص ٣٥٦).

وهناك تعليل آخر لتلك النشأة قد يكون أقرب إلى طبائع الأشياء وتعاقب الحوادث، فيسوق ابن إسحق رواية تفيد أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ـ حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد ـ إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم، حتى خلف الخلوف ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من الضلالات..)[1].

وتعددت المناسبات وتوالت الأسباب حتى صار لكل قبيلة صنم أو أصنام، وبلغ عدد الأصنام التى أحاطت بالكعبة ستين وثلاثمائة.

ووصل التنافس فى عبادة الأصنام حدا جعلهم يتخذون بيوتاً تحظى بالتعظيم، كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، ويفعل عندها ما يفعل عند الكعبة من الهَدى والطواف.

وبلغت المهانة الدينية مبلغا جعل العقل الجاهلى يصنع الصنم فيعبده، وانقلبت الحقيقة وأصبح العابد يخلق المعبود.

ويعمل الإنسان الجاهلى الصنم من العجوة يبتهل إليه ملتمسا الرزق والعطاء، ثم يؤلمه الجوع فيأكل معبوده أكلا لمًا.

بل هناك صورة مؤلمة حقاً.. لقد ذهب أحدهم إلى صنم يقال له (سواع) فألفى عنده ثعلبين يلحسان ما حوله، ويأكلان ما يهدى إليه، ثم يبولان عليه.. فأنشد قائلا:

أربٌّ يبولُ الثعلبان برأسه ... لقد ذَلَّ مَنْ بالت عليه الثعالب

إن هذه الوثنية الجاهلية تبلورت فى أمور كثيرة، أهمها:

- الاعتقاد بأن هذه الأصنام شفعاء عند الله أو تقربهم منه سبحانه، وقد أشار القرآن إلى هذاالمعنى فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

---

(١) راجع الروض الأنف، ج١، ص ١٠١.

(٢) سورة يونس، الآية ١٨.

وقال جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(١).

- إنكار البعث والسؤال والحساب لدى بعض العرب مع اعتقادهم وجود الله سبحانه، وتلك هى قضية التناقض الرئيسية فى العقيدة..

وحكى القرآن هذا المعنى في أكثر من سورة فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

- إلغاء العقل المفكر فى الدين، وبناء أمر الإيمان على التقليد الأعمى والانسياق المجرد..

ونبه القرآن إلى هذا الاتجاه الخاطئ فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾(٣).

- الالتجاء إلى الأوهام والخرافات، وملء حياة الناس بما يفسد إنسانية المرء، ويسلبه خصائص البشرية السوية، مثل السحر والكهانة والعرافة والتنجيم والتطيّر..

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾(٤).

هذا ولم تكن الوثنية وقفاً على جزيرة العرب، بل وجدت فى العراق والشام ومصر واليونان وكثير من أرجاء العالم القديم، ويعدّ سيدنا نوح عليه السلام أول رسول يواجه عبادة الأصنام فى البشرية..

قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا..﴾(٥).

---

(١) سورة الزمر، الآية ٣.

(٢) سورة النحل، الآية ٣٨.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٧٠.

(٤) سورة الجن، الآية ٦.

(٥) سورة نوح، الآيات ٢١ ـ ٢٣.

ويقال إن هذه الأصنام كانت فى بدء أمرها تماثيل لرجال صالحين تخليداً لذكراهم، فلما تقادم العهد عُبدت من دون الله.

وتوالت الرسالات الإلهية توقظ العقل الإنسانى، وتنهى عن عبادة الأصنام، وتأمر بعبادة الله الواحد الديان.. وكان لإبراهيم الخليل عليه السلام مواقف خالدة مع أبيه وقومه سجّلها القرآن العظيم فى أكثر من موضع، ومن خلال حوار إبراهيم مع قومه فى سورة الأنبياء يتضح مدى الانحراف العقدى والتخلف العقلى..

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾(1).

فالنبوَّة رشد عقلى، وفطنة، وعصمة، وكفالة إلهية للمصطفَيْن الأخيار، وإبراهيم عليه السلام أُوتى الحجة على قومه:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(2).

وهكذا فليس للوثنية سند وحجة إلا تقليد الآباء عصبية وحمية جاهلية..

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾(3).

وهنا موقف المقارنة والمقابلة، فالله تعالى هو فاطر الكون والكائنات ومبدع الوجود ومانح الخير كله.. فماذا تملك الأصنام من أمر نفسها أو من أمر غيرها؟!

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾(4).

وهذا موقف تغيير المنكر فى أسمى مراتبه بعد بيان الحجة ووضوح الدليل.

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾(5).

---

(1) سورة الأنبياء، الآية ٥١.
(2) سورة الأنبياء، الآيات ٥٢ ـ ٥٤.
(3) سورة الأنبياء ٥٥ ـ ٥٦
(4) سورة الأنبياء الآيتان ٥٧ ـ ٥٨
(5) سورة الأنبياء ٥٩ ـ ٦١

وهذا هو رد الفعل فى أول صداه.. إنكار لتلك الجريمة فى نظرهم وتشنيع على الفاعل وبحث عن الجانى!!

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾(١) .

فى ساحة المحاكمة، وعلى رءوس الأشهاد يجرى هذا الحوار وتقام هذه الحجة الدامغة التى تلفتهم إلى مواطن الخطأ والخطيئة فى عقيدة الوثنية..

لماذا يوجه السؤال إلى إبراهيم ولا يوجه إلى كبير الأصنام؟!

وكيف تتحطم الآلهة المزعومة وهى التى تتخذ ملجأ ومنجى؟!

أيهما أقوى سلطاناً: العابد أم المعبود؟!

إن الصنم أصم، أعمى، أبكم، ولا يغنى شيئاً، لكن الإنسان يسمع ويبصر ويتكلم وينحت التماثيل.. فأيهما أسمى من الآخر وأعلى؟!

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(٢) .

هنا لا مفر من أحد أمرين: الاقتناع أو المكابرة.. لكن القوم أبوا منطق العقل وعدلوا إلى البطش والتنكيل شأن كل الجهلاء المتكبرين..

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾(٣) .

وما كان الله ليدع رسوله، فلقد نصره نصراً مؤزراً، وأظهر حجته البالغة وآيته الكبرى..

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾(٤) .

* * *

(١) سورة الأنبياء، الآيتان ٦٢-٦٣
(٢) سورة الأنبياء الآيتان ٦٦ -٦٧
(٣) سورة الأنبياء، الآية ٦٨
(٤) سورة الأنبياء الآيتان ٦٩ -٧٠

٢ ـ المجوسية :

يرى المسلمون أن المجوس ممن لهم شبهة كتاب منزل بناء على أنهم من بقايا أتباع إبراهيم عليه السلام ثم حرّفوا وبدّلوا..

والمجوس يعظمون النار ويبنون لها المعابد اعتقاداً منهم أن عبادتهم لها فى الدنيا تنجيهم من عذابها فى الآخرة، وتعظيماً لها لأنها صارت برداً وسلاماً على إبراهيم..

وكانت المجوسية منتشرة فى فارس والهند والصين، وتقوم عقيدتهم على الإيمان بأصلين هما النور والظلمة، وهما بالفارسية: يزدان، وأهرمن.

واختلفوا حولهما اختلافات كثيرة.. فذهب بعضهم إلى أن يزدان أزلى قديم، وأهرمن محدث مخلوق، وقد جرت بينهما حرب ضروس انتهت بالصاح على أن يكون العالم السفلى خالصاً لأهرمن سبعة آلاف سنة ثم يخلى العالم ويسلمه إلى يزدان.

وهناك من يعتقد أن النور والظلمة أزليان قديمان، يتساويان فى القدم ويختلفان فى الجوهر والفعل والحيز والأجناس والأبدان والأرواح..

وساق الإمام الشهرستانى جدولا بيَّنَ فيه تلك الفروق لدى طائفة المانوية، نقتطف منه ما يلى[1]:

النور	الظلمة
١ ـ الجوهر: حسن، فاضل، كريم، صاف، نقي، طيب الريح حسن المنظر.	قبيح، ناقص، لئيم، كدر، خبيث، منتن الريح، قبيح المنظر.
٢ ـ النفس: خيرة، كريمة، حكيمة، نافعة، عالمة.	شريرة، لئيمة، سفيهة، ضارة، جاهلة.
٣ ـ الفعل: الخير والصلاح والنفع والسرور والترتيب والنظام والإتقان.	الشر والفساد والضرر والغم والتشويش والتتبير والاختلاف.

(١) الملل والنحل ـ تحقيق محمد سيد كيلانى، ج١، ص ٢٤٤.

النور	الظلمة
٤ ـ الحيز: جهة فوق، وأكثرهم على أنه مرتفع من ناحية الشمال، وزعم بعضهم أنه بجنب الظلمة.	جهة تحت، وأكثرهم على أنها منحطة من ناحية الجنوب، وزعم بعضهم أنها بجنب النور.
٥ ـ الأجناس: خمسة، أربعة منها أبدان، والخامس روحه، فالأبدان هي النار والنور والريح والماء، وروحها النسيم، وهي تتحرك في هذه الأبدان.	خمسة، أربعة منها أبدان والخامس روحها، فالأبدان هي الحريق والظلمة والسموم والضباب، وروحها الدخان وتدعي الهامة وهي تتحرك في هذه الأبدان.
٦ ـ الصفات: حية، خيِّرة، طاهرة، زكية، وقال بعضهم كون النور لم يزل على مثال هذا العالم، له أرض وجو، فأرض النور لم تزل لطيفة على غير صورة هذه الأرض، بل هي على صورة جرم الشمس، وشعاعها كشعاع الشمس ورائحتها أطيب رائحة، وألوانها ألوان قوس قزح(١).	ميتة، شريرة، نجسة، دنسة، وقال بعضهم كون الظلمة لم يزل على مثال هذا العالم، لها أرض وجو، فأرض الظلمة لم تزل كثيفة على غير صورة هذه الأرض، بل هي أكثف وأصلب، ورائحتها كريهة أنتن الروائح، وألوانها ألوان السواد.

وأياً ما كان فإن أساطير المجوسية حول الإله، والشيطان، والأجرام السماوية والعالم الأرضى وما يجرى فى نظام الكون والكائنات لا يمكن بحال من الأحوال أن يستسيغها عاقل، وبالتالى فهى لا تمثل العقيدة الصحيحة التى تهب الأمن والأمان وتعلى من كرامة الإنسان..

وقد حرص القرآن المجيد على إثبات أن كل ما عدا الله فهو حادث..

ولعل فى حوار إبراهيم عليه السلام مع الصابئة عبدة الكواكب ما يؤكد هذه

(١) القوس: برج فى السماء وقزح: اسم ملك موكل بالسحاب أو اسم ملك من ملوك العجم، أضيف قوس إلى أحدهما ـ راجع ترتيب القاموس، ج٣.

الحقيقة.. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾(١).

فقد تدرج بهم إبراهيم، وتنزل إليهم، وألزمهم الحجة، فهذه الكواكب تتغير وتغيب، ويعتريها النقص والتمام، والصغر والكبر، والخسوف والكسوف... فلا يعقل أن تكون آلهة!!

والحقيقة الكبرى والحجة البالغة التى تنطق بها كل ذرة فى هذا الوجود أعلنها إبراهيم فى قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢).

كما أكد القرآن العظيم إسناد كافة الحوادث والأحداث إلى الله وحده، فقال جل شأنه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٣).

وخص الأسلوب القرآنى النور والظلمة بالذكر فى دخولهما تحت القدرة الإلهية، فقال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾(٤).

ونص صراحة على أن مصدر النور والظلمة ـ وهو الشمس والقمر أو الليل والنهار ـ أثر من آثار رحمة الله بعباده فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة الأنعام، الآيات ٧٥ ـ ٧٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٧٩.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان ٢٦ و ٢٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١.

(٥)سورة فصلت، الآية ٣٧.

٣ ـ اليهودية :

اليهود ـ فى الأصل ـ هم أتباع سيدنا موسى عليه السلام، وهو رسول من أُولى العزم، اصطفاه الله وأيده بالمعجزات، وأنزل عليه التوراة هدى ونوراً..

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾(١).

وهذه الأمانة التى استحفظها الله الربانيين والأحبار؛ لم تحظ بالاهتمام الواجب، ولم تلتق القلوب على أدائها والعمل بما فيها.

وتوالى على اليهود ـ بعد موسى ـ عصور تاريخية حالكة انقلبوا فيها رأساً على عقب.

فافتروا على الله الكذب.

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾(٢).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾(٣).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾(٤).

وتفيض الكتب المقدسة لدى اليهود بوصف الله تعالى بما لا يليق، فهو سبحانه يقضى ليله فى البكاء والنحيب على شعب بنى إسرائيل الضائع، وهو سبحانه لما فرغ من خلق السموات والأرض استوى على عرشه مستلقياً على قفاه واضعاً إحدى رجليه على الأخرى.. وقد صارعه يعقوب فصرعه.

تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٨٠.

(٣) سورة المائدة، الآية ٦٤.

(٤) سورة التوبة، الآية ٣٠.

وقتل اليهود الأنبياء وأهدروا عصمتهم؛ فإبراهيم عليه السلام فى منطق التوراة المحرفة يرضى لنفسه العار ويسلم امرأته لفرعون مصر.

وداود عليه السلام يحتال على امرأة قائده ويرتكب معها الفاحشة ويرسل زوجها ليقتل فى المعركة.

ولوط عليه السلام تحتال عليه ابنتاه وتسقيانه خمراً وتضاجعانه وتحملان منه سفاحاً.

وسليمان عليه السلام يستهويه حبّ النساء حتى يعبد الأصنام إرضاءً لهنّ.. ومن العجيب أن يتعبد اليهود بسفر نشيد الإنشاد، وهو تشبيب بالمرأة ووصف كامل لجسدها، وغزل فاضح يتنزه عنه الإنسان العادى، ومع ذلك ينسبونه لسليمان عليه السلام.

ويتوه الباحث بين ما يسمونه الناموس والأسفار والمكتوبات والتلمود وقد توزع اليهود فرقاً فى العقيدة وأشتاتاً فى الوطن وتفرقوا أيدى سبأ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءُوا بغضب من الله.

وقد نكل بهم بختنصر عام ٥٨٦ق. م، ودمَّر مدينة أورشليم وأحرق الهيكل وساقهم أسرى إلى بابل، فيما عرف تاريخياً بالأسر البابلى الشهير، وبه انتهى اليهود كدولة.

ثم حدث أن غزا الفرس أرض فلسطين، وسمح لهم القائد الفارسى (قورش) بالعودة إلى أورشليم وبناء الهيكل من جديد تحت السلطان الفارسى، فظلوا بها حتى دهمهم الغزو الرومانى عام ٧٠م فشردهم (تيطس) أحد أباطرة الرومان وأحرق مدينتهم وهيكلهم ومزقهم كل ممزق، فانقلبوا هائمين على وجوههم فى صحراء العرب وما جاورها من أمصار، وكان لهم فى يثرب مأوى من تشرد.. ومكثوا بها زمناً. لم يسلم أهل يثرب من نشاطهم المخرِّب وفتنتهم الحارقة إلى أن جاء الإسلام وهاجر الرسول ﷺ وسطع نور الله على يثرب فأصبحت مدينة الرسول وحرم الإسلام[1].

(١) من الدراسات حول هذا الموضوع:

(أ) إظهار الحق للعلامة رحمة الله الهندى.

(ب) الأسفار المقدسة قبل الإسلام ـ الدكتور على عبد الواحد وافى.

(جـ) اليهودية ـ الدكتور أحمد شلبى.

(د) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام ـ الدكتور عوض الله حجازى.

فخبِّرونى أى عقيدة يمكن أن يكتسبها الإنسان من اليهودية؟! وأى سكينة نفسية يمنحها اليهود للإنسان؟!

إنهم يرفضون أن يتهود البشر ويرون عقيدتهم حكراً عليهم، ولا يرضون للإنسان إلا أن يكون ذليلا لهم، خاضعاً لأهوائهم، مسلوب الإرادة أمام مخططاتهم.

* * *

٤ ـ النصرانية :

جاء سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام مصدقاً بالتوراة ومبشراً برسول يأتى من بعده اسمه أحمد.. وجعل الله نشأته آية، وبارك عليه وعلى أمه الصديقة واصطفاها على نساء العالمين..

غير أن النصرانية التى وجدت قبيل البعثة المحمدية لم تكن بالدين الصحيح الذى جاهد عليه المسيح، واكتنفها الغموض، ودخلها التحريف ومزقتها الصراعات.

ويدور أمر هذه النصرانية المحرَّفة حول مجموعة اتجاهات رئيسية تحدد ما نقصده.

أولا: هل المسيح إنسان أم إله؟!

اختلفت النصارى حول طبيعة المسيح اختلافات وبيلة، ويصدم العقل البشرى بمفاهيم وتعبيرات تسلبه التفكير السليم، مثل الاتحاد والتجسُّد، والأقنوم والكلمة، واللاهوت، والناسوت، والآب والابن، وروح القدس إله واحد.

وانعقد مجمع نيقية عام ٣٢٥م ليقرر هذه الطلاسم:

«نؤمن بالله الواحد، الآب، مالك كل شىء، وصانع ما يُرى وما لا يُرى، وبالابن الواحد يسوع المسيح، ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها، الذى ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذى بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شىء من أجلنا، ومن أجل معشر الناس، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسَّد من روح القدس، وصار إنساناً، وحُبل به، ووُلد من مريم البتول، وقتل وصلب أيام فيلاطوس، ودفن ثم قام فى اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجىء تارة أخرى بين الأموات والأحياء.

ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذى يخرج من أبيه وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا..»[1].

ثانياً: أين إنجيل عيسى عليه السلام الذى أنزله الله وحياً؟

إن العهد الجديد لدى النصارى كله قائم على تأليفات بشرية، وباعترافهم جميعاً ليس إنجيل عيسى، وإنما هى إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا.

وبعض هؤلاء لم ير المسيح، فلوقا تلميذ بولس، ذلك اليهودى الذى أفسد على النصارى دينهم.

وهناك شك كبير لدى الباحثين فى أن كاتب إنجيل يوحنا من تلاميذ المسيح.

وأياً ما كان فإن هذه الأناجيل كلها قائمة على زعم فاسد وادعاء باطل هو الإلهام والتلقى عن الله بعد انتقال المسيح.

ويضاف إلى هذه الأناجيل ما يسمى بأعمال الرسل، وهى رسائل حول قصة المسيح ومبادئه، وجميعها أوهام تلقاها أصحابها عن طريق الرؤى وأضغاث الأحلام.

ثالثاً: إن الخطيئة الأولى وعقدة الذنب، والصلب والفداء عقائد غير معقولة معنى، وغير واقعة أصلا.

فهم يزعمون أن خطيئة آدم عليه السلام تلاحق البشر، وأن الإله حل فى مريم، وتجسَّد فى عيسى، وصلب تكفيراً للخطيئة.

والحق أن آدم عليه السلام لم يرتكب خطيئة وإنما نسى أو تأوَّل ثم تلقى كلمات من ربه فتاب عليه، وهبط آدم إلى الأرض طاهراً مجتبى، ونبياً رسولا، وخليفة يعمر الأرض.

وعلى فرض الخطيئة ـ وقد نفرض المستحيل ـ هل الذنب يورث؟! وهل يتحمل الأبناء وزر آبائهم؟!

ولو سلَّمنا جدلا هذا الإرث الظالم، فما السبيل إلى مغفرة الذنب؟! ألا يكفى أن يقول الإله: غفرت لكم، طالما كانت تلك مشيئته؟!

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى، ج١، ص٢٢٣ ـ طبعة دار المعرفة ـ بيروت.

وما الحكمة وراء هذه المناورات من التجسد والحلول والصلب؟!

ولو قبلنا هذه التمثيلية على علاتها فما علاقة اليهود بتلك المسألة الإلهية المحضة؟

وهل صلب المسيح باختياره الحر أم قهراً عنه؟!

وإذا كانت عقيدة النصارى أن اليهود اقتادوه وقدموه للحاكم الظالم ليقتله ويصلبه، فأى تكفير فى هذا لخطايا البشر؟!

ألم يكن من المتصوَّر أن يذهب المسيح وينتحر فداء للبشر؟!

ولو انتهينا إلى تسليم كل هذه الافتراءات والتخيلات الكهنوتية أليس من عرفان الجميل أن يُشكر اليهود على فعلتهم هذه فى تخليص البشر من ملاحقة شبح الخطيئة الأولى؟!

تساؤلات يطرحها العقل ويصاب حيالها الكهنوت الكنسى بصمت الموتى..!!

وبعد: فإن هناك ضرورة إنسانية كبرى تلح على ظهور نبىّ جديد يصون للإله قدسيته، ويحفظ للإنسان وعيه وفكره، وينقذ البشرية من ضلالها الآثم وتصوراتها الخاطئة عن الله والملأ الأعلى..

وما كان ذلك النبى إلا محمد بن عبد الله ﷺ، الذى تحمل عبء هذا النداء الإلهى:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[1].

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٠.

(ب) الأخلاق

إن الإنسانية فى حقيقة أمرها تجمُّع أخلاقى يرتبط بالإرادة الحرة التى يكون على أساسها التكليف والمسئولية..

لكن ما المقياس الأخلاقى؟!

إن القوانين مهما أحكمت لا تستطيع أن تسيطر على قوى الإنسان الداخلية، ثم إن القانون يحتاج إلى من يقوم على حمايته وعلى أمر تنفيذه، وهذا الحارس للقانون إنما هو إنسان يحتاج إلى من يحرسه أيضاً، لأنه لن يكون معصوماً.

إن الإيمان وحده هو الذى يتولى تأصيل القيم والمبادىء داخل النفس الإنسانية.

وإن النفس المؤمنة تسارع إلى الخير بمقتضى فطرتها، أما النفس الملحدة فتساق من ظاهرها برهبة السوط وعين القانون.. ومتى أخطأ السوط أو غفل القانون فهناك مجالات رحبة من فوضى الأخلاق وسريان قانون الغاب.

وتتأكد أيضاً الضرورة الأخلاقية للإيمان فى تصحيح مسار العلاقات الاجتماعية كى تنمو على أساس المحبة لله والمحبة فى الله.. ذلك المبدأ الذى يتسامى على أهواء النفس ودنايا المادة، فتنزوى الأحقاد، وتنأى الخصومات، ويعيش الناس عباد الله إخواناً..[1].

ومتى أدركنا أن الملل والنحل التى سادت العالم قبيل البعثة المحمدية قد أهدرت قدسية الله، وضيعت معالم الخلافة التى منحها الله للإنسان، وسلبته وعيه الحضارى، فماذا تكون أخلاق الناس يومئذ؟!

إن الفساد العقدى لا ينجم عنه إلا فساد خلقى، فأخلاق المرء على قدر دينه.

ويمكن تصور مدى هذا الفساد الخلقى من الواقع الجاهلى فى المنطقة العربية كنموذج لما ساد بقية العالم..

وهذه لمحات عن هذا الواقع الأليم.

(١) راجع: (الإيمان ضرورة أخلاقية)، ص٤٥ من كتابنا (الإلهيات فى العقيدة الإسلامية) ـ ط دار الاعتصام.

١ ـ نكاح الجاهلية:

علاقة الرجل بالمرأة هى محور أخلاق الناس، فإذا سمت هذه العلاقة واتسمت بالرشد، وقامت على العفاف الشريف كانت أخلاق الناس حسنة.

وإذا شاعت هذه العلاقة بلا تنظيم، وأهدرت قيم الأعراض؛ ساءت أخلاق الناس، وضاعت معالم حياتهم الإنسانية.

وقد حدثتنا السيدة عائشة زوج النبى ﷺ ـ كما فى صحيح البخارى ـ (أن نكاح الجاهلية كان على أربعة أنحاء:

فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليَّته أو ابنته فيصدقها[١] ثم ينكحها.

ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها[٢]: أرسلى إلى فلان فاستبضعى[٣] منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب.

وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد[٤]، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومرّ عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذى كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان.. تسمى من أحبّت باسمه فيلحق به ولدها.

ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهنَّ البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهنّ دخل عليهنّ، فإذا حملت إحداهنّ ووضعت حملها جمعوا ودعوا لها القافة[٥]، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاط[٦] به، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك.

---

(١) يعين صداقها ويسمى مقداره.

(٢) الطمث: الحيض.

(٣) البضع هو الفرج، والمباضعة هى المجامعة، واستبضعى منه: اطلبى منه المجامعة.

(٤) كانوا يفعلون ذلك مع رؤسائهم وأكابرهم ليكتسب أبناؤهم الشرف منهم، وهو أشبه بما يعرف الآن ببنك الأجنة..!!

(٥) جمع القائف: وهو الذي يلحق الولد بالوالد بالآثار.

(٦) التصق به.

ثم تقول السيدة عائشة: فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم).

هذا ولو تأملنا نكاح الخطبة والعقد الواقع فى الجاهلية نجد أنه كان محفوفاً بمزالق أخلاقية كثيرة، تعقبها القرآن المجيد.

من هذه الانحرافات زواج المحارم، كزوجة الأب، والجمع بين الأختين وزوجة الابن، والمرأة وابنتها.. إلخ.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١).

وجاء فى أسباب النزول أنه لما توفى أبو قيس بن الأسلت، وكان من صالحى الأنصار، خطب ابنه قيس امرأته، فقالت: أنا أعدّك ولداً، وأنت من صالحى قومك، ولكنى آتى رسول الله ﷺ.

فقالت: إن أبا قيس توفى، وإن ابنه قيساً خطبنى وهو من صالحى قومه، وإنما كنت أعدّه ولداً، فما ترى؟!

فقال لها: ارجعى إلى بيتك، فنزلت: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾(٢).

بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، فجعل امرأة الأب من أموال الميراث، تورث كما يورث المتاع، فإذا مات الرجل وترك امرأة ولا ولد لها جاء ابنه من غيرها

---

(١) سورة النساء، الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية ٢٢.

أو وليه فألقى عليها ثوباً، فإن شاء تزوجها بالصداق الأول، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء منعها من الزواج.. فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾(١).

* * *

٢ ـ وأد الأولاد :

شاع بين العرب قتل الأولاد لأكثر من سبب، فبعضهم فعل ذلك خشية الإملاق، ولم يفرق بين ذكر وأنثى.. قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾(٢).

فالولد في اللغة يطلق على الذكر والأنثى.

ونلاحظ أن البيان القرآني لفت أنظار الناس إلى حقيقة مهمة، هي أن الرزق بيد الله يؤتيه من يشاء، وأن رزق هؤلاء الأولاد مقدم على رزق آبائهم، فالناس إنما ييسر لهم الرزق بسبب من يعولونهم..

وبعض العرب ـ وهم ربيعة ومضر ـ قتلوا البنات حميَّةً وخوف العار، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٣).

فالرجل منهم إذا ولد له بنت اختفى من قومه مهموماً مكروباً حزيناً، ماذا يفعل؟ أيبقى على حياتها ويظل العار يلاحقه أم يدفنها في التراب وهي على قيد الحياة؟!.

ونسي هذا الجاهلي أنه إنما جاء من امرأة، ويعيش مع امرأة..!!

ومن العرب من قال: إن الملائكة بنات الله وهم خزاعة وكنانة، فوأدوا بناتهم ليلحقوا ببنات الله.

قال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة النساء، الآية ١٩ ـ راجع الروايات وتخريجها في تفسير ابن كثير، ج١، ص٤٦٥ ـ طبعة دار المعرفة ـ بيروت.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٣١.

(٣) سورة النحل، الآيتان ٥٨ و ٥٩.

(٤) سورة النحل، الآية ٥٧.

وقال جل شأنه: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾(١).

ومنشأ الضلال فى هذه الفرية أنهم نسبوا الولد لله تعالى، وجعلوا هذا الولد من جنس ما يبرءون منه وينفرون، ثم كان هذا الحكم سفاهة من غير علم ولا دليل.

ويرى الإمام الرازى أن العرب إنما أطلقوا لفظ البنات، لأن الملائكة لما كانوا مستترين عن العيون أشبهوا النساء فى الاستتار، فأطلقوا عليهم لفظ البنات.

وأيضاً قرص الشمس يجرى مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر ونوره القاهر، فأطلقوا عليه لفظ التأنيث(٢).

ويبدو أن هناك اتجاهاً آخر فى قتل الأولاد تمثل فى النذر للأصنام وتقديمهم قرابين لها.. ويحمل على ذلك ما ورد من قصة عبد المطلب حين لقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم، فنذر لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ليذبحن أحدهم عند الكعبة.

وسبب ذلك(٣): أن عبد المطلب أُمر فى المنام بحفر زمزم، ووُصف له موضعها، وكانت جُرْهُم قد غلبت آل إسماعيل على مكة، وملكوها زماناً طويلا، ثم أفسدوا فى حرم الله.

فوقع بينهم وبين خزاعة حرب، وخزاعة من قبائل اليمن، من أهل سبأ، ولم يدخل بينهم بنو إسماعيل، فغلبتهم خزاعة، ونفتْ جرهما من مكة.

وكانت جرهم قد دفنت الحجر الأسود والمقام وبئر زمزم، وظهر بعد ذلك قصى بن كلاب على مكة، ورجع إليه ميراث قريش، فأنزل بعضهم داخل مكة ـ وهم قريش الأباطح ـ، وبعضهم خارجها ـ وهم قريش الظواهر ـ فبقيت زمزم مدفونة إلى عصر عبد المطلب.

---

(١) سورة الزخرف، الآية ١٩.

(٢) التفسير الكبير ج٢٠، ص ٥٤.

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ٦٠، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود.

فرأى فى المنام موضعها فقام يحفر، فوجد فيها سيوفاً مدفونة وحلياً، وغزالا من ذهب مشنفاً بالدرّ، فعلقه عبد المطلب على الكعبة، وليس مع عبد المطلب إلا ولده الحارث، فنازعته قريش، وقالوا له: أشركنا، فقال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خُصصت به، فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه.

فنذر حينئذ عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أولاد وبلغوا أن يمنعوه، لينحرن أحدهم عند الكعبة.

فلما تموا عشرة، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه، وكتب كل واحد منهم اسمه فى قدح وأعطوا القداح قيِّم هبل ـ وكان هو الذى يجيل القداح.

فخرج القدح على عبد الله، وأخذ عبد المطلب المدية ليذبحه، فقامت إليه قريش من ناديها فمنعوه، فقال: كيف أصنع بنذرى؟ فأشاروا عليه أن ينحر مكانه عشراً من الإبل، فأقرع بين عبد الله وبينها فوقعت القرعة عليه، فاغتم عبد المطلب، ثم لم يزل يزيد عشراً عشراً، ولا تقع القرعة إلا عليه، إلى أن بلغ مائة، فوقعت القرعة على الإبل، فنحرت عنه، فجرت سنّة.

وروى عن النبىﷺ أنه قال: (أنا ابن الذبيحين)[1] يعنى إسماعيل عليه السلام وأباه عبد الله.

ثم ترك عبد المطلب الإبل لا يردّ عنها إنساناً، فجرت الدية فى قريش والعرب مائة من الإبل وأقرّها رسول الله ﷺ.

ومهما يكن من أمر فإن القرآن المجيد قد ذكر هذا الواقع الأليم للعرب وسفههم على قتل أولادهم.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله: «قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين»[2].

---

(١) قال محققو الكتاب: الحديث رواه الحاكم فى مستدركه بلفظ أن أعرابياً قال للنبى ﷺ: يا ابن الذبيحين كما فى كشف الخفا عن المقاصد.

وأقول: وروى ابن جرير حديثاً غريباً فيه أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ وقال: يا رسول الله عُدْ على مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. فضحك رسول الله ﷺ، راجع هذا والآثار الواردة فى الذبيح الأول فى تفسير ابن كثير، ج٤، ص ١٧

(٢) سورة الأنعام الآية ١٤٠

وساق الإمام القرطبى فى تفسيره هذه الواقعة[1].

روى أن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ كان لايزال مغتماً بين يدى رسول الله ﷺ.

فقال له رسول الله: مالك تكون محزوناً؟!

فقال: يا رسول الله، إنى أذنبت ذنباً فى الجاهلية فأخاف أن لا يغفره الله لى وإن أسلمت..!!

فقال له: أخبرنى عن ذنبك.

فقال: يا رسول الله، إنى كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لى بنت فتشفعت إلىّ امرأتى أن أتركها، فتركتها حتى كبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء، فخطبوها، فدخلتنى الحميَّة ولم يحتمل قلبى أن أزوجها أو أتركها فى البيت بغير زوج.

فقلت للمرأة: إنى أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقربائى فابعثيها معى.

فسُرَّت بذلك وزينتها بالثياب والحلى، وأخذت علىَّ المواثيق بأن لا أخونها.

فذهبت بها إلى رأس بئر، فنظرت فى البئر، ففطنت الجارية أنى أُريد أن ألقيها فى البئر فالتزمتنى وجعلت تبكى وتقول: يا أبت، أى شئ تريد أن تفعل بى..؟!

فرحمتها، ثم نظرت فى البئر فدخلت علىَّ الحمية، ثم التزمتنى وجعلت تقول: يا أبت، لا تضيع أمانة أمى..!!

فجعلت مرة أنظر فى البئر، ومرة أنظر إليها فأرحمها، حتى غلبنى الشيطان، فأخذتها وألقيتها فى البئر منكوسة، وهى تنادى فى البئر: يا أبت قتلتنى..!!

فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت..

فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال: (لو أُمرت أن أُعاقب أحداً بما فعل فى الجاهلية لعاقبتك).

* * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج٧ ، ص ٩٧.

٣ـ قانون الغاب:

عاش العرب فى جزيرتهم بلا قانون ولا شريعة إلا ما تمليه ظروف الزمان والمكان؛ ووقعت بينهم حروب ومنازعات أهلكت الحرث والنسل بلا سبب معقول ولا غاية نبيلة، وتسلط عليهم الأقوياء منهم غلبة وقهراً..

وتحدِّث الروايات أن كليب بن ربيعة بلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يُرعى حماه، وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه إجلالا له، ولا يحتبى[1] أحد فى مجلسه غيره، ولا يُغير إلا بإذنه، ولا تورد إبل أحد مع إبله، ولا توقد نار مع ناره، ولم يكن بكرىّ ولا تغلبىّ يجير رجلا ولا بعيراً، أو يحمى حمى إلا بأمره، وكان يجير على الدهر فلا تُخفر ذمته وكان يقول: وحش أرض كذا فى جوارى فلا يُهاج..!!

وكان هو الذى يُنزل القوم منازلهم ويرحلهم، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره.

وقد بلغ من بغيه أن اتخذ جرو كلب، فكان إذا نزل منزلا به كلأ قذف ذلك الجرو فيه فيعوى، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه.

وكان يفعل هذا بحياض الماء، فلا يردها أحد إلا بإذنه أو من آذن بحرب..

وكان يحمى الصيد فيقول: صيد ناحية كذا وكذا فى جوارى، فلا يصيد أحد منه شيئاً.

من أجل ذلك ضُرب به المثل فى العز فقيل: أعز من كليب وائل..!!

وكان هذا الطاغية سبباً فى حرب أهلية استمرت أربعين عاماً بين بكر وتغلب ابنى وائل، عرفت فى التاريخ بحرب البسوس!!

فقد تزوج كليب جليلة بنت مرة، وذات يوم دخل عليها قائلا: هل تعلمين على الأرض أمنع منى ذمة؟!

فسكتت، فأعادها ثانية وثالثة، فقالت: نعم أخى جساس!!

فأسرَّها فى نفسه، ومضت مدة، وبينما هى تغسل رأسه وتسرِّحه قال لها: من أعز وائل؟!

---

(١) احتبى بالثوب: اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها.

قالت: أخواى جساس وهمام..!!

فنزع رأسه من يدها وخرج، فرأى فصيل ناقة لخالتها البسوس، فرماه بقوس وقتله، ثم مرت عليه إبل جساس وفيها ناقة البسوس فأنكرها وقال: ما هذه الناقة؟

قيل له: لخالة جساس.

فقال: أو بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير عليّ بغير إذنى؟!. ارم ضرعها يا غلام.

فأخذ القوس ورمى ضرع الناقة، فاختلط دمها بلبنها.

هنا بدأت عملية الثأر لذلك الفصيل وتلك الناقة..!!

فأغار جساس على كليب زوج أُخته وطعنه برمح، وأثناء احتضاره طلب بعضاً من الماء، فنزل إليه عمرو ابن عم جساس وأجهز عليه. فضرب به المثل القائل:

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

وتوالت الأحزان، وغرست الأحقاد، واقتتل الفريقان قتالا مريراً، أهلك الحرث والنسل.

• • •

وإذا انتقلنا إلى يثرب وفيها الأوس والخزرج نجد أن الحروب قد دمرتهم فى الجاهلية، وكان من أشهر حروبهم حرب سُمير، وحرب كعب، وحرب حاطب، ويوم بعاث.

فحرب سمير مثلا نشبت لاختلافهم حول: من أعز أهل يثرب؟!

وذلك حين قدم رجل من غطفان معه فرس، ووقف فى سوق بنى قينقاع قائلا: ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب..!!

فلما كثر الكلام أقبل الرجل ودفع الفرس إلى مالك بن العجلان الخزرجى.

وتحمس رجل حليف له فتعقبه سمير بن يزيد الأوسى وقتله، وبدأت الحرب بين الأوس والخزرج.

• • •

إن العجب ليشتد بالإنسان العاقل حين يتصفح أسباب الحروب فى الجاهلية.

إنها بدايات حقيرة ونهايات مؤلمة مروعة..!! وقد نبه القرآن المجيد إلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١).

وبلغ من عمق المأساة أن اخترعوا النسىء، وهو تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر، لحاجتهم إلى شنّ الغارات وطلب الثأر.. فما كادوا يصبرون عن القتال هذه الفترة الزمنية من ذى القعدة إلى المحرم، مع أن الله تعالى جعلها واحات أمن وأمان يفىء الناس إليها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٢).

لقد زين لهم الشيطان القتال فى الأشهر الحرم، وعرف فى تاريخ العرب حروب الفجار بين كنانة وقيس لأنهم فجروا فيها واستحلوا المحارم بينهم.

وأول فجار وقع فى أحد مواسم الحج بعكاظ، حين جلس بدر بن معشر الغفارى، وجعل يتطاول على الناس ويقول:

نحن بنو مدركة بن خِنْدِف ... من يطعنوا في عينه لا يَطْرِف
ومن يكونوا قومه يُغَطْرِف(٣) ... كأنهم لجة بحر مُسْدِف(٤)

ثم مد رجله وقال: أنا أعز العرب، فمن زعم أنه أعز منى ليضربها بالسيف..!!

فوثب رجل من بنى نصر بن معاوية فضربه بالسيف على ركبته فقطعها(٥).

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

(٢) سورة التوبة، الآية ٣٧.

(٣) الغطريف والغطارف: السيد الشريف السخى.

(٤) المسدف: المظلم.

(٥) لمعرفة تفاصيل هذه الحروب وغيرها يراجع كتاب (أيام العرب فى الجاهلية) تأليف: محمد أحمد جاد المولى، وعلى محمد البجاوى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم).

٤ ـ كلمة توضيح :

إن ما ذكرناه عن العرب فى جاهليتهم ليس إلا مثالا لما يجرى فى العالم أجمع.

ففى فارس كان مزدك ـ كما يقول الشهرستانى[١] ـ ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال، أحلَّ النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ.

وفى الهند ساد نظام الطبقات الاجتماعية الشاذ، الذى قسم الناس إلى أربع طبقات:

١ ـ الكهنة وخلقوا من رأس براهما.

٢ ـ الحراس والجنود ونشأوا من ذراعيه.

٣ ـ أرباب الحرف والصناعة وتكونوا من ساقيه.

٤ ـ الأرقاء وخرجوا من قدميه.

وعلى الصعيد العالمى دارت الحرب سجالا بين الفرس والروم، وشقى الناس بويلاتها، وتسلط على الشعوب أكاسرة وقياصرة أذاقوهم الهوان! وأصبح الناس بين حاكم طاغية وشعب مستضعف، وعمَّ العالم فساد أخلاقى، وظلم اجتماعى، واضطهاد دينى.

وأصدق وصف لحال العالم قبيل الإسلام ما جاء فى القرآن المجيد..

﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[٣].

فالظاهرة العامة تمثلت فى هذه الاتجاهات المنحرفة، ولا ينفى ذلك أن هناك أضواء خافتة ظهرت فى حياة هؤلاء البشر.

---

(١) الملل والنحل، ج١، ص ٢٤٩.

(٢) سورة الجمعة، الآية ٢، وسورة آل عمران، الآية ١٦٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

فالحنفاء بحثوا عن الدين الصحيح، وعرفوا أن الحق وراء هذه الأصنام والأوثان، وأقسم قس بن ساعدة الإيادى: أن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا..!!

وهناك من أحيا الموءودة مثل زيد بن عمرو بن نفيل وصعصعة بن ناجية، ومنهم من أحب مكارم الأخلاق، حتى قال حاتم الطائى:

فلا الجود يفني المال قبل فنائه ... ولا البخل فى مال الشحيح يزيد

فلا تلتمس مالا بعيش مقتر ... لكل غد رزق يعود جديد

وقال عنترة:

وأغضُّ طرفى إن بدت لى جارتى ... حتى يوارى جارتى مأواها

واجتمع البعض فى دار عبد الله بن جدعان، وتعاقدوا على نصرة المظلوم، وعُرف ذلك بحلف الفضول.

فهذه اتجاهات فردية ليس لها من قوة التأثير ما يجعلها ظاهرة اجتماعية.. وليس لها من صحة القصد وسلامة النية ما يجعلها مذهباً أخلاقياً له دعائمه الفكرية..

والأمثال العربية فى مجموعها تؤكد هذا المعنى، فهى مرتبطة بشخص واحد يضرب به المثل، ولذا جاء فى صحيح مسلم أن عائشة رضى الله عنها قالت: (يا رسول الله، إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويَقرى الضيف، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟. فقال: لا، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين).

وروى الإمام أحمد أن عدى بن حاتم الطائى قال: يا رسول الله،إن أبى كان يصل الرحم، ويفعل ويفعل، فهل له فى ذلك؟ يعنى من أجر.

قال: إن أباك طلب شيئاً فأصابه..!!

وفى رواية: إن أباك أراد أمراً فأدركه..!!

يعنى الذكر..

وبعد ـ فالناس فى ضرورة كبرى إلى معرفة معالم الأخلاق الفاضلة والحياة الإنسانية الراشدة.

وهم فى أمس الحاجة إلى قانون الحق والواجب فى العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

والعقل الإنسانى قديماً وحديثاً قاصر عن أن يحيط بقانون العمران البشرى..

والخالق وحده هو أعلم بخلقه..

والله وحده هو أرحم بعباده..

ولابد لدنيا الناس من دين الله..

وصدق الله حيث يقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)﴾[1].

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

الفصل الثالث

المعجزة الكبرى

- التحدى بالقرآن
- تذوق البيان القرآنى
- وجوه الإعجاز القرآنى
  - ـ الإعجاز البيانى
  - ـ الإعجاز العقدى
  - ـ الإعجاز التشريعى
  - ـ الإعجاز العلمى
  - ـ الإخبار بالغيب

المعجزة الكبرى

(أ) التحدى بالقرآن :

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للرسول ﷺ وبه وقع التحدى للثقلين الإنس والجن.

إن التحدى للعرب وقع فى مكة والمدينة، وأعلنه القرآن مرات كثيرة، وطالبهم بالاستعانة بمن شاءوا من علماء وحكماء وفصحاء، ففى سورة الإسراء يقول:

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(1).

ثم خفف القدر المتحدى به فقال:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(2).

ثم تنزل لهم فى التحدى فقال:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(3).

هذه الآيات مكية نزلت قبل الهجرة ثم ظل التحدى قائما فى المدينة بعد الهجرة، فقال تعالى فى سورة البقرة:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(4).

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٨. (٢) سورة هود الآيتان ١٤، ١٤.

(٣) سورة يونس الآيتان ٣٧، ٣٨. (٤) سورة البقرة الآية ٢٣

إن التحدى العام للناس جميعا طال على عمر الرسالة كلها ثلاثا وعشرين سنة، وجعله الله حجة لصدق النبوة، فلماذا اتجهوا إلى حمل السلاح وخوض المعارك ووقوعهم أسرى وقتلى والأمر ميسور لو استطاعوا المعارضة؟!

إن الثابت والواقع والذى لا يقبل الريب أن الظاهرة القرآنية أوقعتهم فى ذهول، وجعلتهم حيارى يتخبطون فى أحكامهم عليها، وحكى القرآن المجيد نمطاً من هذا الخلط الذى شغل بالهم.

فتارة يدَّعون القدرة على المعارضة:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾(١).

وتارة يتجهون فى ادعاءاتهم إلى شخصية الرسول الكريم:

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾(٢).

وتارة يستبد بهم التفكير فلا يصدر عنه إلا المتناقضات:

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(٣).

إن العرب حارت عقولهم أمام الظاهرة القرآنية، وفى مواضع تفوق الحصر تتجلى هذه الظاهرة فى تحد من نوع آخر، إنه الوصف للقرآن بالعظمة والصدق، والوصف بالعزة والرفعة، والوصف بالاستمرار والخلود..

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾(٤).

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٥).

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣١.
(٢) سورة الصافات الآية ٣٦.
(٣) سورة المدثر الآيات ١٨ : ٢٥.
(٤) سورة الحجر الآية ٨٧.
(٥) سورة فصلت الآيتان ٤١، ٤٢.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾(١).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٢).

فهل للعرب أن يفاخروا أو ينافسوا؟!

لا موقف لهم ولا تعليل لعجزهم إلا أنهم ألفَوْا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون.

لقد تعدد أسلوب القرآن فى تحدى العرب فوصف من كذب به بأنه أصم، وأبكم، وأعمى، وفى الظلمات ليس بخارج منها، وأضل من الأنعام، وشر من الدوابِّ، وله فى الآخرة نار جهنم لا يموت فيها ولا يحيا.. فما كان أيسر للعرب أن يعارضوا القرآن لو استطاعوا ليزيلوا عن أنفسهم هذه النقائص ويريحوا أفئدتهم من هذا العناء.

لقد أكد القرآن فى أسلوب معجز أنهم عاجزون عن المعارضة وقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ولَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(٣).

فالتعبير بقوله «ولن تفعلوا» يفيد تأكيد نفى المستقبل.. وهذا هو منتهى التحدى لهم والإحباط من جانبهم..

وقد يتوهم البعض أن التحدى القرآنى موجه للعرب فقط فما بال الأمم غير الناطقة بالعربية..؟!

وهذا وهم كبير فإن التحدى لأهل الذكر والاختصاص ينسحب على غيرهم من باب أولى، ومن شهد له الأطباء أو علماء الفضاء باختراع معين فاق به أقرانه لا يضيره أن يعترض عليه جاهل من عامة الناس.

إن التحدى القرآنى موجه إلى العالمين فى شخص الناطقين بالعربية، فإذا عجز العرب وهم أهل اللغة وأرباب فصاحتها والعارفون بأسرارها فقد لزمت الجميع الحجة وقام عليهم الدليل.

---

(١) سورة الأنبياء آية ٥٠.

(٢) سورة الحجر آية ٩.

(٣) سورة البقرة آية ٢٤.

ومن أبى فليعارض وليقدم ما يثبت به معارضته، وسيعلم حينئذ أنه يعيش فى سراب فكرى وظلام عقدى ولا نجاة له إلا فى نور القرآن.

ب ـ تذوق البيان القرآنى:

من المقطوع به أن القرآن المجيد نزل مفرقا طوال مدة الرسالة التى تقدر بثلاث وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة سنة فى مكة، وعشر سنوات فى المدينة، وذلك فى مناسبات شتى وأحداث بعيدة وقضايا متفرقة، وكان إذا نزلت آية أو آيات يقول الرسول ﷺ ضعوها فى مكان كذا من سورة كذا.

ومع هذا الانفصال الزمنى نجد القرآن العظيم محكم الأسلوب، قوى الاتصال، آخذا بعضه برقاب بعض فى سوره وآياته، فى انسجام ووحدة وترابط كأنما نزل جملة واحدة، وماذاك إلا لأنه تنزيل رب العالمين..

وعندما ارتاب المشركون فى تنجيم القرآن وتفريقه نزل الوحى الإلهى مبينا للحكمة فقال:

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾(١).

وفى نفس السورة يحكى أيضاً:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۝ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾(٢)

وفى سورة أخرى يوضح مزيداً من حكمة تنجيمه وتفريقه فيقول:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾(٣).

وهكذا كان ما اتخذوه سببا للطعن حجة عليهم، فإنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه، وتحداهم القرآن بأقصر سورة منه فكيف لو نزل جملة واحدة؟!

---

(١) سورة الفرقان ٥، ٦.

(٢) سورة الفرقان الآيتان ٣٢، ٣٣.

(٣) سورة الإسراء آية ١٠٦.

ومن حكمة الله تعالى فى البيان القرآنى أنه مع بلاغته العظمى وإعجازه اللغوى فإنه ميسر للفهم، قريب للعقل، واضح الدلالة، قوى التأثير ويستطيع كل إنسان مهما كان ذكاؤه أن ينتفع بهدايته.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(1).

إن القرآن المجيد قد تركب من جنس الكلمات التى يتكلم بها العرب ومن نفس الحروف التى ينطقونها. ومع ذلك فقد وقف العرب مشدوهين أمام الإعجاز البيانى للقرآن، ولعل هذا هو أحد الأسرار التى يرمز إليها القرآن فى فواتح بعض سوره مثل: ألم، ألر، ص، ق، ن.. الخ.

ولعلنا نذكر أن إسلام عمر بن الخطاب كان من أثر تذوق لبيان القرآن حين سمعه فى دار أخته زوجة سعيد بن زيد، عندما دخل عليهما للبطش بهما لعلمه بإسلامهما، فما هى إلا لحظات سمع فيها القرآن من سورة طه فاهتز قلبه لجلاله وإعجازه فقصد إلى مجلس الرسول ﷺ وشهد شهادة حق بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

وقد أدرك زعماء الشرك فى مكة هذا الأثر العظيم للقرآن فخافوا على أهليهم وحاولوا بكل وسيلة منع الآذان من سماعه، وحكى القرآن ذلك فى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(2).

وسجل البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت:

لما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد ـ مكان على خمسة أميال من مكة إلى جهة اليمن ـ لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة ـ قبيلة مشهورة ـ فقال:

أين تريد يا أبا بكر؟

فقال أبو بكر: أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى.

---

(1) سورة القمر آية ١٧.

(2) سورة فصلت آية ٢٦.

فقال ابن الـدغنة: فإن مثلك لا يُخرَج ولا يَخـرج، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحـمل الكل وتقرى الضـيف وتعـين على نوائب الحق، فأنا لك جـار، ارجع واعبد ربك.

فـرجع أبو بكر وارتحل معـه ابن الدغنة وطاف على أشـراف قـريش يخبـرهم بضمانه لجوار أبى بكر فقالوا:

مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فـقال ذلك ابن الـدغنة لأبى بكر، فلبث أبو بكر بذلك يـعبـد ربه فى داره ولا يستـعلن بصلاته، ولا يقـرأ فى غير داره، ثم بدا لأبى بكر فـابتنى مسـجدا بفناء داره، وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليـه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون به وينظرون إليه، وكـان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك عـينيه إذا قرأ القـرآن، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره، فقـد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره، فأعلن الصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبـد ربه فى داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان.

فأتى ابن الدغـنة إلى أبى بكر، وقص عليه رأى قـريش، فقال له أبو بـكر فإنى أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل.

وساق ابن إسحق قصة استماع قريش إلى قراءة النبى ﷺ فقال:

إن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة، خرجوا ليلة ليـستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيـته، فـأخذ كل رجل منهـم مجلساً يستـمع فيـه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا.

وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سـفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حـتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقـال بعضهم لبعض مثل

مـا قالوا أول مـرة، ثم انصـرفوا، حـتى إذا كانـت الليلة الثالثـة أخـذ كل رجل منهم مجلسـه، فباتوا يـستمـعون له حتى إذا طلع الفـجر تفرقـوا، فجمـعهم الطريق فـقال بعضهم لبعض:

لا نبرح حتى نـتعاهد أن لا نعود، فتـعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا، فـلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال:

أخبـرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيـما سمـعت من محمـد.؟ فقال يـا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف مـا يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها.

قـال الأخنس: وأنا والذى حلفت به كـذلك، ثم خـرج من عنده حـتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

فقال: ماذا سـمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعـموا فأطعمنا، وحملوا فحـملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا على الـركب، وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء..!!

فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه!![1].

(جـ) وجوه الإعجاز القرآنى:

وجوه إعجاز القرآن متعددة متجددة على مدى الزمان، ونوجزها فيما يلى:

١ ـ الإعجاز البيانى.

٢ ـ الإعجاز العقدى.

٣ ـ الإعجاز التشريعى.

٤ ـ الإعجاز العلمى.

٥ ـ الإخبار بالغيب.

وقد حظيت هذه الجوانب بدراسات وافية قام بها علماء أجلاء قديماً وحديثاً، ونحاول هنا أن نقدم إشارات يسيرة حول هذه الجوانب.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٣١٥.

الإعجاز البياني

هو النظم البديع والفصاحة البالغة والمعنى الراقى، وهذا النوع من الإعجاز هو المقصود عند الإطلاق لأنه متغلغل فى كل سور القرآن وآياته.

ومن أشهر الكتب التى ألفت فى هذا الجانب كتاب «إعجاز القرآن» لأبى بكر الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ)، وكتاب «دلائل الإعجاز» لعبد القاهر الجرجانى (ت ٤٨١ هـ)، وكتاب «النبأ العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز (ت ١٩٥٨ م).

وقد ذكر العلماء مجموعة خصائص للأسلوب القرآنى المعجز نقتبس منها ما يلى:

الخاصة الأولى:

النظام الصوتى البديع الذى قسمت فيه الحركة والسكون تقسيما منوعاً، ووزعت فى تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به..

إنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر ولكنه شيء آخر فى لحن متنوع متجدد يأخذ بأوتار القلوب ولا يخفى على أحد ممن سمع القرآن حتى ولو كان غير عربى.

إن الجمال الصوتى للقرآن راجع إلى الظاهرة الفريدة فى ترتيب حروفه وكلماته التى تخضع للإخفاء أو الإظهار أو الهمس أو الجهر وغير ذلك مما هو معروف فى علم التجويد.

الخاصة الثانية:

القصد فى اللفظ والوفاء بحق المعنى وهما غايتان لم يجتمعا لكلام بشر، فالذى يعمد إلى ادخار لفظه يحيف على المعنى قليلا أو كثيراً، والذى يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليل عناصره وإبراز كل دقائقه لا يجد بداً من أن يمد فى كلامه مداً.

وقد اجتمعت هاتان الغايتان على تمامهما فى القرآن الكريم فنجد بيان القرآن على قدر حاجة النفس فلا إسراف فى اللفظ ولا إجحاف، ولا نقص فى عناصر المعنى ولا شذوذ، فهو محاسن متوالية وبدائع تترى.

الخاصة الثالثة:

خطاب العامة وخطاب الخاصة، وهاتان غايتان متباعدتان، لكل منهما أساليبه ومعانيه، فالعامة تحتاج إلى الواضح المكشوف، والخاصة يكفيها الإشارة واللمحة.

وليس فى طاقة البشر أن يقدموا أسلوباً واحداً يوجه إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوقة والملوك.. ولكن القرآن وحده يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم.

الخاصة الرابعة:

إقناع العقل وإمتاع العاطفة أسلوبان متمايزان، ولقد بات العرف العام يقسم الأسلوب إلى علمى وأدبى، فنجد فى كلام العلماء جفاء لا يحرك النفوس. ونجد فى كلام الأدباء عقما لا يقنع العقول، ولا يتسنى لإنسان أن تأتى كل جملة من كلامه جامعة للغايتين معاً، ولكن القرآن العظيم وهو فى معمعان الاستدلال العقلى على البعث والإعادة فى مواجهة المنكرين يسوق استدلاله سوقاً يهز القلوب هزًا ويمتع العاطفة إمتاعاً.. قال تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾(١).

الخاصة الخامسة:

براعة القرآن فى تصريف القول وثروته فى أفانين الكلام، فهو يورد المعنى الواحد بألفاظ وطرق مختلفة لها مناسبتها بالسياق البيانى، وعلى سبيل المثال فإن التعبير القرآنى عن إباحة الفعل جاء بالطرق التالية:

---

(١) سورة ق الآيات ٦ : ١١.

١ ـ التصريح فى جانبه بمادة الحل نحو ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾(١).

٢ ـ الأمر به مع قرينة صارفة عن الطلب نحو ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾(٢).

٣ ـ نفى الإثم عن الفعل نحو ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

٤ ـ نفى الحرج عنه نحو ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾(٤).

٥ ـ نفى الجناح عنه فى غير ما ادعى فيه الحرمة نحو ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾(٥).

أما ما ادعى فيه الحرمة فإن نفى الجناح عنه يصدق بوجوبه، نحو ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾(٦).

٦ ـ إنكار تحريمه فى صورة استفهام نحو ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(٧).

٧ ـ الامتنان بالشىء ووصفه بأنه رزق حسن نحو ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾(٨).

الخاصة السادسة:

الإجمال والبيان غايتان متقابلتان لا يجتمعان فى كلام واحد للناس، فالكلام إما مجمل وإما مبين، لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان، ولكن القرآن وحده هو الذى انخرقت له هذه العادة فتسمع

---

(١) المائدة الآية ١

(٢) سورة البقرة آية ١٨٧

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٣.

(٤) سورة النور الآية ٦١.

(٥) سورة المائدة آية ٩٣.

(٦) سورة البقرة الآية ١٥٨.

(٧) سورة الأعراف آية ٣٢.

(٨) سورة النحل آية ٦٧.

الجملة منه وإذا هى بينة مجملة فى آن واحد وذلك أنهـا واضحة المعنى وضوحا يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة، فإذا أمعنت النظر فيها لاحت منها معان جديدة كلها صحيح أو محتـمل، وكلما أمعنت فيه النظر زادك من المعارف والأسرار بقدر ما تصيب أنت من النظر وما تحمل من الاستعداد، على حد قول القائل:

يزيدك وجهه حسنا　　　　إذا ما زدته نظراً[1].

***

(1) راجع كـتاب النبـأ العظيم للدكتـور محـمد دراز ص ١٠١ وكـتاب مناهل العـرفان فى علوم الـقرآن للشيخ محمد الزرقانى ص ٢٠٥.

الإعجاز العقدى

جاء القرآن المجيد بالتوحيد الخالص لله عز وجل فى مواجهة انحرافات الوثنيين وتحريفات أهل الكتاب وضلالات الفلاسفة.

لقد كانت قضية الألوهية أخطر قضية واجهت الإنسان، وحارت فيها البشرية، فذهب الوثنيون إلى أصنام نحتوها بأيديهم وعبدوها زلفى إلى الله.

وذهب المجوس إلى وجود إلهين اثنين للكون، واحد للخير وآخر للشر.

وقالت اليهود عزير ابن الله، وافتروا على الله الكذب وقتلوا الأنبياء والمصلحين.

وقالت النصارى المسيح ابن الله، وطمسوا نور عقولهم بعقيدة اللاهوت والناسوت، والخطيئة الموروثة، والصلب والفداء والقيامة من بين الموتى، وتوالت عليهم مآسى كرسى الاعتراف وصكوك الغفران ومحاكم التفتيش.

وضل الفلاسفة منذ المدارس الطبيعية الأولى فى بلاد اليونان قبل الميلاد، وزعموا أن أصل الكون هو الماء أو التراب أو النار أو الهواء أو الجوهر الفرد أو العدد أو النغم..

وكان عالم الآلهة عند اليونانيين مأساة وملهاة عقلية، وملأت آلهة اليونان المزعومة الأرض والسماء، فجعلوا لكل مظهر من مظاهر الكون إلهًا خاصًا، فللشمس إله، وللقمر إله، وللبحار إله.. ولكل فن إله، فللحكمة إله وللطب إله، وهناك آلهة للحرب والسلام وللخير والشر، حتى البغاء كان له فى المجموعة نصيب.

وصاغ الأدب اليونانى القديم هذه الأساطير فى ملاحم شعرية.

وجاء أفلاطون (٤٢٨ق. م ـ ٣٤٧ق. م) ونادى بمثال المثل، فالعالم المادى هو ظلال لعالم آخر يسميه عالم المثل، وعلى قمته مثال المثل وهو الله عز وجل.

واخترع أرسطو (٣٨٤ق. م ـ ٣٢٢ق. م) نظرية المحرك الذى لا يتحرك فالعلم نشأ عن الله تعالى فيضا، ويتحرك إليه شوقا، ولا علاقة لله تعالى بهذا العالم خلقا أو تدبيرا.

وعلى أبواب الفلسفة الحديثة وقف مونتانى (١٥٣٢ ـ ١٥٩٢م) ليعلن أن الجهل المطبق بداية العلم وأن جهل العالم هو النهاية.

ثم كان «توماس هوبز» (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩م) أول الماديين المحدثين الذى اتخذ من المادية مبدأ لتفسير كل شىء، حتى الإحساس والحياة الفكرية والإرادة، وأنكر إمكان الاستدلال على وجود الله تعالى.

وتبنى الفيلسوف الألمانى كانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م) المذهب النقدى الذى ادعى استحالة العلم الذى لا يستند إلى الحس، وزعم أن وجود الله وخلود الروح يعجز عنها العقل النظرى ويسلم بها العقل العملى.

وتعتقد الماركسية أن المادة أزلية أبدية، وهى سبب كل موجود وليس ثمة مكان لقوة أخرى فوق الطبيعة.

وقدم الفيلسوف الإنجليزى تشارلس دارون (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) نظرية فى أصل الأنواع تقوم على الانتخاب الطبيعى القائل بأن الحياة نشأت بمحض الاتفاق عبر سلسلة من التطورات المادية والعضوية، حتى كان الإنسان حلقة عليا فى سلسلة الموجودات..

ونادى الفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م) بموت الإله، ودعا إلى مجتمع العمالقة أو السوبرمان الذى يقوم على إرادة القوة بديلا عن إرادة الحق.

إن هذا الحصاد الفكرى الطويل أثقل كاهل الإنسان وهوى به إلى مكان سحيق من الاضطراب والقلق والشذوذ والدمار.

إن الإسلام ـ وحده ـ هو الذى يقف شامخا مناديا بالتوحيد الخالص لله رب العالمين، بلا طلاسم للعقل، وبلا ذنب موروث، وبلا كهنوت أسود.

إن الجانب الإلهى فى الإسلام تحدده كلمات قصار، هى قمة الإعجاز وقوة التصوير، فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾.

ويلتقى على هذه العقيدة السمحة نداء العقل وصوت الفطرة وكرامة الإنسان.

ولعل فيما نقدمه من دراسات عقدية يجلى الإعجاز العقدى فى القرآن المجيد.

الإعجـــاز التشـــريعى

إن التشريع القرآنى جمع مطالب الإنسانيـة الراشدة، وحقق أسمى ما ترنو إليه فى العلاقات الدولية وسياسة الحرب والسلام، وبناء المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وأخلاقياً.

وتمتاز الشريعة الإسلامية بأمور منها:

١ ـ شرع الله منوط بمصلحة الإنسان، فحيـثما توجد فثم وجـه الله، والحلال مرتبط بالطـيبات والحـرام متعلق بالخـبائث.. قـال الله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾(١).

٢ ـ نفى الحرج ملاحظ فى التشـريع، قال سبحانه ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(٢)، وقال جل شأنه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(٣).

٣ ـ لا تكتفى الشريعة بالمظاهر العامة والشـعارات الجوفاء، وإنما تتولى تأصيل مبـادئها داخل النـفس الإنسانيـة حتى ينبع سلوك على مـقتـضى الإيمان يتـسم بنبل الهدف وشـرف المقصد، قـال الله تعالى ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾(٤).

٤ ـ لا كهانة فى الإسلام ولا احتكار للتشريع، وإنما هناك علماء وفقهاء، وكل من لديه ملكة علمية، وفقه فى الدين، وبصر بأحوال الناس، ويمتاز بصفاء الفهم فهو من أهل الاجتـهاد، وإليه الإشارة بقـوله تعالى ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(٥).

وقوله تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(٦).

ونسوق نموذجـاً واحداً لهذا الإعـجاز التشـريعى، قد يعده البـعض أمراً هيناً، لكنه جد خطير وله شأن عظيم فى المجتمع، ألا وهو نظام الميراث فى الإسلام.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧. (٢) سورة البقرة الآية ١٨٥.
(٣) سورة الحج الآية ٧٨. (٤) سورة الحج الآية ٣٧.
(٥) سورة التوبة الآية ١٢٢. (٦) سورة الأنبياء الآية ٧.

لقد كان الناس فى الجاهلية لا يورِّثون النساء ولا الصبية بحجة أن الوارث لا يكون إلا من قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة..!!

ونسى هؤلاء أن الرجل إنما يجمع ثروته لنفسه وولده، وأن كدح المرء إنما هو لأجل أبنائه، ولا يسعد الإنسان العاقل إلا أن يكف أبناءه عن المسألة ويكفيهم مؤنة الحياة ومشاقها.

ولم يكن العالم يومئذ يعرف نظاماً عادلا للميراث بل لايكاد العالم قديماً ولا حديثاً يعرف نظاماً لتوزيع التركة يقوم على العدل المطلق مثل الإسلام.

إن توزيع التركة اليوم موكول لأهواء البشر، فقد يوصى الشخص بماله كله لعشيقته ويترك زوجه وأولاده، أو قد يوصى لأحد أبنائه ويدع الباقين للحسرة والحقد والضغينة، أو قد يجعله وقفاً على حيوان أليف ويترك ذوى قرباه يقاسون آلام الحياة.

وقامت نظم ترفض أن يكون الميراث من أسباب الملكية..!

ويتلفت الناس يمنة ويسرة، وتبحث العقائد والنظم شرقاً وغرباً، ولا يوجد غير الإسلام يقدم نظاماً للميراث يقوم على العدل المطلق، ويتضمن الحقوق ويصون حرمات النفس الإنسانية..

وقد جمع القرآن المجيد نظام الميراث الإسلامى فى ثلاث آيات محكمات، آيتان منها متواليتان فى سورة النساء هما:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ

وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً[1] أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ[2] فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾[3].

والآية الثالثة فى آخر السورة وهى:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ[4] لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ[5] فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)﴾[6].

وقد فصل القرآن هذا النظام تفصيلا دقيقاً جمع فيه كل أطرافه، ويكاد يكون هذا التفصيل وقفاً على الميراث، فلا نجد عبادة من العبادات ولا لوناً من المعاملات حظى بهذه المكانة، فلم ينص القرآن على عدد ركعات الصلاة ولا مقادير الزكاة ولا كيفية الطواف والسعى، وأحيل كثير منها إلى البيان النبوى فقال عليه الصلاة والسلام «صلوا كما رأيتمونى أصلى» وقال «خذوا عنى مناسككم» وهكذا.

وما ذاك إلا لأن الميراث فى الإسلام مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة المسلم الدينية والدنيوية، فالاعتداء على الأموال من أكبر جرائم الإثم، والمال الحرام لا يقبل معه عمل، ولا يرفع معه دعاء، ولا تنفع منه صدقة.

وكان الوعيد شديداً فى مخالفة هذا النظام بقدر ما كان الفوز عظيماً فى تطبيقه والالتزام به، فقال جل شأنه عقب آيتى الميراث ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[7].

---

(١) الكلالة من لا ولد له ولا والد.

(٢) أى لأم وليس شقيقا ولا من الأب.

(٣) سورة النساء الآيتان ١١ , ١٢

(٤) أى مات.

(٥) أى شقيقة أو لأب.

(٦) النساء الآية ١٧٦.

(٧) سورة النساء الآيتان ١٣ : ١٤.

وإذا كان الميراث نظاماً مالياً، فإن الجانب الأخلاقى والاجتماعى فيه جد خطير، فهو يرتبط ارتباطا وثيقاً بالرحم والنسب، مما يؤكد حرص الإسلام الكبير على وشائج القربى وشرف العرض وسلامة الأسرة.

ونظام الوصية جائز فى الإسلام وليس ممنوعاً ولكن له ضوابط حددها الشرع.

فالوصية فى حدود ثلث التركة، حتى لا ندع الورثة يتكففون الناس، وهى لغير وارث حتى يعم الانتفاع.

فإذا فقدت الوصية أحد الشرطين أو كليهما توقفت على إجازة الورثة فمن أوصى بما زاد على الثلث لا ينفذ منها إلا الثلث ويستأذن الورثة فى الباقى فإن أجازوه فبها ونعمت وإلا فلا.

ومن أوصى بأى شىء ولو قل لوارث توقف التنفيذ على رأيهم[1].

فالإسلام جعل للمسلم ثلث ماله يتصرف فيه عند الموت بما يحقق النفع العام ويصلح شأن المسلمين كافة أو ذوى قرباه غير الوراثين.

والوصية غير التبرع فى حال الحياة والصحة فهذا جانب وذاك جانب آخر.. فالمقصود من الوصية هو نقل الملكية بعد موت صاحبها لمن يحدده المورث، أما أن يجود الإنسان فى صحته وحياته ولو بماله كله فذلك اتجاه آخر قد يحمد منه ما يحمد، وقد يذم منه ما يذم تبعاً للنية والهدف، وظروف المتبرع، وملابسات الموقف ومقتضى الحال.

---

(٢) هذا هو رأى جمهورالعلماء.

الإعجـــاز العلمـــى

الربط بين آيات القرآن المجيد وحقائق العلم الحديث قائم على قدم وساق، وهناك علماء أجلاء قاموا بالجمع بين الآيات القرآنية والآيات الكونية، وهناك مؤتمرات علمية على مستوى العالم الإسلامى لهذا الغرض الشريف، فالقرآن كون مقروء، والكون قرآن منظور.

وقد أطلق القرآن لفظ الآيات على نواميس الكون فى كثير من آياته.. قال الله تعالى ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

كل ما ينبغى التنبيه عليه أننا يجب أن لا ننساق وراء كل فرض علمى، ونحاول أن ندلل عليه من القرآن المجيد، فالعلم المادى لا يعرف الكلمة الأخيرة، ومن الخطورة بمكان تفسير آيات القرآن بفروض لم تثبت، ولازالت قيد البحث والتجربة، ولنحاذر ونحن نربط بين آيات القرآن ومكتشفات العلم الحديث، ولنتذكر أن القرآن ـ فى المقام الأول ـ كتاب هداية للضمير والسلوك والحياة، ويوم نصحح المسيرة العلمية لتبدأ باسم الله، وتستمر باسم الله نكون قد أخذنا بحظ وافر من الرقى والحضارة وحققنا السعادة الكاملة لبنى الإنسان.

ولعل حكمة بالغة يوحى بها هذا البدء الكريم للقرآن العظيم فى قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٢).

---

(١) سورة الجاثية الآيات ٣: ٦.

(٢) سورة العلق الآيات ١ : ٥.

إن مراكز البحوث التجريبية فى العالم اليوم تتولى رعايتها وتوجيهها عقول مادية تنكرت لنعم الله عز وجل فى الخلق والتدبير، ورفضت الخشوع لله تعالى الذى منح الإنسان العقل، وكرمه بالعلم، وسخر له الكائنات.

لقد ظهرت نتائج رهيبة لأبحاث لا ترقب فى مؤمن إلاً ولا ذمة، وظهر السلاح النووى والنيترونى، والأقمار الصناعية للتجسس، واستنفدت الطاقات البشرية مالا وإنسانا فى الحروب والاستعداد للحروب، كما نشأت اتجاهات علمية تتنافى مع الأخلاق تمثلت فى بنوك حفظ الأجنة وتأجير الأرحام وغير ذلك.

هذا ومن أهم الكتب التى ظهرت فى مجال الإعجاز العلمى كتاب «التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن» تأليف الأستاذ حنفى أحمد[1].

وقد قام المؤلف بحصر وجمع الآيات عن الكائنات المنبثة فى سور الكتاب العزيز ثم رتبها وقسمها على حسب موضوعاتها، وذكر المؤلف مقدمة ذات أهمية بالغة جعلها فى فصلين:

الأول: رسالة القرآن والآيات الكونية.

الثانى: رسائل البحوث الفلكية وبعض نتائجها.

وقد التزم المؤلف بتفسير الآيات تفسيرا أمينا وفق مقتضيات اللغة وصحيح المنقول وآراء المفسرين ثم قام بالتعليق عليها ومقابلة القضايا القرآنية بالقضايا المناظرة لها فى حقائق العلم ونظرياته.

وجاء الكتاب فى بابين ولكل منهما فصول:

الباب الأول: خلق السموات والأرضين وتدبير الأمر فيهما، ويحوى خمسة فصول:

الأول: موجز خلق العالم المادى وتدبير الأمر فيه.

وساق آيات مثل قوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا

(١) طبعة دار المعارف سنة ١٩٨٠م.

تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾(١).

الثاني: نيرات السماء أو النجوم والكواكب وحال الفضاء فيها.

وساق آيات مثل قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾(٢).

وقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾(٣).

وقوله تعالى ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾(٤).

وخلال هذا الفصل تحدث عن الضياء والنور فى الآيات، ومعنى النجم الثاقب والسكون الظاهرى للنجوم، والمصابيح والسرج ووجود أقمار متعددة مثل قمر الأرض واختلاف النجوم والكواكب فى التكوين والصفات، وأهمية النجوم بالنسبة للكواكب.

ثم تكلم عن آيات الشهب والحاصب أو الحجارة من سجيل.

الفصل الثالث: نشوء السموات والأرض.

وساق آيات مثل قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾(٥).

وقوله تعالى ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾(٦).

وتحدث هنا عن المادة الكونية الأولى التى تشبه الدخان ونظرية المدّ عن نشوء السيارات والتوابع فى المجموعة الشمسية.

الفصل الرابع: بناء السموات بالقوى ونظام ترابطها.

---

(١) سورة السجدة الآيتان ٤، ٥.
(٢) سورة الفرقان الآية ٦١.
(٣) سورة يونس الآية ٥.
(٤) سورة نوح الآية ١٦.
(٥) سورة الأنبياء الآية ٣٠.
(٦) سورة النازعات الآيات ٢٧ : ٣٣.

وساق آيات مثل قوله تعالى ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾(١)، وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(٢).

وتحدث هنا عن قوى التجاذب فى بناء السماء، ونظام ترابط الأجرام ونظام تكوين البروج.

الفصل الخامس: تدبير الأمر فى السموات والأرض بالتسخير بالحركة.

وساق آيات مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٣).

وقوله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٤). وتحدث هنا عن نظام تولد الليل والنهار.

وفى الباب الثانى ذكر فصلين تحدث فيهما عن خلق الأرض والقمر، واختلاف الليل والنهار وتصريف الرياح وتسخير السحاب وإحداث البرق والرعد والصواعق، ومد الأرض وإلقاء الرواسى بها، وتسخير الأنهار والبحار والفلك.

وفى نهاية الكتاب القيم جاءت الخاتمة فى ست صفحات تلخص البحوث التى جاوزت أربعمائة صفحة.

وها هى ذى الخاتمة بنصها كما كتبها المؤلف جزاه الله خيراً.

إن لهذا الكتاب غرضا مقصوداً وغاية محدودة بينتها فى كلمته الافتتاحية وتنحصر فى دعوى أقامها وأرفق بها دليلها، وقدمها إلى محكمة الرأى العام يحدوه

---

(١) سورة لقمان الآية ١٠.

(٢) سورة فاطر الآية ٤١.

(٣) سورة الأعراف الآية ٥٤.

(٤) سورة يس الآيات ٣٧ : ٤٠.

الأمل بأن يجد أعضاؤها الكرام متسعاً من وقتهم الثمين لنظرها دون تأخير، وأن لا تضيق صدورهم بقراءة أو سماع دفاعها الطويل. لأنها دعوى كبرى تتصل بصالح الدين والدنيا.

ونص دعوى الكتاب هي أن رسالة القرآن قد أتت فيما أتت به بوصف شامل دقيق للعالم المادى فى صورة أصول وجوامع من العلم الصحيح: تارة بصريح النص وغالباً بإشارات فيه واضحة ومحدودة، وأن هذا العلم الدقيق لم يكن يعلمه أحد من الناس ولا كان فى مكنة أحد منهم أن يأتى بمثله لا قبل ظهور القرآن ولا بعده بقرون، إذ كانوا فى جهل مطبق وظلام حالك بحقيقة حال الكائنات، ثم ظهر العلم الحديث بينهم فى القرون الثلاثة الأخيرة، فكشف عن كثير من أسرار المخلوقات، وعجيب صنعها وتوجيهها بقدر ما قدر له من وسائل البحث العلمى الدقيق، ثم إذا به يقيم من نفسه شاهداً على صحة ما أتى به القرآن من قبله ولم يعارضه فى شىء منه، ولكنه فى الوقت نفسه لا يدرى كيف أتى القرآن بهذا العلم، الذى معرفته منوطة بوسائل البحث الدقيق التى كانت مجهولة كل الجهل حتى وقت قريب.

هذا نص دعوى الكتاب، أما دفاعه عنها فقد قدم الشطر الأول منه فى جزئه الأول ممثلا فى الآيات الكونية التى وصفت الخلق العام للسموات والأرضين. والخلق الخاص للأرض ووسائل إعدادها للحياة مرتبة ومقسمة إلى موضوعات محدودة، ويسر سبل الاطلاع عليه بمقدمة من فصلين، يحتاج إليها كثير من القراء والمستمعين له.

وجعل الكتاب هذا الدفاع على مرحلتين (الأولى): استخرج فيها وحصر المعانى العلمية التى تفيدها الآيات فى حدود ألفاظها، ثم وضعها فى صورة قضايا مستنبطة يسهل استيعابها وبحثها. والثانية: قابل فيها بين هذه القضايا ونظائرها من قضايا العلم الحديث مستشهدا به على صحة دعواه.

والمفروض أن القراء عند مطالعة هذه الخاتمة يكونون قد قرءوا بحوث الكتاب ودفاعه فى مرحلته الأولى، ثم استمعوا إلى المناظرة الشائقة بين قضاياه وقضايا العلم وبذلك يكونون قد فرغوا من سماع شهود الإثبات، ويريدون بعد ذلك أن يستمعوا

إلى كلمة الدفاع النهائيـة فى صورة موجزة محدودة تبين صدق دعـواه ـ كما يقول ـ وتقضى على كل شك أو ريب فيها.

يا معشرالقراء: إن هذه الكلمة النهائيـة إنما هى تلخيص لما قرأتم واستمعتم له من البحث المفصل فى موضوعات الكتـاب، ومن شهادة العلم فيه، وعرض ملخص شامل له غـير ضرورى، إذ الأغـراض المقصودة منه متكـررة مرات متعـددة فى صور مخـتلفة فى موضوعـاته المختلفة ويكفى لتـحقيقـها عرض بعض نتـائج البحث دون جميعه نموذجاً له.

لذلك سأكتـفى بعرض ملخص نتائج بحث الفصـول الثلاثة الأولى من الباب الأول، فأقول:

١ ـ إن قضايا هذا الفصل تبين مجموع تكوين العالم المادى من عوالمه الرئيسية وهى: سـموات سـبع طباق غـير أرضـية النوع، وأرضـون متـعددة مـعهـا تشبـه أرض الإنسان، وخلق ثالث مجـهول بينها ليس بسمـوات ولا أرضين، وتذكر الأرض فى باقى الآيات بصيغـة المفرد دائماً لحكمة فى التنزيل ـ وتبـين معنى خلق العالم فى ستة أيام، وتذكرأن للخلق سنة حكيمة تقوم على تدبير أمره بعد إيجاده ـ وأن كائنات العالم غير الحى تبعا لهذه السنة قد سخرت جميعها بعد خلقها ووجهت بالعمل نحو الغاية التى خلقت من أجلهـا، وأن أول ما أجرى على الأرضين كان إحداث تعاقب الليل والنهار عليها بسرعة فائقة أخذت فى النقص بعد ذلك كما بيَّنته آيات أخرى.

والعلم أيها السادة لم يقل بلغتـه أكثر من ذلك عن ملخص التكوين الأساسى للعالم المادى ثم تسخيره بعد وجوده. فياله من اتفاق عجيب!

٢ ـ وفصّل القرآن ما أجمله فى الفصل الأول بآيات أخرى فى الفصول الأربعة التالية له وفى الباب الأول بفصليه ومباحثه.

فبـين فى آيات الفصل الثـانى أنواع الكائنات فى السمـوات، وقال إنهـا نجوم وكواكب وقمر الأرض ولم يذكـر غيره من الأقمار لحكمة، وذكر مـعها الشهب، ثم

تحدث عن حال الضياء فى الأجسام حديث العلم الدقيق وخالف جهل الناس بحال الضياء لكى يعلمهم، فبين أن الضوء منه الذاتى وأسماه الضياء، ومنه المكتسب المعكوس وأسماه النور، ثم بين أن النجوم ضياؤها ذاتى وأن الكواكب والقمر ضياؤها مكتسب، فكشف بعض الشيء عن حقيقة حالها، ولكنه أضاف بإشارة قوية أن القمر ليس من الكواكب.

وزاد فى بيانه فذكر أن النجوم متحركة، وأنها ترى ساكنة بالنسبة بعضها لبعض؛ ثم جلا هذا التناقض فقال إنها على أبعاد فوق ما يتصوره العقل من الأرض فأشار بذلك إلى سبب رؤيتها ساكنة برغم أنها متحركة.

وأكد فى بعض الآيات أن النجوم مختلفة عن الكواكب فى التركيب وأنها أعظم شأنا منها فى بناء السماء، وصرح بأن النجوم منشأ الشهب، وأشار بوضوح إلى أنها حجارة مظلمة وأنها تصير ثاقبة أو مضيئة عندما تسيرمسرعة نحو الأرض.

ثم جاء العلم ببحوثه الدقيقة وأيد صحة هذه البيانات ولم يعارضها فى شيء على الإطلاق. فما رأيكم أيها القراء فى ذلك؟

٣ ـ وبين القرآن فى قضايا الفصل الثالث أصل العالم المادى، وسماه (دخاناً) ولم يسمه سحاباً أو هواء أو غباراً لكى يشير بذلك إشارات قوية عن حاله وتكوينه بما اتفق للدهشة الكبيرة فى مبادئه وما قاله العلم فى نظرياته المعتمدة عن الغاز الكونى الأول.

ثم أوضح كيف خلقت السموات غير الأرضية (أى النجوم) من المادة الدخانية فقال: إنها بنيت فأشار بذلك إلى تجزئة المادة الدخانية ثم تجميع أجزائها ثم ربط بعضها ببعض حتى صارت بناء من أجزاء أو أجرام مترابطة وقال إن سمكها رُفِعَ أى جعلت أجرامها مرتفعة القامة ضخمة الحجم، وأنها سويت، فوصف تكوينها وشكلها بكل ما يفيده معنى التسوية، وهذه بلاغة فى إيجاز جامع.

ثم وصف ما أجراه على أجرام السموات بعد تكوينها وتسويتها من المادة الدخانية حتى صارت نجوماً لوامع فى جملتين فحسب فقال: (وأغطش ليلها وأخرج ضحاها).

فبين بالأولى أن الأجرام لم يكن لها ظل أو ليل مظلم فجعل لها ظلاً وليلاً مظلماً، أو بعبارة أخرى كانت شفافة ثم كثفها وأزال شفيفها، وبين فى الثانية أن الأجرام مع تكثيفها أخرج منها ضياء يشبه ضياء الشمس فى وقت الضحى.

وغنى عن البيان أن قوله بتكثيف الأجرام إشارة قويةإلى أنه جعلها تنكمش بعضها على بعض، وأن قوله بإخراج ضياء منها يشبه ضياء الشمس فى وقت الضحى فيه إشارات قوية؛ فقوله (أخرج) إشارة إلى أن ضياء الأجرام كوّن فى داخلها ثم أخرج إلى سطحها، وقوله (ضحاها) فيه إشارتان واضحتان:

الأولى: أن هذا الضياء بعد خروجه إلى السطح كان يتقلب فى اللون من الأحمر إلى البرتقالى، إلى الأصفر، إلى الأبيض، وأخيرا إلى الأبيض الأزرق، كما ينقلب ضوء الشمس بعد الشروق إلى وقت الضحى فى نفوذه خلال الهواء فيرى أولا أحمر ثم برتقالياً ثم أصفر حتى يصير أبيض أزرق.

الثانية: أن خروج هذا الضوء متقلباً فى لونه من الأجرام إشارة أخرى قوية على ضوء الخبرة إلى أن درجة حرارتها كانت تزيد تدريجا وهى تنكمش أثناء خروج الضوء منها حتى صارت ضوءاً ساطعاً كضوء الشمس التى وصفها القرآن بأنها سراج وهاج أى لهب متقد ومضىء؛ فبين بذلك حقيقة النجوم وأنها لهب متقدةومضيئة.

وذكرت هذه الآيات أيضاً أن الأرضين خلقت مشابهة فى بعض الصفات للسموات غير الأرضية (أى النجوم)، وأنهما جعلتا مطاوعتين بعضهما لبعض كأعضاء الجسم الواحد، وأن أجرامها قذف بها فى مقارها وأكمل خلقها بعد إخراج ضحى النجوم، وأنها فى الغالب خلقت بعد السموات؛ فقدمت بذلك معلومات ترجح خلق الأرضين من النجوم بعد إخراج الضياء منها.

وذكرت آية الرتق والفتق أن السموات والأرض (أى النجوم والكواكب والأقمار) كانتا شيئاً واحداً ملتحماً ثم فصل بينها: فبينت على ضوء آيات خلق النجوم والأرضين وآية الرفع وحدة النظام فى خلق أنواع الأجرام المختلفة من أجزائها (بالرتق ثم الفتق): النجوم من المادة الدخانية، ثم الكواكب من النجوم، ثم

الأقمار من الكواكب؛ كما فسرت معنى خلق العالم فى ستة أيام: اثنين للسموات أى النجوم، وأربعة للأرضين من الكواكب والأقمار.

ومن العجيب أن العلم فى نظرياته عن خلق النجوم والكواكب والأقمار لم يأت بمبادىء أساسية عنها أكثر مما بينته الآيات بلغتها الموجزة الجامعة، ولكنه قد أتى طبعاً بتفاصيل عن هذه الأسس أغفل القرآن ذكرها على حسب سنته الحكيمة فى التبليغ حثاً للناس على النظر والبحث فى عجائب المخلوقات، كما قال ونبه إلى ذلك فى آيات متعددة.

ومن المسلم به أن من يحكى القواعد الأساسية لبناء شىء لابد أن يكون عالماً بتفاصيل وجزئيات هذه الأسس لأن هذه إنما هى تلخيص لتلك.

يا معشر القراء الكرام: لقد بينا لكم طرفاً من أصول العلم الجامع بالكائنات الذى تحتويه بعض آيات القرآن، والعلم الجامع هوالذى يذكر أصل الشىء وطريقة تكوينه وأهم صفاته، وما ذكرناه مشابه فى غايته للعلم الوارد فى باقى آيات فصول الكتاب، فمن الحق أن يقال إنه يمثل الدفاع الكامل عن دعوى الكتاب فى جزئه الأول وأنه قد أثبت لكم صحة هذه الدعوى.

أما وقد ثبت لكم صدق دعوى الكتاب فلنعد النظر إلى ما تقول: إنها تقول إن القرآن قد أتى بوصف شامل عن العالم المادى فى صورة أصول وجوامع العلم الدقيق الصحيح الذى لم يكن أحد يعلمه ولا كان فى مكنة أحد من الناس أن يأتى بمثله قبل ظهور العلم الحديث، وإن العلم الحديث الذى ظهر بعد القرآن بقرون قد أيد ما احتواه القرآن من العلم الدقيق بالكائنات الوارد فى آيات الجزء الأول من الكتاب، ولكنه لا يدرى كيف أتى به، لأنه علم لا ينكشف بالظن أو مجرد ذكاء الفكر والمشاهدة العادية ويحتاج لكشفه إلى بحوث دقيقة لم تكن معروفة على الإطلاق قبل ظهور العلم الحديث.

وهذه شهادة لا تشكُّون فيها طبعاً ولا يصح أن تشكُّوا فيها لأنكم تدينون بالعلم الحديث بعدأن عرفتم أنه يقوم على المشاهدة والخبرة العملية الدقيقة، ولا يخفى مغزى هذه الشهادة على فطنتكم، ومعناها الوحيد أن ما أتى به القرآن من الآيات الكونية فى الجزء الأول من الكتاب ليس من كلام بشر، لأنه ليس من حول

فكر أو خيال أو عبقرية، وأن ما ورد فيها من علم بالكائنات هو من قبيل الأنباء الغيبية والمعجزة الخالدة التى عجز الناس قاطبة عن أن يأتوا بمثلها قبل ظهوره أو بعده حتى ظهر العلم الحديث. وهذا خلا ما فى هذه الآيات من وجوه البلاغة منقطعة النظير التى هى جزء أو بعض من معجزة القرآن الكبرى.

ومعنى هذا بعبارة أخرى وبكل اختصار أن «محمدا» العربى الهاشمى الذى أتى بالآيات الكونية المذكورة بالجزء الأول من الكتاب والتى هى جزء من القرآن لم يأت بها وبباقى الآيات بالمثل من نفسه ولا بذكاء نادر أو عبقرية فيه، وأنه لا مفر من القول بأنها أوحيت إليه ـ لا من بشر ـ وإنما ممن يعلم السر فى السماء والأرض، وأنه إنما بلغها كما أنزلت عليه، وأنه بذلك صادق أمين فى دعواه بأنه رسول الله إلى الناس جميعاً وأنه خاتم الأنبياء، وأن القرآن خاتم الرسالات السماوية.

الإخبـــار بالغيـــب

اشتمل القرآن المجيد على قصص الأولين وصحح مفاهيم الناس حول قضايا تتعلق بالماضى السحيق.

ثم كشف عن مواقف ودخائل فى أنفس فريق من البشر يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله.

ثم أخبر بأمور وأحداث فى المستقبل القريب والبعيد، انقطعت دونها الأسباب، وقصرت عنها مقاييس العقل وفراسة الوجدان، وجاء الواقع بعد ذلك تصديقاً وتحقيقاً لما تنبأ به.

والذى نريد أن نؤكده ابتداء أن سيدنا محمداً ﷺ لم يكن يعلم الغيب من تلقاء نفسه، ولم يكن ممن انقطع لدراسة التاريخ وتمحيص حوادثه، ولم تكن المقدمات القريبة أو البعيدة تمهد لحدث المستقبل حتى ينسب ذلك إلى فراسة أو ذكاء.

قال جل جلاله ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾(١).

وقال جل شأنه ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾(٢).

وانطلاقا من هذا المعنى يمكن أن نقسم الإخبار بالغيب إلى ثلاثة أنواع:

(أ) غيب الماضى. (ب) غيب الحاضر.

(جـ) غيب المستقبل.

وإليك بعض الأضواء على هذه الجوانب من الإعجاز القرآنى.

---

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٤٨ ، ٤٩. (٢) سورة الأنعام آية ٥٠.

(أ) غيب الماضي:

نعنى بهذا الغيب ما قصه القرآن العظيم عن الأمم السابقة ومواقفها من أنبيائها، ذلك القصص الحق الذى التمس مواطن العبرة وحقائق التاريخ.

ففى سورة «آل عمران»، بعد أن قص الله تعالى أخبار مريم وزكريا قال سبحانه ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾(1).

وفى سورة «هود» بعد ذكر قصة نوح عليه السلام قال تعالى ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(2).

وفى سورة «القصص» يوجه الله سبحانه الخطاب بما يقطع الشك، ويلفت الأنظار والعقول إلى قضية الوحى الكبرى فيقول:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(3).

وهذا الإخبار بالتاريخ على الوجه المطابق للواقع قد صحح أوهام البشر، فعيسى عبد الله ورسوله وليس إلها أو ابن إله أو ثالث ثلاثة، ومريم عذراء بتول طهرها الله واصطفاها وليست ـ كما يزعم اليهود ـ بغيا، وليست ـ كما يزعم النصارى ـ فوق طبيعة البشر.

وسليمان نعم العبد، آتاه الله النبوة والملك، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا.

وموسى كليم الله، وكان عند الله وجيها، وليس كما اتهموه من قتل هارون أو كما عيروه به من جسده.

---

(1) سورة آل عمران آية 44.

(2) سورة هود آية 49.

(3) سورة القصص الآيات 44 ـ 46.

وإبراهيم أمة وحده، وخليل الرحمن، وليس ـ كما يفترى البعض ـ يهودياً أو نصرانيًا، وما كان من المشركين.

والكتب المنزلة السابقة استحفظها الله الربانيين والأحبار، فخانوا الأمانة وكتموا الحق واشتروا بآيات الله ثمنا قليلاً.

وهكذا هيمن القرآن المجيد على التاريخ الإنساني، وصحح مساره الفكري، ومن هنا يقول الله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

إن طريق العلم بهذه الحقائق التاريخية منحصرة فى ثلاثة:

١ ـ المشاهدة والمعاصرة.

٢ ـ الاستماع من أهل العلم وقراءة أسفارهم.

٣ ـ الوحى من الله رب العالمين.

والمشاهدة منفية بداهة، إذ يستحيل على الإنسان أن يشاهد ما سبق وجوده الزمنى، والاستماع من أهل العلم منتف أيضاً لأن سيدنا محمدا كان أميًا فى بيئة أمية، ولم يثبت أنه تعلم أو صاحب أهل الخبرة فى هذا المجال، ومكث أربعين سنة من حياته المباركة لا يعرف عنه إلا أنه الصادق الأمين، فما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وهذا هو ما يشير إليه قوله تعالى ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

وهناك فرية روج لها المستشرقون تتعلق بمصدر القصص القرآنى يزعمون فيهاأن سيدنا محمداً ـ ﷺ ـ قد تلقى أخبار الأمم السابقة عن بعض الرهبان النصارى، ويحاولون أن يتلمسوا لها سندا من السيرة النبوية عندما التقى الرسول الكريم براهب يسمى «بحيرا» وهو فى صباه أثناء رحلة تجارية مع عمه أبى طالب إلى الشام، أو عندما التقى براهب آخر يسمى «نسطورا» أثناء رحلة تجارية للسيدة خديجة وهو فى شبابه.

---

(١) سورة النمل آية ٧٦. (٢) سورة يونس آية ١٦.

هذا الافتراء من المستشرقين لا يدل إلا على جهلهم الفاضح وعصبيتهم الصليبية التى تتستر وراء دعاوى البحث العلمى والفكر الحر.

وهذه الفرية مرفوضة تماما لأكثر من سبب:

١ ـ إن التقاء الراهب «بحيرا» بالغلام محمد أو التقاء الراهب «نسطورا» بالشاب محمد ـ ﷺ ـ هو التقاء عابر، حيث إن طريق التجارة من مكة إلى الشام كان يتخذ من أديرة الرهبان مواقع استظلال وراحة.

ولم يكن هذا اللقاء خاصا بسيدنا محمد أو على انفرادمعه بل كان لقاء عاما يجمع قوافل التجارة كلها، فسرعة اللقاء لا تمكن من تعليم ولا تعلم.

٢ ـ إن نبوة سيدنا محمد ـ ﷺ ـ أتت بعد اللقاء الأول بثلاثين سنة تقريباً، وبعد اللقاء الثانى بخمسة عشر عاماً، فلم هذا الصمت الطويل إن كانت هناك إيحاءات من هذين الراهبين؟

ومن المعروف أن فترة الشباب هى أجمع فترات العمر للقوة والثورة وإرادة التغيير.

٣ ـ إن النصرانية فى المنطقة العربية لم يكن لها حكومة أو هيئة تجمعها على وحدة التعاليم، فهؤلاء الرهبان المنتشرون فى صحارى المنطقة هم من الذين فرقتهم الصراعات المذهبية حول طبيعة المسيح أو مزقتهم الاضطهادات السياسية.

فأى عقيدة تلقاها سيدنا محمد ـ ﷺ ـ من هؤلاء الرهبان؟.

أهى عقيدة الصلب والفداء؟ أم عقيدة التثليث؟!

إنه من البدهى أن القرآن العظيم قد التقى مع الكتب السابقة فى قصصها العام باعتبار المشكاة الواحدة التى خرجت منها ولكن تفاصيل القصة فى القرآن قد فضحت تحريفات أهل الكتاب وافتراءاتهم على الله ورسله.

٤ ـ يقول أحد الباحثين المنصفين من غير المسلمين [١]:

«محمد بغير ذلك اللقاء فى عرض الفلاة كان حريًا أن يغدو محمداً بقضه وقضيضه، وفضله وعقله وهداه.

---

(١) هو الدكتور نظمى لوقا فى كتابه «وامحمداه».

أما «بحيرا» بغير هذا اللقاء فكان حريًا أن يذهب فى التاريخ نسياً منسياً، فأدخله ذلك اللقاء دولة التاريخ، وأحدث له ذكراً باقياً، وقد راح ألوف من نظرائه المنقطعين للنسك فى الصحراء واختلط تراب عظامهم بالرمال التى يذروها الهواء».

فالباحث يريد أن يقول إن «بحيرا» لم يكن سقراط عصره ولا فيلسوف زمانه ولم يعرف له ذكر فى التاريخ قبل هذا اللقاء ولا بعده، فمن هو بحيرا - إذن - حتى ينسب إليه قصص القرآن؟!!

وعلى كل فما أشبه الليلة بالبارحة.. وصدق الله حيث يقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

(ب) غيب الحاضر:

نعنى بغيب الحاضر ما كشفه القرآن الكريم من خفايا النفوس المحيطة برسول الله عليه الصلاة والسلام، والمنتشرة فى مجتمع المؤمنين بالمدينة. وأكثر ما ورد من ذلك كان خاصاً بالمنافقين، هؤلاء الذين أضمروا الكفر بالله ورسوله، وسايروا المؤمنين فى شعائر الدين خداعاً ومكراً،

ومن المعلوم أن العهد المكى للمسلمين لم يوجد به نفاق، وإنما انقسم الناس إلى كافر متكبر أو مسلم مستضعف.

فلما هاجر المسلمون إلى المدينة وأسلم الأوس والخزرج، وعلت كلمة المسلمين فى غزوة بدر الكبرى بدأ بعض الناس يدخلون فى الإسلام تقية أو إيثاراً لمغنم أو تربصاً لفتنة.

وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبى بن سلول، وهو من قبيلة الخزرج، وكان سيد المدينة فى الجاهلية، وكانوا قد عزموا على تنصيبه ملكا عليهم، فلما جاءهم الخير وأسلموا شغلوا عنه فبقى فى نفسه شىء من الإسلام وأهله إلى أن وقعت غزوة بدرالكبرى وانتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً فتظاهر بالإسلام ودخل معه فى الدين الجديد أفراد ممن ارتابت قلوبهم.

---

(١) سورة الفرقان الآيات ٤ - ٦.

وهنا ملاحظة يجب أن نتنبه إليها جيداً وهى أن النفاق فى لغة القرآن المجيد لم يذكر إلا فى العهد المدنى من التنزيل وهو يعنى ما انطوت عليه نفوس أصحابه من الكفر بالله واليوم الآخر وإنكار رسالة سيدنا محمد ﷺ. وقد استحق هؤلاء المنافقون الدرك الأسفل من النار لأنهم أشد خطراً من الكافرين المعلنين.

وهذا النفاق المذكور فى القرآن العظيم هو غير النفاق الذى ذكرته السنة المطهرة فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان».

فالحديث الشريف قائم على التشبيه فى بعض الصفات، فهو نفاق عمل بمعنى أن هذه الخصال هى من صفات المنافقين من جهة إظهار ما يبطن خلافه فى حق من حدثه أو وعده أو استأمنه، وليس هو بمنافق فى العقيدة، ولهذا ورد فى بعض روايات الصحيح «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر».

ومعنى «كان منافقاً خالصاً» أنه شديد الشبه بالمنافقين وذلك فيمن غلبت عليه هذه الخصال.

فهناك - إذن - نفاق يتعلق بالعقيدة وهو أشد من الكفر، وهناك نفاق عملى يتعلق بمظاهر السلوك، وهو من المعاصى والكبائر.

نماذج من حديث القرآن عن المنافقين :

تحدث القرآن المجيد كثيراً عن دخائل النفس المنافقة على عهد رسول الله ﷺ، وجاءت سور كثيرة تكشف خفايا هذه النفوس، فكانت سورة البقرة وآل عمران والنساء والتوبة والأحزاب والمنافقون.. إلخ كلها حديث عن خلجات نفوسهم وحقيقة مشاعرهم المريبة.

وإذا توقفنا قليلا عند سورة «المنافقون» نجدها ابتداء تفضح عقيدتهم الباطلة: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١).

فهم ـ قاتلهم الله ـ يأتون إلى مجلس الرسول ﷺ معلنين إسلامهم ومؤكدين صدقهم، حتى إنهم استعملوا «إن» «واللام» لمزيد التأكيد، وجاءوا بلفظ «نشهد» ليدل على مطابقة قلوبهم لألسنتهم فيما أعلنوه.

ومع هذا يأتي القرآن ليرد عليهم شهادتهم ويعلن خداعهم فيقول « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون» أى كاذبون عند أنفسهم وفيما أخبروا به من إيمانهم وليس لديهم اعتقاد يصدق ما يقولون.

والملاحظ فى لغة القرآن هنا أن الله سبحانه وسط قوله «والله يعلم إنك لرسوله» بين شهادتهم وردها عليهم دفعاً لإيهام حاصله أنه لو قيل «نشهد إنك لرسول الله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون» لأوهم أن قولهم هذا باطل فى نفس الأمر وليس مطابقاً للواقع الخارجي وأن محمداً ليس برسول الله، وجاء قوله «والله يعلم إنك لرسوله» احتراساً يفيد أن كذبهم إنما هو بالنسبة لاعتقادهم فقط.

ثم قصت السورة بعض أوصاف المنافقين الملازمة وهى الخور والهلع والجبن، وإن حاولوا إخفاء ذلك بكلام أجوف وأيمان كاذبة وتظاهر براق، فقال جل شأنه ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة المنافقون آية ١.

(٢) سورة المنافقون آية ٤.

والملاحظ هنا فى لغة القرآن أيضا أنهم لم يشبهوا بالخشب فقط بل بالخشب المسندة، لأن الخشب إذا انتفع به كان فى سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكا غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبهوا به فى عدم الانتفاع.

ثم تعرضت السورة الكريمة لموقف خاص لزعيم المنافقين عبد الله بن أُبَىٍّ، ففى غزوة بنى المصطلق فى شعبان من السنة السادسة للهجرة على أصح الروايات، وعند مورد ماء يقال له المر يسيع، تزاحم عليه أحد المهاجرين وأحد الأنصار، ووقع بينهما ما أثار الفريقين فنادى المهاجرى: يا للمهاجرين، ونادى الأنصارى: ياللأنصار

فخرج عليهم رسول الله ﷺ وقال: ما بال دعوى الجاهلية.. دعوها فإنها منتنة.

فانتهز ابن أُبَىٍّ هذه الفرصة وأراد أن يشعلها فتنة وقال: ما مثلنا وجلابيب قريش إلا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك.. والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.. ثم توجه بالنداء إلى بعض الأنصار قائلا:

هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع هذا الكلام غلام من المسلمين هو زيد بن أرقم فنقله إلى الرسول ﷺ، فلما علم بذلك ابن أُبَىٍّ سارع إلى نفى الخبر وحلف بالله ما قال واتهم الغلام بالتخليط والكذب.

وحاول عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ كعادته فى شدة الغيرة ـ أن يستأذن رسول الله فى قتل ابن أُبَىٍّ ولكن الرسول ﷺ ـ كعادته فى الحلم والحكمة ـ قال:

فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟!! وأذن الرسول بالرحيل والعودة إلى المدينة فى ساعة لم يكن يرحل فيها، وما هى إلا مسافة الطريق حتى نزلت الآيات تحسم هذا الموقف ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ⑦ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

---

(١) سورة المنافقون الآيتان ٧، ٨.

فأخذ الرسول ﷺ بأذن زيد بن أرقم وقال: «هذا الذى أوفى لله بأذنه..».

وظن الناس أن فى هذه الآيات قضاء على زعيم المنافقين فذهب ابنه عبد الله الى رسول الله ﷺ وقال:

إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله، فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار».

فقال عليه الصلاة والسلام لهذا الولد المؤمن الصادق الإيمان:

«بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا».

ولكن الرجل لم يع الدرس، والنفس الخبيثة من العسير عليها أن تتراجع عن غيها أو تخفف من غلوائها فما أن دخل المسلمون المدينة عقب هذه الغزوة حتى أشاع ابن أبى حديث الإفك حول السيدة عائشة ﵂ وقال قولته الآثمة: والله ما نجت منه ولانجا منها.. عندما رأى السيدة عائشة ﵂ تدخل المدينة على جمل يقوده صفوان بن المعطل بعد أن تأخرت عن مقدم الجيش لعذر ألم بها..

واكفهر جو المدينة ما يقرب من شهر، والرسول الكريم فى حيرة وقلق، وأسرة الصديق فى كرب شديد، والمسلمون فى فتنة شديدة حتى جاء الوحى فاصلا فى القضية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

والإفك هو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقيل هو البهتان، لا تشعر به حتى تفاجأ به، والعصبة هى الجماعة.

والذى تولى كبره هو عبد الله بن أبى الذى تزعم العداوة لرسول الله ﷺ، وانتهز الفرصة للغمز فى العرض الشريف..

(١) سورة النور آية ١١.

وخاض معه جماعة من المسلمين مثل حسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ومسطح بن أثاثة، فلما نزلت البراءة من السماء أقيم على هؤلاء حد القذف ثمانين جلدة، وترك ابن أبى لينال العذاب العظيم يوم الفزع الأكبر، ولأن الحدود توبة، وهذا المنافق لا توبة له، ولعله ترك أيضا تأليفاً للأنصار الذين ينتمى إليهم، ومراعاة لشعور ولده المسلم الصادق.

●●●

ننتقل إلى صورة أخرى من صور النفاق، ففى العام التاسع للهجرة قبيل غزوة تبوك حاول اثنا عشر رجلا من المنافقين بناء معقل للفتنة وتجميع السلاح تحت ستار إقامة مسجد لشعائر الصلاة.

ولمزيد من التمويه تقدموا بالتماس إلى الرسول ﷺ أن يفتتحه للصلاة حتى يتخذوا من ذلك ذريعة لاجتماع المسلمين فيه فيردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

فاعتذر الرسول ﷺ بانشغاله بتجهيز جيش العسرة ووعدهم أن يصلى فيه عند العودة إن شاء الله.

ولكن الوحى الإلهى لم يمهل هؤلاء فكشف أغراضهم الدنيئة وخفايا صدورهم المحترقة فنزل قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[1].

عندئذ بعث الرسول ﷺ إلى هذا المكان من هدمه وأحرقه، وقد قال العلماء: كل مسجد بنى مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب فهو لاحق بمسجد الضرار»[2].

---

(١) سورة التوبة الآيتان ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٢١٤.

وجه الإعجاز فى الإخبار بغيب الحاضر:

إن هذه الوقائع الثابتة الصحيحة لم تكن تعلم فراسة أو ذكاء أو تحسسا وتجسسا، فليس للرسول ولا لبشر من الناس اطلاع على مكنون الصدور ومستخفى الأنفس.

وقد حكى القرآن المجيد قصة يعقوب عليه السلام عندما رجع إليه أبناؤه يبكون ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾[1].

ماذا قال يعقوب؟!: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[2].

وكانت تلك فراسة صادقة من يعقوب عليه السلام.

ولكن عندما ذهبوا إليه مرة أخرى بعد سنين طوال قائلين: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[3].

عندئذ ظن يعقوب ببنيه خلاف الواقع قائلا:

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[4].

وطبعاً كان ذلك اتهاما غير مطابق للواقع وهم برآء منه، فالأنبياء بشر لا يطلعون على خفايا النفوس إلا بقدر ما يطلعهم الله، وقد أكد هذه الحقيقة سيدنا محمد ﷺ بقوله ـ كما فى صحيح البخارى ـ «إنما أنا بشر وإنه يأتينى الخصم فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها».

ومما يزيد تأكيد هذه الحقيقة ـ وهى أن الرسول ﷺ لم يتلمس أخطاء المنافقين ولم يتعقب تصرفاتهم ولم يشق عن قلوبهم، ما ثبت فى الصحيح من أن الرسول ﷺ

---

(١) سورة يوسف الآيتان ١٧ ـ ١٨. (٢) سورة يوسف آية ١٨.

(٣) سورة يوسف الآيتان ٨١ ـ ٨٢. (٤) سورة يوسف الآية ٨٣.

أعطى قميصه ليكفن فيه ابن أبى عندما مات، وصلى عليه فاعترض عمر بن الخطاب قائلا: كيف تصلى على عدو الله؟

فقال الرسول الكريم: إنما خيرنى الله فقال: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» وسأزيده على السبعين.

فما كان إلا يسيرا حتى نزل قوله تعالى:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾(١).

وعلى هذا فإخبار القرآن عن غيب الحاضر الذى لم تقم عليه قرائن الأحوال ولم تشر إليه ملابسات الظروف لا يكون إلا وحيا إلهيًا نزل به الروح الأمين.. وصدق الله حيث يقول:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾(٢).

(جـ) غيب المستقبل :

نعنى بغيب المستقبل ما أخبر به القرآن المجيد من حوادث، أو وعد به من آمال، أو أشار إليه من نذر، أو ألم به من قضايا، كل ذلك فى مستقبل الأيام.

ونستطيع أن نصنف هذا الغيب المتعلق بالمستقبل إلى موضوعات منها:

١ ـ ما يتعلق بالرسول ﷺ مثل قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(٣)، وقوله تعالى ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾(٤).

٢ ـ ما يتصل بالقرآن المجيد نفسه، مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٥).

(١) سورة التوبة آية ٨٤.
(٢) سورة التوبة آية ٦٤.
(٣) سورة المائدة الآية ٦٧.
(٤) سورة الضحى الأيتان ٤: ٥.
(٥) سورة الحجر الآية ٩.

٣ ـ ما يبشر المؤمنين، مثل قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

٤ ـ ما ينذر المشركين مثل قوله تعالى ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾(٢).

وتلك الآية نزلت بمكة فى وقت لا حول للمسلمين فيه ولا طول..

٥ ـ ما يرتبط بالتاريخ الإنسانى العام مثل قوله تعالى ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

٦ ـ ما يتعلق بأهل الكتاب من اليهود، مثل قوله تعالى ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾(٤).

فالإخبار بالغيب وجه أصيل من وجوه الإعجاز القرآنى، ويتجلى فيه صدق اليقين بنبوة سيدنا محمد ﷺ(٥).

* * *

(١) سورة النور الآية ٥٥.

(٢) سورة القمر الآية ٤٥.

(٣) سورة الروم الآيات ١ : ٦.

(٤) سورة البقرة الآيات ٩٤ : ٩٦.

(٥) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا «الرسول فى رمضان» فى سلسلة «إسلاميات» ط المؤسسة العربية الحديثة.

الفصل الرابع

المعجزات الحسية

- الإسراء والمعراج
- انشقاق القمر
- نبع الماء
- تكثير الطعام
- حنين الجذع
- الدعاء المستجاب
- الإخبار بالغيب

- المعجزات الحسية

وقعت على يدى رسول الله ﷺ خوارق للعادات حسية، واجتمع له ﷺ ما لم يجتمع لنبى قبله، وهذه الخوارق منها ما يدخل تحت المعجزة الاصطلاحية كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر لأن التحدى وقع بها، ومنها ما يعد تكريما للنبى وتثبيتا للذين آمنوا معه، وذلك كنبع الماء من بين أصابعه الشريفة وتكثير الطعام القليل وحنين الجذع وغير ذلك.

وهذه المعجزات الحسية سجل القرآن بعضها كالإسراء والمعراج وجاءت بها أحاديث صحيحة خرجها الإمام البخارى والإمام مسلم وغيرهما، وهى وإن لم تبلغ مبلغ التواتر المعتبر فى مصطلح الحديث إلا أن لها من الشهرة والقرائن والقبول ما يجعلها محل التصديق والجزم واليقين.

قال الإمام ابن حجر:

«وأما ما عدا القرآن من نبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام وانشقاق القمر ونطق الجماد، فمنه ما وقع التحدى به، ومنه ما وقع دالا على صدقه من غير سبق تحد، ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يديه ﷺ من خوارق العادات شىء كثير، كما يقطع بوجود جود حاتم وشجاعة على، وإن كانت أفراد ذلك ظنية وردت مورد الآحاد، مع أن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر وانتشر ورواه العدد الكثير والجم الغفير وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار، والعناية بالسير والأخبار، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه الرتبة لعدم عنايتهم بذلك، بل لو ادّعى مدع أن غالب هذه الوقائع مفيدة للقطع بطريق نظرى لما كان مستبعداً، وهو أنه لا مرية أن رواة الأخبار فى كل طبقة حدثوا بهذه الأخبار فى الجملة، ولا يحفظ عن أحد من الصحابة ولا من بعدهم مخالفة الراوى فيما حكاه من ذلك ولا الإنكار عليه فيما هنالك، فيكون الساكت منهم كالناطق لأن مجموعهم محفوظ من الإغضاء على الباطل..»(1).

ونسوق هنا بعض هذه الخوارق بقسميها مما يدخل تحت المعجزة وما يدخل تحت التأييد والكرامة:

---

(1) فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ٦ ص ٥٨٢.

١ ــ الإسراء والمعراج:

الإسراء هو السير ليلا.

والمعراج هو سلم الصعود.

والمقصود هو انتقال النبى ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ثم الصعود إلى السموات العلا، ثم إلى سدرة المنتهى، ثم إلى حيث شاء العلى الأعلى، كل ذلك فى جزء يسير من الليل.

وقد ثبت الإسراء بنص قوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[١].

ويشير إلى المعراج صدر سورة النجم فى قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[٢].

والأحاديث الصحيحة المخرجة فى البخارى ومسلم وغيرهما كثيرة ضافية.

وقدرة الله فوق الشك، وتصدير آية الإسراء بكلمة «سبحان» دليل على عظم الأمر الذى يليها، وإذا كنا نحن البشر قد اخترعنا الطائرات الأسرع من الصوت، والصواريخ عابرة القارات والمحيطات، وسفن الفضاء بما لها من طاقات هائلة ـ أفيعجز رب البشر وواهب القُدَر، وبارئ النسم، ومالك الملك والملكوت؟!!.

وقد حكى القرآن المجيد عن عجائب تشبه الإسراء والمعراج وإن لم تقاربه، فالرياح سخرت لسليمان عليه السلام تحمله إلى آفاق بعيدة، عبر عنها القرآن بقوله ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[٣].

---

(١) سورة الإسراء آية ١.

(٢) سورة النجم الآيات ١٣ ـ ١٨.

(٣) سورة سبأ آية ١٢.

وأخبر القرآن أن الذى عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام فى مقدار لمح البصر، سواء قلنا إنه سليمان أو عبد صالح أو ملك مقرب.

قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾(1)؟

والتصديق بالإسراء والمعراج ـ بعد ما صح النقل ـ هو مرتبط ارتباطا لا ينفصم بقضية النبوة، ولعل موقف أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ خير تعبير عن ذلك المعنى، حيث جاءه المشركون قائلين:

هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس؟

قال أبو بكر: أو قال ذلك؟

قالوا: نعم.

قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق.

قالوا: أتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟!

قال: نعم، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة.

ومن يومها سمى أبو بكر صديقا.

حقا إن الإسراء والمعراج أمر عجيب ومثير للدهشة لكن العجب والدهشة شيء والإنكار شيء آخر.

فما كل عجيب منكر.

ولا كل مدهش غير واقع.

فالمعجزات جميعاً عجيبة ومدهشة ومثيرة لكنها واقعة.

وغرائب المخترعات كذلك تثير تساؤلات لدى العامة والخاصة ولكن نصدق بها ونحسها ونلمس آثارها.

---

(1) سورة النمل آية ٤٠.

قد يقول البعض إن هناك آراء تزعم أن الإسراء والمعراج وقع مناما؟!

وبقليل من التأمل نرى أنه لو وقع مناما لما كان له كبير اعتبار، فإن فى الرؤى عجائب وعجائب، ولما بادرت قريش إلى التكذيب، فإن كل إنسان له من الرؤيا ما يحمله على التصديق بمثل ذلك.

وإن التعبير القرآنى فى قوله (بعبده) له دلالته، فإن العبد مجموع الروح والجسد.

وانظر إلى قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾[1].

وقوله سبحانه ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[2].

وما قد يستدل به من بعض الروايات التى فيها «وهو نائم» أو «بين النائم واليقظان» فلا حجة فيها ـ كما يقول القاضى عياض[3] ـ إذ قد يكون ذلك حاله أول وصول الملك إليه وليس فى الحديث ما يدل على كونه نائما فى القصة كلها».

ومن المعروف لدى علماء الحديث أن هناك رواية عن شريك بن عبد الله بن أبى نمر ـ خرجها البخارى ـ فيها أوهام أنكرها عليه العلماء منها:

١ ـ أن الإسراء وقع مناما.

٢ ـ وأنه كان قبل أن يوحى إليه.

٣ ـ أن الجبار عز وجل، رب العزة تبارك وتعالى دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه ما شاء الله.

وقد نقل النووى عن القاضى عياض قوله:

وقد جاء فى رواية شريك فى هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء، وقد نبه مسلم على ذلك بقوله «فقدم وأخر وزاد ونقص».

وقال الإمام ابن كثير[4].

---

(١) سورة العلق الآيتان ٩، ١٠.

(٢) سورة الجن آية ١٩.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٢ ص ٢١٠.

(٤) البداية والنهاية جـ ٣ صـ ١١٤، ١١٢.

وقوله فى حديث شريك عن أنس «ثم استيقظت فإذا أنا فى الحجر» معدود فى غلطات شريك أو محمول على أن الانتقال من حال إلى حال يسمى يقظة».

ويقول أيضا:

«وأما قول شريك عن أنس فى حديث الإسراء «ثـم دنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى» فقد يكون من فهم الراوى فأقحمه فى الحديث والله أعلم».

ونسوق رأى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ـ كما رواه مسلم عن الشعبى عن مسروق قال:

كنت متكئا عند عائشة فقالت:

يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية.

قلت: ما هن؟

قالت: من زعم أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية.

قال: وكنت متكئا فجلست فقلت:

يا أم المؤمنين انظرينى ولا تعجلى، ألم يقل الله عز وجل:
﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾(١).
﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾(٢).

فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين، ورأيته منهبطا من السماء، سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض.

فقالت: أو لم تسمع أن الله يقول ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(٣).

---

(١) سورة التكوير آية ٢٣. (٢) سورة النجم آية ١٣.

(٣) سورة الأنعام آية ١٠٣.

أو لم تسمع أن الله يقول ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(١).

قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(٢).

قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾(٣).

وعن معنى قوله تعالى «ثم دنا فتدلى» نسوق وجوها ذكرها الإمام الرازى فى تفسيره(٤):

أحدها: أن جبريل دنا من النبى ﷺ أى بعد ما مد جناحه، وهو بالأفق عاد إلى الصورة التى كان يعتاد النزول عليها، وقرب من النبى ﷺ وعلى هذا ففى (تدلى) ثلاثة وجوه:

١ ـ فيه تقديم وتأخير، تقديره ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا من النبى ﷺ.

٢ ـ الدنو والتدلى بمعنى واحد كأنه قال دنا فقرب.

٣ ـ دنا إلى أى قصد القرب من محمد ﷺ وتحرك عن المكان الذى كان فيه فتدلى فنزل إلى النبى ﷺ.

الثانى: أن محمدا ﷺ (دنا) من الخلق والأمة ولان لهم وصار كواحد منهم (فتدلى) أى فتدلى إليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق فقال «إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى».

وعلى هذا ففى الكلام كمالان:

---

(١) سورة الشورى آية ٥١.

(٢) سورة المائدة آية ٦٧.

(٣) سورة النمل آية ٦٥.

(٤) جـ ٢٨ ص ٢٨٦ ط الثالثة دار إحياء التراث العربى.

كأنه تعالى قال إلا وحى يوحى جبريل على محمد فاستوى محمد وكمل فدنا من الخلق بعد علوه، وتدلى إليهم وبلغ الرسالة.

الثالث: وهو ضعيف سخيف وهو أن المراد منه هو ربه تعالى، وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان، اللهم إلا أن يريد القرب بالمنزلة، وعلى هذا يكون منه ما فى قوله ﷺ حكاية عن ربه تعالى «من تقرب إلىّ شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إلىّ ذراعا تقربت إليه باعا، ومن مشى إلى أتيته هرولة».

إشارة إلى المعنى المجازى..»

• • •

وهناك استدلال طريف مأخوذ من ختام آية الإسراء والنجم، ففى آية الإسراء قال تعالى (لنريه من آياتنا).

وفى آية النجم قال (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) فالملاحظ هنا أن الآيتين أثبتتا رؤية الآيات ولم تشيرا إلى رؤية الله تعالى، فلو وقعت رؤية الله سبحانه لكانت أولى بالتسجيل والتنبيه والإشارة.

بل يذهب بعض العلماء إلى أهمية تفسير آيات النجم برؤية جبريل عليه السلام فيقول[1]:

ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها (رؤية الله) ألبتة».

٢ ـ انشقاق القمر:

أخرج البخارى فى صحيحه روايات عن ابن مسعود وابن عباس وأنس رضى الله عنهم، منها:

«انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا».

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٤ ط المكتب الإسلامى سنة ١٣٩٩ هـ ولمزيد من التفاصيل راجع كتابنا «الرسول حول الكعبة» سلسلة «إسلاميات»، طبعة المؤسسة العربية الحديثة».

«أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر حتى رأوا حراء بينهما».

وجاءت روايات بلفظ «فرقتين»، وبلفظ «فلقتين»، وبلفظ «شقتين»، وفى رواية «فانشق باثنتين»، وفى رواية «مرتين» وعلق عليها الإمام ابن حجر فقال: ولا أعرف من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق فى زمنه ﷺ»[1].

ولعلها محمولة على معنى الفرقتين، وقد وقع خلاف فى موضع شق القمر، هل كان بمكة بخصوصها أم بمكة زمن العهد المكى للدعوة؟ والراجح الثانى بدليل رواية مسلم عن الأعمش: بينما نحن مع النبى ﷺ بمنى إذ انفلق القمر».

وتدور تساؤلات عن كيفية انفلاق القمر وإمكان وقوعه، وقد نقل الإمام ابن حجر أقوال العلماء فى هذه المعجزة، وساق رأى أبى إسحق الزجاج فى معانى القرآن فقال:

أنكر بعض المبتدعة الموافقين لمخالفى الملة ـ انشقاق القمر، ولا إنكار للعقل فيه، لأن القمر مخلوق لله، يفعل فيه ما يشاء، كما يكوره يوم البعث ويفنيه.

وأما قول بعضهم: لو وقع لجاء متواترا، واشترك أهل الأرض فى معرفته، ولما اختص بها أهل مكة، فجوابه أن ذلك وقع ليلا، وأكثر الناس نيام، والأبواب مغلقة، وقلّ من يراصد السماء إلا النادر، وقد يقع بالمشاهدة فى العادة أن ينكسف القمر، وتبدو الكواكب العظام وغير ذلك فى الليل ولا يشاهدها إلا الآحاد، فكذلك الانشقاق كان آية وقعت فى الليل لقوم سألوا واقترحوا فلم يتأهب غيرهم لها.

ويحتمل أن يكون القمر ليلتئذ كان فى بعض المنازل التى تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض كما يظهر الكسوف لقوم دون قوم»[2].

هذا وقد حاول البعض الاستدلال على هذه المعجزة بالقرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[3].

---

(١) فتح البارى جـ ٧ ص ١٨٣.
(٢) فتح البارى جـ ٧ ص ١٨٥.
(٣) سورة القمر، الآية ١.

ويمكن رد الاستدلال بأن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى شائع فى البيان القرآنى كما فى قوله تعالى ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[1]، ويكون معنى الآية الكريمة أن القمر سينشق يوم القيامة حين تبدل الأرض غير الأرض والسموات.

٣ ـ نبع الماء من بين أصابعه الشريفة :

وقد تكرر هذا الموقف أكثر من مرة، ومن روايات البخارى فى هذا المجال رواية جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: عطش الناس يوم الحديبية والنبى ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ فجهش[2] الناس نحوه فقال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده فى الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

٤ ـ تكثير الطعام القليل:

وتعددت مواقفه كثيراً، ومن المرويات الصحيحة فى ذلك ما أخرجه البخارى فى صحيحه أن جابرا رضى الله عنه قال:

إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كيدة شديدة، فجاءوا النبى ﷺ فقالوا: هذه كدية[3] عرضت فى الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر[4]، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبى ﷺ المعول فضرب فى الكدية فعاد كثيباً أهيل أوأهيم، فقلت: يا رسول الله ائذن لى إلى البيت، فقلت لامرأتى: رأيت بالنبى ﷺ شيئاً ما كان فى ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقالت: عندى شعير وعناق[5] فذبحتُ العناق وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة، ثم جئت النبى ﷺ والعجين قد انكسر[6]، والبِرمة بين الأثافى[7] قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيم لى، فقم أنت يا

---

(١) سورة النحل، الآية ١. (٢) جهش: نزع إلى غيره وهو يكاد يبكى.

(٣) الكيدة بفتح الكاف والكدية بضم الكاف: القطعة الصلبة الصماء من الأرض.

(٤) فائدة ربط الحجر على البطن أنها تضمر من الجوع، فيخشى على انحناء الصلب، فإذا وضع فوقها الحجر وشد عليها استقام الظهر. وقيل لعله لتسكين حرارة الجوع ببرد الحجر.

(٥) الأنثى من المعز. (٦) لان وتمكن منه الخمير.

(٧) الحجارة التى يوضع عليها القدر وهى ثلاثة.

رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: كثير طيب، قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى، فقال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال: ويحك، جاء النبى ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم.

فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم، ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا، وبقى بقية، قال: كلى هذا وأهدى فإن الناس أصابتهم مجاعة».

وفى بعض روايات هذه الواقعة قال جابر:

فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وقلت: جاء الخلق على صاع من شعير وعناق، فدخلت على امرأتى أقول: افتضحت، جاءك رسول الله ﷺ بالخندق أجمعين، فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ فقلت: نعم، فقالت: الله ورسوله أعلم، ونحن قد أخبرناه بما عندنا، فكشفت عنى غماً شديداً».

٥ ـ حنين الجذع:

أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: كان النبى ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه، فحن الجذع، فأتاه فمسح يده عليه.

وفى رواية: فصاحت النخلة صياح الصبى.

وفى رواية: فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار.

ويقال: كان الحسن إذا حدث بهذا الحديث يقول: يا معشر المسلمين الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه.

٦ ـ الدعاء المستجاب:

كان الرسول ﷺ مستجاب الدعوة، وتحققت هذه الدعوات كلها، ومن ذلك ما أخرجه البخارى فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه قال: أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله ﷺ فبينما هو يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال: يا رسول

الله هلكت الكراع[1]، هلكت الشاء، فادع الله يسقينا، فمد يده ودعا، قال أنس: وإن السماء كمثل الزجاجة[2]، فهاجت ريح أنشأت سحابا، ثم اجتمع ثم أرسلت السماء عزاليها، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا، فلم نزل نمطر إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال: يا رسول الله تهدمت البيوت فادع الله يحبسه، فتبسم ثم قال: حوالينا ولا علينا، فنظرت إلى السحاب يتصدع حول المدينة كأنه إكليل»[3].

٧ ـ الإخبار بالغيب:

أخرج البخارى بسنده عن عدى بن حاتم قال: بينا أنا عند النبى ﷺ إذا أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال: يا عدى هل رأيت الحيرة[4]؟ قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها قال:

فإن طالت بك حياة لترينّ الظعينة[5] ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله.

قلت ـ فيما بينى وبين نفسى ـ فأين دُعَّار[6] طيِّئ الذين سَعّروا[7] البلاد؟

ولئن طالت بك حياة لتُفتحن كنوز كسرى[8].

قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز.

ولئن طالت بك حياة لترينّ الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه.

---

(١) الكراع بضم أوله الخيل وقد يطلق على غيرها من الحيوان.

(٢) من شدة الصفاء ليس فيها سحاب.

(٣) الإكليل هى العصابة التى تحيط بالرأس، وأكثر ما تستعمل فيما إذا كانت العصابة مكللة بالجوهر.

(٤) الحيرة: مدينة قرب الكوفة بالعراق.

(٥) الظعينة: المرأة فى الهودج.

(٦) دُعَّار: جمع داعر وهو الخبيث المفسد فى الأرض.

(٧) سَعّروا: أوقدوا نار الفتنة.

(٨) كسرى: علم على كل من حكم فارس القديمة.

وليلقينَّ الله أحُدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالاً وأُفضِل عليك؟ فيقول: بلى.. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر على يساره فلا يرى إلا جهنم.

قال عدى: سمعت النبى ﷺ يقول: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة. قال عدى: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبى أبو القاسم ﷺ" يُخرج ملء كفه".

الفصل الخامس

الخلق العظيم

- حرص الرسول على أمته
- عدل الرسول بين أزواجه
- حسن توكله على الله
- شجاعته
- كرمه
- حسن معاملته
- رحمته
- حياؤه
- تواضعه
- سماحته
- عفوه
- طيب ريحه

الخلق العظيم

لقد حقق سيدنا محمد ﷺ فى حياته الخاصة والعامة ـ المثل الأعلى والقدوة الحسنة والسيرة العطرة، وحرص المسلمون على تسجيل وقائع هذه الحياة الشريفة على كل حال، فى المدخل والمخرج، فى المنشط والمكره، فى الحضر والسفر، فى السلم والحرب، فى اليقظة والنوم.. بالكلمة والفعل والموقف.

وقام علماء أجلاء بالبحث والتمحيص فى السيرة العطرة، وكتبوا كتابات قيمة، سجلت تلك الحياة النبوية بأكملها، بحيث أصبح لدى المسلم ما يشبه اليوميات لسيدنا رسول الله.

وهذا ما لم يحدث لعظيم من عظماء البشرية قاطبة، ولم يقع لزعيم على مستوى التاريخ الإنسانى العام.. وكل الذين كتبوا فى سير العظماء، أو الذين سجلوا بأنفسهم يوميات حياتهم ـ كان كل همهم الاقتصار على أحداث بعينها ومواقف خاصة، ولم يتوفر لهم عمق المعرفة ولا وضوح السيرة فى زوايا الحياة بأسرها..

ونحن المسلمين نفاخر الدنيا كلها بتلك السيرة الصادقة الصحيحة لسيدنا محمد ﷺ، والتى اعترف بها الأعداء، وسلم بها الخصوم، ونالت التقدير والإعجاب من كل الباحثين على اختلاف مللهم ونحلهم.

إن جوانب الأخلاق كثيرة متعددة، ولكل إنسان نصيب منها قل أو كثر، لكن أن نجد إنساناً جمع فضائل الأخلاق كلها وحاز مكارمها بأجمعها، والتقى فيه شرف النسب، وجمال النفس والبدن، ومحاسن السلوك فهذا لا يكون إلا محمداً ﷺ.

ونحن نسوق قبسات من هذا الخلق العظيم..

١ ــ حرص الرسول على أمته:

حدثنا القرآن المجيد عن شفقة الرسول ﷺ بأمته وحرصه عليهم وسعيه في هدايتهم، وتحمله المشاق فى سبيل إصلاح شئونهم. قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[١].

(١) سورة الكهف، الآيات ٦ ـ ٨.

ومعنى «باخع نفسك» أى مهلكها أسفاً، والمراد لا تأسف عليهم ولا تصل إلى مرحلة القلق النفسى المضنى لإعراضهم عن دعوة الحق والخير، وما عليك إلا أن تبلغهم وتوضح لهم معالم الطريق، ودعهم وشأنهم، فإن الحياة قائمة على الابتلاء والامتحان، ولا يخدع بزخرفها وزينتها إلا الأغرار السفهاء، فمصير الحياة إلى زوال وفناء، إما بموت الإنسان نفسه، وإما بجائحة يسلطها الله على متع الحياة، وإما بانتهاء الدنيا وقيام الساعة..

وفى تشبيه بليغ لحرص الرسول وشفقته على أمته يقول عليه الصلاة والسلام - كما فى صحيح مسلم: (إن مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إنى رأيت الجيش بعينىّ، وإنى أنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مُهلتهم، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق).

ومعنى قوله: (أنا النذير العريان) أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يتوقع شره ويخشى بأسه وتساء عاقبته - نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيداً منهم ليأخذوا حذرهم، ويفعل ذلك من يكون فى طليعة الجيش وذهب يتحسس الأخبار ويتعرف على قوة العدو، ويكون منظره هذا أبلغ فى استحثاث قومه على التأهب والاستعداد، وقيل إن مورد المثل فى رجل أدركه العدو فأخذ ثيابه، فرجع إلى قومه عرياناً، فعرفوا من هذا المنظر شدة عدوّهم وقوة بأسه.

وأياً ما كان فإن رسول الله ﷺ قد بلغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء.

وقد كان هذا الحرص من الرسول على أمته عظيماً وكبيراً وممتداً إلى ساحة العرض الأكبر، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فقال عليه الصلاة والسلام: (لكل نبى دعوة مستجابة، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة، فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً).

وكان سيدنا محمد ﷺ: النبى المبلِّغ عن الله، والحاكم على المسلمين فيما شجر بينهم، والراعى الصالح لشئونهم، يتفقد غائبهم ويعود مريضهم، ويتحمل ديونهم، ففى صحيح الحديث قال عليه الصلاة والسلام: (ما من مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا والآخرة اقرأوا إن شئتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1] فأيما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتنى فأنا مولاه).

والملاحظة الجديرة بالاعتبار هنا أن الرسول ﷺ لم يذكر ما يستحقه على المؤمنين بسبب هذه الأولوية، وإنما ذكر ما يتحمله هو نحو المؤمنين، وهذا فى غاية السمو ونهاية الرفعة.

ففى صدر الإسلام لم يكن النبى ﷺ يصلى على من مات وعليه دين، ويدع أصحابه يصلون، وفى امتناع الرسول الكريم عن صلاة الجنازة على المدين تحريض للناس على رد الحقوق لأصحابها، وتنبيه لهم على أن الدين هَمٌّ بالليل ومذلة بالنهار، ودفع لهم لأن يعملوا ويكتسبوا ويدخروا.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (روح المؤمن مرهونة بدينه حتى يقضى عنه) أى محبوسة عن النعيم الذى تستحقه حتى تسدد الديون التى على صاحبها.

ولما جاءت الغنائم وتوالت انتصارات المسلمين أصبح رسول الله يقضى ديون من مات من المسلمين، فإذا وضعت الجنازة سأل إن كان للميت مال وزعه على ورثته حسب الأنصبة الشرعية، وإن لم يكن له مال تكفل ﷺ بذريته وجعل لهم نصيباً من بيت مال المسلمين، بل إن كان على الميت دين قضاه عنه.

وبهذا أرسى رسول الله ﷺ أصلا عظيماً فى بناء المجتمع وكفالة الدولة لأبنائها ورعايتها لمواطنيها، فإن الشأن فى الولاة أن يراقبوا الله تعالى فيما ولاهم، وأن يحسنوا التصرف فى أموال الدولة بما ينفع الناس ويحقق استقرار أحوالهم المالية.

وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها، كما فى صحيح الحديث: سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بيتى هذا: (اللهم من ولى من أمر أُمتى شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به).

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦.

٢ ـ عدل الرسول بين أزواجه:

تزوج الرسول ﷺ لحكم كثيرة، منها تأليف أصحابه وتكريمهم كزواجه من عائشة بنت الصديق، ومنها رعاية اليتامى والأرامل كزواجه من أم سلمة، ومنها إبطال عادات الجاهلية فى التبنى كزواجه من زينب بنت جحش، ومنها جبر خاطر المرأة وتطييب نفسها كزواجه من صفية بنت حيى بن أخطب، وقد ظل رسول الله مع زوجته الأولى السيدة خديجة خمساً وعشرين سنة، كانت حبه الأول والكبير، وظل وفياً لها طوال حياتها وبعد مماتها، حتى إن عائشة رضى الله عنها تقول: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط، ولكن كان النبى ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يبعثها فى صدائق خديجة.

وعندما يكثر الرسول من ذكر خديجة تقول له عائشة:

ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين (أى سقطت أسنانها) فأبدلك الله خيراً منها، فيقول عليه الصلاة والسلام:

«والله ما أبدلنى الله خيراً منها، آمنت بى إذ كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء».

وعندما عدد الرسول زوجاته لحكم سامية كان يقسم بينهن فى المبيت والنفقة وسائر الأمور المادية ثم يجأر إلى الله متضرعاً: اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك «يعنى الحب القلبى»!

وإذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

وهذا موقف فى غاية النبل، ولم يكن سفره يومئذ بالأشهر والسنين فما بالنا اليوم بمن يسافرون إلى خارج القطر ويتركون زوجاتهم وأولادهم شهورا وأعواما بلا رقيب ولا مسئولية ويدعون أسرهم نهبا للفراغ والضياع الأخلاقى.

إن جمع شمل الأسرة واستقرارها العاطفى والأخلاقى هو أغلى ما يحرص عليه العاقل، وماذا يجدى المال عند فساد الأخلاق؟ وماذا تجدى الثروة عند انفراط عقد الزوجية!؟

فالحياة أعمق من المادة، واستقرار الأسرة مع الكفاف خير من الترف مع الفساد.

٣ ـ حسن توكله على الله:

أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله قال:

غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ فى واد كثير العضاة[١]، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها، وتفرق الناس فى الوادى يستظلون بالشجرة، فقال رسول الله ﷺ: إن رجلا أتانى وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسى، فلم أشعر إلا والسيف صلتا[٢] فى يده فقال لى: من يمنعك منى؟ قلت: الله، ثم قال فى الثانية: من يمنعك منى؟ قلت: الله، فشام[٣] السيف، فها هو ذا جالس، ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ.

٤ ـ شجاعته:

أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن أنس بن مالك قال:

كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وكان أجود الناس وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبى طلحة عرى، فى عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا، وجدناه بحرا، أو إنه لبحر. وكان فرسا يبطأ[٤].

٥ ـ كرمه :

أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن ابن عباس قال:

كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان، إن جبريل عليه السلام كان يلقاه فى كل سنة فى رمضان حتى ينسلخ فيعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

---

(١) شجرة ذات شوك.

(٢) مسلولا.

(٣) غمده.

(٤) كان الفرس بطيئا فلما ركبه الرسول تحول إلى فرس سريع العدو، قوى الحركة كأنه موج البحر العاتى.

وعن أنس قال:

إن رجلا سأل النبى ﷺ غنما بين جبلين فأعطاه إياه فأتى قومه فقال أى قوم أسلموا فوالله إن محمدا ليعطى عطاء ما يخاف الفقر، فقال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها.

وأخرج الترمذى عن عمر رضى الله عنه أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه فقال: ما عندى ما أعطيك ولكن ابتع على[1] فإذا جاءنى شىء قضيته.

٦ ـ حسن معاملته :

أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن أنس قال:

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخذ أبو طلحة [2] بيدى فانطلق بى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أنسا غلام كيس فليخدمك، قال: فخدمته فى السفر والحضر، والله ما قال لى لشىء صنعته لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشىء لم أصنعه لم لم تصنع هذا هكذا؟

٧ ـ رحمته :

أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة قال: إن الأقرع بن حابس أبصر النبى ﷺ يقبل الحسن فقال: إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم، فقال رسول الله ﷺ من لا يَرحم لا يُرحم.

٨ ـ حياؤه :

أخرج مسلم فى صحيحه أن أبا سعيد الخدرى قال: كان رسول الله أشد حياء من العذراء فى خدرها وكان إذا كره شيئاً عرفناه فى وجهه[3].

(١) اشتر على حسابى.
(٢) زوج أم أنس.
(٣) أى لا يتكلم به لحيائه.

٩ ـ تواضعه :

أخرج مسلم فى صحيحه أن امرأة كان فى عقلها شىء قالت: يا رسول الله إن لى إليك حاجة، فقال: يا أم فلان انظرى أى السكك شئت حتى أقضى لك حاجتك فخلا[١] معها فى بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها.

وفى الصحيح أيضا: أن امرأة سوداء كانت تقم[٢] المسجد ففقدها رسول الله ﷺ فسأل عنها فقالوا: ماتت، قال: أفلا كنتم آذنتمونى؟ فكأنهم صغَّروا أمرها، فقال ﷺ دلونى على قبرها، فدلوه، فصلى عليها ثم قال: إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أصحابها وإن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتى عليهم.

١٠ ـ سماحته :

أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها قالت: ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل.

وقالت عائشة أيضاً :

ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد فى سبيل الله، وما نيل منه شىء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شىء من محارم الله فينتقم لله عز وجل.

١١ ـ عفوه :

أخرج البخارى بسنده عن عبد الله رضى الله عنه قال: لما كان يوم حنين آثر النبى ﷺ ناسا، أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناسا، فقال رجل: ما أريد بهذه القسمة وجه الله، فقلت: لأخبرن النبى ﷺ فأخبرته فقال: رحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر، وفى رواية: ومن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله.

---

(١) تنحى بها جانباً بحيث يراها الناس ولا يسمعون حديثها.

(٢) تزيل القمامة منه.

١٢ ـ طيب ريحه :

أخرج مسلم بسنده عن أنس قال: ما شممت عنبرا قط ولا مسكا ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله ﷺ ولا مسست شيئا قط ديباجا ولا حريرا ألين مساً من رسول الله ﷺ.

● ● ●

وبعد: فإن هذه الأخلاق مجتمعة لا تكون إلا لنبى اصطفاه الله، وتحمل أمانة التبليغ عن الله إلى خلق الله.

قال العلامة سعد الدين التفتازانى:

اجتمع فيه (ﷺ) من الأخلاق الحميدة، والأوصاف الشريفة، والسير المرضية، والكمالات العلمية والعملية، والمحاسن الراجعة إلى النفس والبدن والنسب والوطن ـ ما يجزم العقل بأنه لا يجتمع إلا لنبى[1].

---

(١) شرح المقاصد جـ ٢ ص ١٣٩، وراجع ما ذكرناه فى الباب الأول من كتابنا هذا عن ملامح الشخصية المحمدية.

الباب الثالث

الوحي المحمدي

الفصل الأول : صور الوحى المحمدى

الفصل الثانى : شبهات حول الوحى المحمدى

الفصل الأول

صور الوحي المحمدي

- الرؤيا الصالحة.
- لقاء إسرافيل.
- صلصلة الجرس.
- تشكل الملَك بصورة رجل.
- رؤية الملك فى صورته الحقيقية.
- المناجاة فى الحضرة الإلهية.
- تذييل.

الوحى المحمدى

نقف هنا وقفة نستجلى فيها صور الوحى الإلهى التى صاحبت الاصطفاء لسيدنا محمد ﷺ، وهى صور لايجمعها نص دينى واحد، وإنما استقرأها العلماء من تتبع أحوال الوحى مع الرسول الكريم..

وهى ـ فى جوهرها ـ تلتقى مع الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (١).

وقد جمع الله لرسوله محمد ﷺ ماتفرق في الرسل، فتحققت له كل أنواع الوحى..

وصور الوحى المحمدى على النحو التالى..

أولا ـ الرؤيا الصالحة:

جاء فى صحيح البخارى عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: (أول مابدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح...).

فالرؤيا الصالحة كانت تمهيداً للوحى وتقدمة للنبوّة، تجعل الرسول فى تهيئة نفسية لما ينتظره من الكرامة.

وهذه الرؤيا من الصدق والوضوح بحيث تتحقق فى اليقظة كما رآها فى النوم أو بحيث تعبّر وتكون أعلام خير وبشائر هدى..

وقد بدأت هذه المرحلة قبيل لقاء غار حراء بستة أشهر واستمرت بقية عمره الشريف.

ولا نعرف نماذج من الرؤى قبل النبوّة، ولكن جاء القرآن وجاءت السنة الصحيحة بنماذج من الرؤى التى وقعت بعد النبوّة، منها على سبيل المثال:

---

(١) سورة الشورى، الآية ٥١

١ ـ قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١).

ففى غزوة بدر الكبرى واجه المسلمون المشركين فى أول واقعة حربية حاسمة، وكان المشركون أضعاف عدد المسلمين، وقد وقعت رؤيا لرسول الله ﷺ خلال المعركة شاهد فيها المشركين قلة قليلة، فأخبر أصحابه يومئذ قائلا: (كأنى أنظر إلى مصارع القوم)، وتلك بشرى إلهية حتى يشتد العزم وتقوى الإرادة ويزداد الإقدام.

٢ ـ قال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ﴾ (٢).

فقد أخبر الرسول ﷺ صحابته فى العام السادس للهجرة برؤيا حق شاهد فيها المسلمين داخلين المسجد الحرام فى أمن تام مؤدّين المناسك..

ولما سار المسلمون ووصلوا إلى الحديبية لم يشك جماعة منهم أن الرؤيا النبوية تتحقق عامهم هذا.. وحين وقع ماوقع من صلح الحديبية تساءل عمر بن الخطاب ﷺ وقال: ألم تخبرنا أنّا سنأتى البيت ونطّوف به؟!.

قال عليه الصلاة والسلام: بلى، أفأخبرتك أنك آتيه عامك هذا؟!.

قال عمر: لا.

قال عليه الصلاة والسلام: فإنك آتيه ومطوّف به..!!

وفعلا ففى العام السابع وفى ذى القعدة أدّى الرسول والمسلمون عمرة القضاء ودخلوا مكة معتمرين ملبين بعد سبع سنين طوال حُرموا خلالها من رؤية الكعبة المشرفة.

وتجمع المشركون رجالا ونساء وصبية، وتزاحموا ليروا هذا النبى القائد يحيط به المهاجرون والأنصار فى ولاء كامل وحب كبير وطاعة مطلقة (٣).

٣ ـ جاء فى صحيح البخارى أن ابن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (بينا أنا نائم أُتيت بقدح لبن فشربت منه حتى إنى لأرى الرىّ يخرج من أظفارى ثم أعطيت فضلى عمر.

(١) سورة الأنفال، الآية ٤٣ (٢) سورة الفتح، الآية ٢٧

(٣) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا «الرسول حول الكعبة»، سلسلة «إسلاميات» طبعة المؤسسة العربية الحديثة.

قالوا: فما أوّلته يارسول الله؟. قال: العلم).

فهنا عبّر الرسول رؤياه، وفسر اللبن بالعلم فى كثرة الانتفاع بهما، ويظهر من ذلك فضل عمر، فهو الفاروق الذى كان إسلامه فتحاً، وهجرته نصراً وخلافته رحمة.

٤ ـ وفى صحيح البخارى أيضاً عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: (بينما أنا نائم رأيت الناس يعرضون علىّ وعليهم قمص، منها مايبلغ الثدى، ومنها ما يبلغ دون ذلك، ومرّ علىّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره.

قالوا : ما أوّلته يارسول الله؟. قال : الدين).

وتعبير الرؤيا هنا بتفسير القميص بالدين، لأن الأول يستر العورة فى الدنيا، والثانى يستر العورة في الآخرة، والقميص به كمال الإنسان فى مظهره، والدين به كمال الإنسان فى حقيقته وباطنه، وعمر رضى ﷺ له من سابقته فى الإسلام وجهاده مع رسول الله ونصرته للمسلمين وخدمته إياهم، مايجعله من أعلام الصحابة المبشرين بالجنة والفائزين بالرضوان.

٥ ـ وجاء في الصحيح أيضاً : (بينما أنا نائم أوتيت خزائن الأرض فوُضع فى يدى أسوران من ذهب، فكبرا علىّ، وأهمانى، فأوحى إلىّ أن أنفخهما، فنفختهما فذهبا.. فأوّلتهما الكذابَين اللذين أنا بينهما، صاحب صنعاء وصاحب اليمامة).

والمعنى أن الرسول ﷺ أوّل سوارى الذهب اللذين طارا من يديه بالعنسى متنبئ صنعاء، ومسيلمة متنبئ اليمامة، وأن هذين الشخصين الكذابَين سيذهب كيدهما وينمحق شأنهما..

وقد وقع ذلك كما أخبر الصادق المصدوق...

***

ثانياً ـ لقاء إسرافيل :

ذكرت كتب السيرة وبعض المسانيد فى السنة أن الرسول ﷺ تلقى وحى الملك إسرافيل مدة ثلاث سنين لم ينزل فيها شىء من القرآن.

وإنما كانت هذه المرحلة توسطاً بين الرؤيا الصالحة وتتابع الوحى بالقرآن الكريم بواسطة الملك جبريل، أو كانت فى المدة التى فتر فيها الوحى بعد لقاء غار حراء...

فالقرآن الكريم هو وحى الله بواسطة جبريل فقط، وكان إسرافيل يتنزل يعلّمه الكلمة والشىء مما يريده الله عز وجل..

وفى مسند الإمام أحمد عن الشعبى: (أن رسول الله ﷺ نزلت عليه النبوّة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوّته إسرافيل عليه السلام ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشىء ولم ينزل القرآن، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوّته جبريل عليه السلام، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة، عشراً بمكة وعشراً بالمدينة، فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة).

ونقل الإمام السيوطى عن ابن عساكر قوله: (والحكمة فى توكيل إسرافيل به أنه الموكل بالصّور الذى فيه هلاك الخلق وقيام الساعة، ونبوّته ﷺ مؤذنة بقرب قيام الساعة وانقطاع الوحى) [(١)].

وإثبات هذا اللون من الوحى بلقاء إسرافيل يتعارض مع حديث بدء الوحى للسيدة عائشة، المخرَّج فى الصحيحين.

وموقف العلماء من هذا إما التوفيق أو الترجيح..

وممن وفّق الإمام أبو شامة قال: (وحديث عائشة لاينافى هذا، فإنه يجوز أن يكون أول أمره الرؤيا، ثم وكل به إسرافيل فى تلك المدة التى كان يخلو فيها بحراء، فكان يلقى إليه الكلمة بسرعة، ولا يقيم معه تدريجاً وتمريناً، إلى أن جاءه جبريل فعلّمه بعدما غطّه ثلاث مرات.

فحكت عائشة ما جرى له مع جبريل، ولم تحك ما جرى له مع إسرافيل، اختصاراً للحديث، أو لم تكن وقفت على قصة إسرافيل..) [(٢)].

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن، ج١، ص٦٠، طبعة الحلبى.

(٢) نقلا عن كتاب «سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد» للإمام محمد بن يوسف الصالحى ـ تحقيق الدكتور مصطفى عبدالواحد، ج٢، ص٣٠٩.

ومن العلماء من رجّح رواية عائشة ورفض رواية الشعبى، ونقل الإمام العينى أن الواقدى وغيره أنكر كون النبى ﷺ وُكِّل به غير جبريل عليه السلام [(١)].

ونقل الطبرى قول الواقدى: (فذكرت ذلك لمحمد بن صالح بن دينار، فقال: والله يا ابن أخى لقد سمعت عبدالله بن أبى بكر بن حزم، وعاصم بن عمر بن قتادة يحدِّثان فى المسجد، ورجل عراقى يقول لهما هذا، فأنكراه جيمعاً وقالا: ماسمعنا ولا علمنا إلا أن جبريل هو الذى قُرن به، وكان يأتيه بالوحى من يوم أن نُبِّئ إلى أن تُوفى ﷺ) [(٢)].

ومما يستدل به البعض على توهين رواية الشعبى ما جاء فى الطبرانى والبيهقى بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل على الصفا، فقال رسول الله ﷺ: ياجبريل والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفَّةُ دقيق ولا كف من سويق..!!

فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هَدَّة من السماء أفزعته، فقال رسول الله ﷺ: أمر الله القيامة أن تقوم؟!.

فقال: لا، ولكن أمر إسرافيل فنزل إليك حتى يسمع كلامك، فأتاه إسرافيل فقال: إن الله تعالى بعثنى إليك بمفاتيح خزائن الأرض وأمرنى أن أعرض إليك أُسيِّر معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة، فقلت: فإن شئت نبياً ملكاً وإن شئت نبياً عبداً؟!.

فأومأ إليه جبريل أن تواضع، فقال: بل نبياً عبداً.. ثلاثاً).

ورواه ابن حبان فى صحيحه مختصراً من حديث أبى هريرة ولفظه: (جلس رسول الله ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال له جبريل: هذا الملك مانزل منذ خُلق قبل الساعة.. وذكر الحديث) [(٣)].

---

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى، ج١، ص٤٠

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٣٨٦.

(٣) نقلا عن كتاب «سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد»، ج٢، ص٣١٠.

فمن هذه الآثار فهم البعض أن إسرافيل لم ينزل على رسول الله قبل هذا اللقاء مع جبريل، فكيف يستقيم أن يكون مكث مع الرسول ثلاث سنين قبل مجيء جبريل؟!.

ومهما يكن من أمر فإن جانب التوفيق أرجح لما يلي:

١ ـ إن إثبات لقاء إسرافيل لاينافي أن القرآن كله نزل به جبريل الأمين.

٢ ـ إن مهمة إسرافيل كانت تهيئة نفسية وتدريجاً وتمريناً..

٣ ـ إن مانقله الواقدي بأن مشايخه قالوا: ما سمعنا ولا علمنا.. لاينفي القضية في واقعها، فعدم سماعهم أو علمهم لا ينفي الأمر في ذاته.

٤ ـ إن رواية الطبراني لايُفهم منها أن نزول إسرافيل مع جبريل على الصفا كان ابتداءً ولأول مرة، وليس هناك تعارض بين لقاء إسرافيل في ابتداء النبوَّة وبين نزوله حينذاك..

ففي الأول كان يعلمه الكلمة والشيء، وفي الثاني كان للتخيير بين النبي الملك وبين النبي العبد، ولعل هذا اللقاء الثاني كان امتداداً للمرحلة الأولى، بل هذه الرواية تؤكد علاقة إسرافيل بالنبوَّة والوحي..!

***

ثالثاً ـ صلصلة الجرس:

في صحيح البخاري عن عائشة أم المؤمنين ﵂ أن الحارث ابن هشام ﵁ سأل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، كيف يأتيك الوحي؟.

فقال عليه الصلاة والسلام: (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ماقال...)

الصلصلة هي الصوت القوي..

والمعنى أن لحظة الإيحاء هذه يجتمع لها من اليقظة والوعي والتغيرات النفسية والعضوية ما يشدّ النبي شداً قوياً لتلقِّي الوحي، وتحاط هذه اللحظة بأصوات الملائكة المصاحبين لجبريل، حتى يتفرغ الوعي كله لمصدر الوحي..

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: (ماجاء جبريل بالقرآن إلى النبي ﷺ إلا ومعه أربعة من الملائكة حفظة).

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: (كان النبي ﷺ إذا بُعث إليه الملك بُعث ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه أن يتشبه الشيطان على صور الملك) [1].

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يحسون بهذه الأمور الطارئة، وقد عبَّر عنها عمر بن الخطاب ﷺ قال: (كنا نسمع عنده مثل دوى النحل).

وهذه الحالة هى أشد حالات الوحى، وقد جاء فى الأحاديث الشريفة مايشير إلى هذه الشدَّة، ويصف مايعترى النبى عندها، ففى حديث عائشة السابق تقول: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً).

وفى حديث الإفك قالت عائشة ﷺ: (فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء [2] عند الوحى، حتى إنه ليتحدَّر منه مثل الجمان [3] من العرق، فى اليوم الشاتى، من ثقل القول الذى أُنزل عليه).

وفى حديث عبادة بن الصامت قال: (كان نبى الله عليه الصلاة والسلام إذا أُنزل عليه، كرب لذلك وتربَّد [4] وجهه).

فهذه المعاناة وتلك المكابدة فى تلقى الوحى هى تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [5].

فثقل القول فى تلقّيه وحياً، وفى التزامه عملا، والقيام به تكليفاً.

---

(١) نقلا عن كتاب (الإتقان فى علوم القرآن) للسيوطى، ج١، ص٥١

(٢) البرحاء ـ بضم الباء وفتح الراء ـ شدة الكرب وشدة الحمى.

(٣) الجمان ـ بضم الجيم وتخفيف الميم ـ جمع جمانة وهى حبة تعمل من فضة كالذرة.

(٤) أى تغير لونه.

(٥) سورة المزمل، الآية ٥.

لكن مع تكرار الوحى وتتابع النزول تخف حدة هـذه الأعراض ويصبح الأمر أيسر من ذى قبل.

وإذا قارنـا بين القرآن فى عـهديه المكى والمدنى نلحظ أن الآيات المـكية أقـصر على وجـه العمـوم من الآيات المدنيـة، بل إن أطول آية فى القـرآن هى آية المداينة فى سورة البقرة ـ وهى مدنية.

ونجد أيضاً أن السور المدنية ـ على جهة العموم ـ أطول كثيراً من السور المكية، اللهم إلا ماندر، كسورة النصر المدنية.

ويظهر كذلك أن النجم القرآنى ـ وهو القدر المنزل من الآيات مرة واحدة ـ فى عهده المكى قليل الآيات، وانظر ـ مثلا ـ النجم الأول من القرآن، وهو الآيات الخمس الأول من سورة العلق، وقارن بها نزول صدر سورة براءة إلى مايقرب من أربعين آية فى العهد المدنى..

بل أحيـاناً تنزل السورة كلها، فـفى مسند أحـمد عن أسمـاء بنت يزيد قالت: (إنى لآخذة بزمام العضباء، ناقة رسول الله ﷺ، إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة).

وفى رواية : فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها.

وثبت فى الصـحيحين نزول سـورة الفتح على رسـول الله ﷺ مرجـعه من الحديبية، وهو على راحلته..

وأخيراً نستحضر صورة اللقاء الأول فى غار حراء:

(فجاءه الملك فقـال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ. قال: فأخـذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجهـد ثم أرسلنى فقال: اقـرأ، قلت: ما أنا بقارئ. قال: فـأخذنى فغطّنى الثـانية حتى بلغ مـنى الجهد ثم أرسلنى فـقال: اقـرأ، فقلت: ما أنا بقـارئ. فأخذنـى فغطّنى الثالثة... إلخ).

استحضر معى هذه الصورة ومشاقها وما خلّفته من آثار نفسية جعلت الرسول يرجع إلى السيدة خديجة يرجف فؤاده، ويقول: زملونى.. زملونى، حتى ذهب عنه الروع.

وأضف إليها صورة اللقاء المتكرر فى رمضان لمدارسة القرآن، ففى الصحيح: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود مايكون فى رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة).

***

رابعاً- تشكل الملك فى صورة رجل:

قدرة الملك على التشكل بالصورة البشرية محل اتفاق أهل الأديان جميعاً، لقد نزل الملائكة على إبراهيم الخليل ضيفاً مكرمين، وقدم لهم عجلا حنيذاً، ولم يعرف أنهم ملائكة إلا حين أفصحوا له عن حقيقة أمرهم..

قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ (١).

وأتى الملائكة لوطاً عليه السلام فى صورة شباب بهى الطلعة، جميل المنظر..

قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ (٢).

وبعث الله إلى مريم البتول جبريل عليه السلام فى صورة بشر سوى يبشرها باصطفائها واصطفاء وليدها..

قال جل شأنه: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (٣).

---

(١) سورة الذاريات، الآيات ٢٤ ـ ٢٨.

(٢) سورة هود، الآيتان ٧٧ ـ ٧٨.

(٣) سورة مريم، الآية ١٧.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة [1] كان جبريل عليه السلام يتنزل على سيدنا محمد ﷺ ويتمثل له فى صورة رجل.. وقد أخرج البخارى فى صحيحه: (وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول).

وجاء فى السنة الصحيحة أن هذا الرجل اتخذ أكثر من شكل:

١ ـ فتارة يأتى على صورة رجل أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم ريحاً ولا يعرفه أحد من الصحابة، وتعددت الروايات فى ذلك.

ففى صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: (بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرَى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يامحمد، أخبرنى عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت.

فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرنى عن الإيمان.

قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت.

قال: فأخبرنى عن الإحسان.

قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: فأخبرنى عن الساعة.

---

(١) الفرق بين تشكل الملك وتشكل الجن، أن الملك يتشكل بالصورة الحسنة فقط ولا تحكم عليه الصورة، أما الجن فيتشكل بالحسن والقبيح وتحكم عليه الصورة.

قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل.

قال: فأخبرنى عن أماراتها.

قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان.

ثم انطلق، فلبثنا ملياً، ثم قال: ياعمر أتدرى من السائل؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال: (كان النبى ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله، وتؤمن بالبعث.

قال: ما الإسلام؟

قال: أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان.

قال: ما الإحسان؟

قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: متى الساعة؟

قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربتها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم [1] فى البنيان، في خمس [2] لايعلمهن إلا الله، ثم تلا النبى ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [3]

---

(١) روى برفع «البهم» صفة للرعاة والمعنى الرعاة السود أو المجهولون، وروى بالجر صفة للإبل، أى الإبل السود وهى شرها.

(٢) خبر مبتدأ محذوف، أى علم الساعة فى خمس.

(٣) سورة لقمان، الآية ٣٤

ثم أدبر، فقال: ردوه، فلم يروا شيئاً، فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم).

وقد أتى جبريل على هذه الصورة ليخفى على الناس فى بادئ الأمر، ويتطلعوا إليه فى شغف، ويتأملوه فى تعجب، كى تقوى ملكتهم فى تتبع أسئلته وحفظ الجواب عنها، ولأن القضية قضية تعليم لهم وبيان، فاتخذت هذا الشكل من الحوار، لفتاً للأنظار وترسيخاً لحقائق الإيمان..

ووقعت فى هذا اللقاء بعض الأمور التى ساعدت على هذا الهدف:

ـ فالرجل على صورة وضاءة، وهو ليس من أهل المدينة، فلا يعرفه أحد، وليس قادماً من سفر، فثيابه بيضاء، ولا يرى عليه عناء ولا إرهاق..

ـ عندما قدم إلى النبى ﷺ جلس بين يديه جلسة المتعلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه.

ـ عقب جواب النبى ﷺ كان يقول: (صدقت)، وتعجب الصحابة يسأله ويصدقه، فشأن السائل أن يكون جاهلا بالجواب وخاصة بما يتعلق بأمور الوحى والتشريع، فهى من خصائص النبى، فدلت كلمة (صدقت) على أن سؤاله سؤال عارف محقق..

٢ ـ وتارة يأتى جبريل فى صورة بشرية ويؤم النبى ﷺ عند الكعبة، ويعلمه الصلاة، ويبين له أوقاتها بدءاً ونهاية، وذلك فى غداة الليلة المباركة التى وقع فيها الإسراء والمعراج.

ففى صحيح مسلم عن أبى مسعود رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: نزل جبريل عليه السلام فأمّنى فصليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، يحسب بأصابعه خمس مرات).

وثبت فى سنن أبى داود والترمذى وغيرهما من رواية ابن عباس وغيره فى إمامة جبريل أنه صلى الصلوات الخمس مرتين فى يومين، فصلى الخمس فى اليوم الأول أول الوقت، وفى اليوم الثانى آخر وقت الاختيار.

ونص الحديث كما رواه الترمذى عن ابن عباس: (أمَّنى جبريل عليه السلام عند البيت مرتين، فصلى الظهر فى الأولى منهما حين كان الفىء مثل الشراك، ثم صلى العصر حين كان كل شىء مثل ظله، ثم صلى المغرب حين وجبت الشمس وأفطر الصائم، ثم صلى العشاء حين غاب الشفق، ثم صلى الفجر حين برق الفجر وحرم الطعام على الصائم..

وصلى المرة الثانية الظهر حين كان ظل كل شئ مثله لوقت العصر بالأمس، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شئ مثليه، ثم صلى المغرب لوقته الأول، ثم صلى العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل، ثم صلى الصبح حين أسفرت الأرض.

ثم التفت إلىَّ جبريل فقال: يامحمد، هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت فيما بين هذين الوقتين).

فنحن نعتقد أن هذه الإمامة كانت فى الصورة البشرية حتى تتأتى المماثلة والاقتداء..

٣ ـ وأحياناً يأتى الملك على صورة أحد الصحابة وهو دحية الكلبى، كان من كبار الصحابة، وشهد أحداً ومابعدها، وأعطى شطراً كبيراً من الحسن حتى قيل: إن دحية إذا قدم المدينة لم تبق معصر [١] إلا خرجت تنظر إليه لفرط جماله، ويروى أنه كان يمشى متلثماً يستر وجهه متحرجاً من فتنة النساء به..

قال ابن حجر: وكان جبرائيل عليه السلام ينزل على صورته (أى: دحية الكلبى)، جاء ذلك من حديث أم سلمة، ومن حديث عائشة، وروى النسائى بإسناد صحيح عن يحيى بن معمر عن ابن عمر ﷺ : (كان جبريل يأتى النبى ﷺ فى صورة دحية الكلبى).

وروى الطبرانى من حديث عفير بن معدان عن قتادة عن أنس أن النبى ﷺ قال: (كان جبرائيل يأتينى على صورة دحية الكلبى، وكان دحية رجلا جميلا) [٢].

---

(١) المعصر: الفتاة إذا اكتملت أنوثتها.

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة، ج١، ص ٤٦٣ ـ طبعة المكتبة التجارية الكبرى.

وساق محمد بن سعد روايات فى هذا المعنى منها:

عن عامر الشعبى قال: شبه رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من أُمته فقال: دحية الكلبى يشبه جبرائيل، وعروة بن مسعود الثقفى يشبه عيسى بن مريم، وعبد العزى يشبه الدجال.

وعن عائشة قالت: (وثب رسول الله ﷺ وثبة شديدة، فنظرت فإذا معه رجل واقف على برذون، وعليه عمامة بيضاء قد سدل طرفها بين كتفيه ورسول الله ﷺ واضع يده على معرَفة [1] برذونه، فقلت: يارسول الله، لقد راعتنى وثبتك.. من هذا؟. قال: ورأيتيه؟ قلت: نعم، قال: ومن رأيت؟

قالت: رأيت دحية الكلبى. قال: ذاك جبريل عليه السلام) [2].

وفى أحاديث الإسراء ثبت أن النبى ﷺ قال: (عُرض علىَّ الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى بن مريم فإذا أقرب من رأيته به شبهاً صاحبكم، ـ يعنى نفسه ـ، ورأيت جبريل فإذا أقرب من رأيته به شبهاً دحية الكلبى).

وهذا التشكّل من الملك بصورة الإنسان لايعنى بحال من الأحوال أنه انقلب عن طبيعته وخرج عن فطرته، ولا يعنى أيضاً أنه صار له بدنان أو جسمان، ولا علاقة له بتنقل الأرواح فى الأجساد.

كل ما فى الأمر أن القدرة على التشكّل فى الملك تجعله يُرى على أوضاع مختلفة، ويظهر أمام الرائى على أشكال متعددة، وهو هو فى حقيقته وطبائعه وسائر أحواله المميزة..

وأظن أن فى التصوير التليفزيونى والسينمائى الآن مايقرِّب هذا المعنى، فإن فى استطاعة المصوِّر أن يقدم لك صوراً متعددة للشخص الواحد فى أوضاع لا نتصورها فى الواقع، بأن تكون الصورة صغيرة جداً أو كبيرة عن المألوف، أو فى حركات لايمكن أن يأتى بها الشخص فى لحظة واحدة..

(١) المعرفة بفتح الراء: الموضع الذى ينبت فيه العُرف.

(٢) الطبقات الكبرى، ج ١ القسم الأول ص ١٨٤ ـ طبعة مؤسسة دار التحرير.

ولا مجال بعد ذلك لأن يقال: إذا أتى جبريل النبى ﷺ فى صورة دحية فأين تكون روحه؟ أفى الجسد الذى يشبه جسد دحية، أم فى الجسد الذى خلق عليه، له ستمائة جناح؟!.

فإن كان فى الجسد الأعظم فما الذى أتى إلى النبى ﷺ جبريل، لا من جهة روحه ولا من جهة جسده!!.

وإن كانت فى الجسد المشبَّه بجسد دحية فهل يموت الجسد الذى له ستمائة جناح كما تموت الأجساد إذا فارقتها الأرواح؟ أم يبقى حياً خالياً من الروح؟!.

فهذه التساؤلات غير مطروحة إطلاقاً، والأعجب من ذلك هو ماتكلفه العلماء فى الجواب عليها..

فقد نقل صاحب السيرة الشامية عدة أجوبة منها:

يقول الشيخ عز الدين بن عبدالسلام: لا يبعد أن يكون انتقالها من الجسد الأول غير موجب لموته، لأن موت الأجساد بمفارقة الأرواح ليس بواجب عقلا، وإنما هو بعادة مطّردة أجراها الله فى أرواح بنى آدم فيبقى ذلك الجسد حياً لا ينقص من معارفه وطاعاته شىء..

ويقول العلامة علاء الدين القونوى: فى الممكن أن يخص الله بعض عباده فى حال الحياة بخاصة لنفسه الملكية القدسية، وقوة لها يقدر بها على التصرف فى بدن آخر غير بدنها المعهود، مع استمرار تصرفها فى الأول.

وقد قيل فى الأبدال: إنهم إنما سموا أبدالا، لأنهم قد يرحلون إلى مكان ويقيمون فى مكانهم شبحاً آخر تشبيهاً بشبحهم الأصلى بدلا عنه.

وقد أثبت الصوفية عالماً متوسطاً بين عالمى الأجساد والأرواح، وبنوا على ذلك تجسُّد الأرواح وظهورها فى صور مختلفة من عالم المثال) [1]

وأظن أن هذه الإجابات عقّدت القضية أكثر، وزادت المسألة غموضاً، والأمر أهون مما تصور هؤلاء!!..

---

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، للإمام الصالحى الشامى، ج٢، ص٣٥٨

هذا والفـرق بين صـورة الوحى فى صـلصلة الجرس، وصـورة الوحى فى تشكل الملك بصورة البشر؛ راجع إلى ضـرورة المناسبـة بين الملك والرسول بإيجـاد العامل المشترك الذى يجمع بينهما حتى يمكن التلقى والتعليم والوعى..

ويكون ذلك إمـا بتقـارب الرسـول من الملك أو بتـقارب الملك من الرسـول، والحـال الأولى هى الصلصلة بحيـث تغلب الأوضاع الروحـية، وتعلو فـوق المدارك الإنسانية، وينخلع الرسول من صورته البشرية فى الوعى والإدراك.

وهذا الوضع يجعل الرسول فى شدة وتكلف ومجاهدة..

والحـال الثانيـة هى تشكل الملك بصـورة البشـر، ويظل الرسـول فى مداركـه الإنسانية المعتادة، فيسهل التلقي والحوار.

ويرى ابن خلدون أن الحال الأولى - وإن كـانت أشد - أدنى مرتبة من الثـانية، ويذهب إلى أن الأولى رتبة الأنبياء غيـر المرسلين، فهى بداية الخروج من أفق البشرية إلي أفق الملائكية..

وأن الثـانية رتبـة الأنبـياء المرسلين الذين تمرَّسـوا على الاتصـال بالملأ الأعلى، وتكرر لديهم الانسلاخ من البشرية..

ويذهب ابن خلدون إلى أن التـعبيـر النبوى بصلصلة الجـرس وصورة الرجل على التمثيـل وليس الحقيقة، تقريباً لحـالى الوحى، وذلك بناء على نظريته فى ترتيب الموجودات وقدرتها على الانسلاخ من طبائعها إلى الرتبة العليا..

وذكر ابن خلدون الحديث الشريف: (أحـياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىَّ فـيفصم عنى وقد وعـيت ماقال، وأحيـاناً يتمثل لى الملك رجـلا فيكلمنى فأعى مايقول).

وعلَّق عليه قائلا: (واعلم أن الأولى، وهى حالة الدوىِّ، هى رتبـة الأنبياء غير المرسلين على مـاحققـوه، والثانيـة - وهى حالة تمثل المـلك رجلا يخاطب - هـى رتبة الأنبياء المرسلين، ولذلك كانت أكمل من الأولى.

وإنما كـانت الأولى أشد لأنهـا مبـدأ الخـروج فى ذلك الاتصال من القـوة إلى الفعل، فيعسـر بعض العسر، ولذلك لما عاج [1] فيها على المدارك البـشرية اختصت بالسمع، وصعب ماسواه، وعندمـا يتكرر الوحى، ويكثر التلقى يسهل ذلك الاتصال، فعندما يعوج إلى المدارك البـشرية يأتى على جميعها وخـصوصاً الأوضح منها، وهو إدراك البصر..

وفى العبارة عن الوعى فى الأولى بصيغة الماضى، وفى الثـانية بصيغة المضارع لطيفـة من البلاغـة، وهى أن الكلام جاء مجئ التـمثيل لحـالتى الوحى، فمـثّل الحالة الأولى بالدوىّ الذى هو فى المتعارف غير كلام، وأخـبر أن الفهم والوعى يتبعه عقب انقضائه، فناسب عند تصـوير انقضائه وانفصاله ـ العـبارة عن الوعى بالماضى المطابق للانقضاء والانقطاع.

ومثل الملك فى الحـالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم، والكلام يـساوقه الوعى، فناسب العبارة بالمضارع المقتضى للتجدد...) [2].

ونحن نرفض أن تكون العبارة النبوية تمثيلا وليست حقيقة لما يلى:

أولا : ابن خلدون فـسر العـبارة النبـوية (مـثل صلصلة الجرس) بأنهـا الدوىُّ الذى هو فى المتعارف غير كلام، وهذا خلط بين موقفين:

ـ مـوقف الرسول عند هذه الحـال من الوحى، فكان صـوت الملك أو حفـيف أجنحـة الملائكة المصاحـبة لملك الوحى، من القـوة والشدة مـاقرّبه الرسـول إلينا بمثل صلصلة الجرس.

ـ موقف الصحابة عندما تعترى الـرسول هذه الحال أنهم يسمعون دوياً كدوىّ النحل، فقـد روى الإمام أحمد والحـاكم عن عمر بن الخطاب قال: (كـان رسول الله ﷺ إذا أُنزل عليه يسمع عند وجهه كدوىّ النحل).

فيـتضح من ذلك أن الصلصلة تقريب لصـوت الملك وليست تقريبـاً لحالة من الانسلاخ عن البشرية.

---

(١)عاج بالمكان : أقام فيه.

(٢) مقدمة ابن خلدون ـ تحقيق الدكتور على عبدالواحد وافى، ج١، ص٤٠٩.

ثانياً : إن تمثّل الملك بصورة الرجل حقيقة رآها الصحابة وصارت محل إجماع المسلمين، وليست تقريباً لمعنى معين، وحديث الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة، جرت وقائعه أمام الصحابة، وأخبرهم الرسول ﷺ أن السائل هو جبريل أتاهم يعلمهم دينهم...

***

خامساً ـ رؤية الملك فى صورته الحقيقية:

بعد لقاء الغار الأول انقطع الوحى فترة زمنية، اختلف العلماء فى مدتها، والمشهور أنها سنتان ونصف، ثم انجلى الموقف، وتراءى للرسول جبريل عليه السلام فى صورته الملائكية، ونزل عليه صدر سورة المدثر..

فقد أخرج البخارى فى صحيحه فى كتاب الوحى: أن جابر بن عبدالله الأنصارى قال وهو يحدّث عن فترة الوحى فقال فى حديثه: (بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زمّلونى، فأنزل الله تعالى: «ياأيها المدثر، قم فأنذر...» إلى قوله: «والرجز فاهجر»[1] فحمى الوحى وتتابع).

وزاد البخارى فى رواية ساقها فى باب التعبير:

(وفتر الوحى فترة حتى حزن النبى ﷺ ـ فيما بلغنا ـ حزناً غدا منه مراراً كى يتردّى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى منه نفسه تبدّى له جبريل فقال: يامحمد، إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقرُّ نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل فقال له مثل ذلك).

وهنا موقف يحتاج إلى تأمل..

فهذه الرواية الأخيرة يفهم منها أن الرسول حاول أن ينتحر بإلقاء نفسه من شاهق الجبل حزناً على انقطاع الوحى..!!

---

(١) سورة المدثر الآيات ١ ـ ٥

ونحن إذا تأملنا هذه الرواية سنداً ـ نرى الإمام العينى يقول: (وهذا من بلاغات معمر، ولم يسنده، ولا ذكر راويه، ولا أنه عليه السلام قاله، ولا يعرف هذا من النبى ﷺ...).

ومن العلماء من قبل هذه الرواية وحاول تعليلها، ويسوق الإمام العينى:

(قد يحمل على أنه كان أول الأمر قبل رؤية جبريل عليه الصلاة والسلام كما جاء مبيناً عن ابن إسحاق عن بعضهم...

أو أنه فعل ذلك لما أحرجه تكذيب قومه، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ (١)...

أو خاف أن الفترة لأمر أو سبب، فخشى أن يكون عقوبة من ربه، ففعل ذلك بنفسه، ولم يرد بعدُ شرع بالنهى عن ذلك فيعترض به، ونحو هذا فرار يونس عليه السلام حين تكذيب قومه.. والله أعلم) (٢).

ونحن نرفض هذه الرواية سنداً ومتناً..

أما من جهة السند فنكتفى بما ساقه الإمام العينى، ولا نجعل للاحتمالات نصيباً، مثل احتمال أن يكون بلغه من الثقات أو احتمال أن يكون بنفس الإسناد المذكور فى حديث بدء الوحى.. فالاحتمال يسقط اليقين..

ومحاولات التعليل السابقة يشوبها الكثير..

فالحمل على أن ذلك كان قبل رؤية جبريل يسقطه نص الرواية القائل: (فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى منه نفسه تبدى له جبريل فقال: يامحمد، إنك رسول الله حقاً).

والحمل على أن فعله ذلك كان خشية تكذيب قومه ـ غير منطقى، لأنه لم يكن كُلفَ بالرسالة والتبليغ، وما زال مستقبل الوحى غيباً بالنسبة له لايدرى ما الله صانع فيه.

والحمل على خوف أن الفترة لأمر مافخشى أن يكون عقوبة من ربه، لو قبلناه من حيث الشكل فهو مرفوض من حيث الموضوع، فخوف عقوبة الله لايدفع إلى

---

(١) سورة الكهف، الآية ٦

(٢) عمدة القارى شرح صحيح البخارى، ج١ ص٥٥

مزيد من المعصيـة، وكون الشرع لم يرد بعدُ بالنهى عن الانتحـار ليس مبرراً، فإن من بداهة التفكير أن قتل النفس وقتل الغير سواء فى الجريمة..

ويضـاف إلى ذلك كله أن سيـدنا محـمـداً ﷺ لم يعدّ نفسه لرسـالة، ولم يتوقع نبوةً بنـص قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (١).

ولايتصـور أن يستبد به الحـزن أو يصل به الشوق إلى الانتحار، مع أن سـيدنا محمداً ﷺ رجع من لقاء غار حراء يرجف فؤاده ويخشى على نفسه..!!

كل مـايمكن أن يقـال: إن الرسـول الكريم فى فـتـرة الوحى حـصـلت له خـواطر وتوقعات وإيحاءات نفسية دفعت إليها الإرهاصات التى مرّ بها فى الرؤيا الصالحة، والخلوة فى الغار، ولقاء الملك، فلعله ﷺ غدا إلى شواهق الجبال تطلعاً وترقباً للقاء جديد..

●●●

هذا ولقد ظهـر جبريل للرسول مـرة أخرى فى صورته الملائكيـة ليلة الإسراء والمعـراج عند سدرة المنتـهى، ذلك المكان العلوى الذى ينتـهى إليه مـايهبط من فـوق ومايصعد من تحت، والذى توقف عنده جـبريل وترك محمداً ﷺ يزجّ به فى النور القدسى، وقال له: (وما منا إلا له مقام معلوم)(٢).

وإلى هاتين المرتين فى الرؤية لحقيـقة جبريل يشيـر قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾(٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾(٤).

---

(١) سورة يونس، الآية ١٦.
(٢) سورة الصافات ١٦٤
(٣) سورة النجم، الآيات ٥ـ١٤.
(٤) سورة التكوير، الآية ٢٣.

ويؤكد هذا المعنى الحديث الشريف فى صحيح مسلم بسنده عن مسروق قال: كنت متّكئاً عند عائشة فقالت: يا أبا عـائشة[١]، ثلاث من تكلم بواحدة منهنَّ فقد أعظم على الله الفرية..

قلت: ما هنَّ؟ قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية.

قال: وكنت متّكئاً فجلست فقلت: يا أم المؤمنين أنظرينى ولاتعجلى، ألم يقل الله عزل وجل:

«ولقد رآه بالأفق المبين»[٢]، «ولقد رآه نزلة أخرى»[٣].

فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء، سادّاً عظم خلقه ما بين السماء والأرض.

فقالت: أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [٤].

أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [٥].

قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [٦].

قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [٧].

---

(١) كنية مسروق الراوى، وهو تابعى
(٢) سورة التكوير الآية ٢٣
(٣) سورة النجم الآية ١٣
(٤) سورة الأنعام، الآية ١٠٣
(٥) سورة الشورى، الآية ٥١
(٦) سورة المائدة، الآية ٦٧
(٧) سورة النمل، الآية ٦٥.

ومن المعروف فى فقه العقيدة أن هناك خلافاً بين أهل السنة فى رؤية الرسول لربه عز وجل ليلة الإسراء والمعراج، وأن هناك فريقاً على رأسه أم المؤمنين عائشة ينكر هذه الرؤية ويفسر آيات النجم على أنها رؤية لجبريل.

وأن فريقاً آخر على رأسه عبدالله بن عباس يثبت الرؤية ويفسر آيات النجم على أنها رؤية لله عز وجل.

وليس في المسألة قول قاطع ولا نص صريح، والأرجح هو رأى عائشة..

وفى صحيح الحديث أن أبا ذر سأل رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: (نور أنَّى أراه؟!).

وقد فسر النور بالحجاب فى حديث آخر: (حجابه النور)، فيكون الرسول ﷺ رأى الحجاب الذى هو النور، وقد منعه ذلك من رؤية الرب عز وجل..

وهناك استدلال طريف مأخوذ من ختام آية الإسراء وآية النجم، ففى آية الإسراء قال: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾[1].

وفى آية النجم قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[2].

فالملاحظ أن الآيتين هنا أثبتتا رؤية الآيات ولم تشيرا إلى رؤية الله، ولو وقعت رؤية الله سبحانه لكانت أولى بالتسجيل والتنبيه والإشارة..!!

بل يذهب بعض العلماء إلى أهمية تفسير آيات النجم برؤية جبريل عليه السلام فيقول:

(ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها (رؤية الله) ألبتة)[3].

---

(١) سورة الإسراء الآية ١

(٢) سورة النجم الآية ١٨

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢١٤ ـ طبعة المكتب الإسلامى سنة ١٣٩٩هـ.، وراجع ص ١٤٤ من كتابنا هذا

سادساً. المناجاة فى الحضرة الإلهية:

هذا اللون من الوحى وقع لسيدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، حيث فرضت الصلاة على الأمة الإسلامية من خلال مناجاة علوية قدسية، ناجى فيها الرسول ربه تبارك وتعالى، واشترك فيها موسى عليه السلام..

وكان ذلك من وراء حجاب، فلم تثبت الرؤية لأحد من الأنبياء مطلقاً فى هذه الدنيا..

وتخيل معى حديثاً مع الله، هو الصدق كله، والصفاء كله، والنور كله، وتتقاصر الكلمات عن وصف هذه المناجاة، ونكتفى بما يقرِّبها وهو النص الصحيح كما ورد عن المعصوم ﷺ.

ففى صحيح مسلم من رواية ثابت البنانى عن أنس:

(ثم ذهب بى إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال.. قال: فلما غشيها من أمر الله ماغشى تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها.. فأوحى الله إلىَّ ما أوحى، ففرض علىّ خمسين صلاة فى كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ، فقال: مافرض ربك على أُمتك؟. قلت خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم.

قال: فرجعت إلى ربى فقلت: يارب خفف على أمتى.

فحط عنى خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عنى خسماً. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

قال: فلم أزل أرجع بين ربى تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يامحمد إنهنَّ خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون. ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً. ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

فقال رسول الله ﷺ: فقلت قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه).

ونُنبه القارئ الكريم إلى بعض ملاحظات:

١ ـ جاء فى بعض الروايات أن المناجاة كانت بعد مرحلة سمع فيها صريف الأقلام، وهو صوت ماتكتبه الملائكة من أقضية الله تعالى ووحيه وماينسخونه من اللوح المحفوظ أو ماشاء الله من ذلك أن يكتب..

وجاء فى بعض الروايات أن الوصول إلى سدرة المنتهى كان بعد المناجاة..

وسدرة المنتهى أو السدرة المنتهى سميت بذلك لكونها ينتهى إليها مايهبط من فوقها وما يصعد من تحتها، ولم يتجاوزها أحد إلا الرسول ﷺ.

وعلى كل فالمناجاة وقعت فى مكان علوى روحى وضّاء.

وليكن معلوماً أن محمداً ﷺ فى تلك المناجاة لم يكن أقرب إلى الله مكاناً من موسى عليه السلام وهو فى طور سيناء، وإن كان أقرب إلى الله مكانة ومنزلة ورفعة..

٢ ـ جاء فى بعض الروايات: (فراجعت ربى فوضع شطرها، قال: فرجعت إلى موسى عليه السلام فأخبرته، قال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لاتطيق ذلك، قال: فراجعت ربى، فقال: هى خمس وهى خمسون، لايبدل القول لدىّ).

وفى رواية: (فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى حتى صارت إلى خمس صلوات).

ولعل الرواية التى فيها الحط خمساً هى الأصل، وباقى الروايات اختصرت وأوجزت المراجعات.

٣ ـ لعل اختصاص موسى عليه السلام بالمراجعة فى أمر الصلاة باعتباره صاحب الشريعة السابقة، فإن التوراة هى الأصل الذى توارد عليه أنبياء بنى إسرائيل، حتى إن الجن أنفسهم تفطّنوا لهذا المعنى وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ (١).

ومن جهة أخرى فإن موسى هو كليم الله وصاحب المناجاة فى الوادى المقدس طوى، وشأن أصحاب المقامات المتشابهة أن يتلاقوا (٢).

(١) سورة الأحقاف، الآية ٣٠ (٢) راجع كتابنا: «الرسول حول الكعبة»، فى المبحث الثانى.

سابعاً: تذييـل

يضـيف بعض العـلمـاء نـوعـاً آخـر للوحى يـسـمـونه النفـث فى الرُوع، ويستشهدون له بحـديث يقول فيه النبى ﷺ: (إن روح القدس نفث فى روعى، لن تموت نفس حـتى تسـتكمل رزقهـا، فاتـقوا الله وأجـملوا فى الطلب، ولا يحـملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ماعند الله لن ينال إلا بطاعته).

قال الصالحى: رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القناعة، والحاكم [١].

ونحن نرى أن إلقاء الملك فى قلب النبى لون من ألوان الوحى السابقة المتعلقة بجبريل، وعلى الأخص من باب صلصلة الجرس..

كذلك يضـيفون نوعاً من الكلام الإلهى من وراء حـجاب، وذلك برؤية الرب تبارك وتعالى مناماً، ويسوقون حديثاً تعددت طرقه، منها:

(احتبس عنا رسـول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حـتى كدنا نتراءى عين الشمس، فـخرج سريعـاً، فثوِّب بـالصلاة، فصلى رسـول الله ﷺ، وتجوَّز فى صلاته، فلما سلّم دعا بصوته

فقـال لنا: على مصـافّكم كمـا أنتم، ثم انفـتل إلينا فقـال: أما إنى سأحـدثكم ماحبسنى عنكم الغداة..

إنى قـمت من الليل فـتـوضـأت فـصليت مـا قُـدِّرَ لى، فنعـست فى صـلاتى فاستثقلت، فإذا أنا بربى تبارك وتعـالى فى أحسن صورة، فقال: يامحمد، قلت: رب لبيك، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟.

قلت: لا أدرى رب، قالها ثلاثاً.

قال: فرأيته وضع كفه بين كتفيّ، فوجدت برد أنامله بين ثديَيَّ، فتجلى لى كل شئ وعرفت..

فقال: يامحمد، قلت: لبيك رب.

قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟

قلت: فى الكفارات. قال: ماهنّ؟

---

(١)نقلا عن كتاب «سبل الهدى والرشاد»، ج٢، ص ٣٥٢.

قلت: مشى الأقدام إلى الجماعات، والجلوس فى المساجد بعد الصلاة، وإسباغ الوضوء فى المكروهات..

قال: ثم فيم؟. قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام.

قال: سل، قلت: اللهم إنى أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات وحب المساكين، وأن تغفر لى وترحمنى، وإذا أردت فتنة فى قوم فتوفنى غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك. قال رسول الله ﷺ: إنها حق فادرسوها ثم تعلموها).

ونحن أمام هذا الحديث نضع مجموعة ملاحظات:

أولا: علماء السنة مجمعون على أن رؤية الله تعالى يقظة لم تقع لأحد فى الدنيا قبل سيدنا محمد ﷺ، بل لم تقع لأحد مطلقاً كما هو رأى السيدة عائشة، فكيف نتصور وقوعها مناماً؟!.

فإذا أضفنا مافى هذه الروايات من رؤية الرب تبارك وتقدّس على أحسن صورة أو على صورة شاب، ووضع الكف وبرد الأنامل [1]. كان التوقف فى قبولها راجحاً.

ثانياً: إن الحديث يبدو أنه مقلوب المعنى، فهو يثبت أن الله تعالى هو السائل وأن الرسول هو المجيب، والشأن الصحيح أن يكون الرسول سائلا ربه عما يجرى فى الملأ الأعلى..

ومما يؤكد الاضطراب فى هذا الحديث أن الدعاء المذكور فى آخره ينسب مرة إلى الله تعالى تعليماً لرسوله، وينسب أخرى إلى الرسول تضرعاً إلى مولاه.. ففى رواية للترمذى عن ابن عباس: (وقال: يامحمد، إذا صليت فقل اللهم إنى أسألك فعل الخيرات.. إلخ).

وفى رواية لأحمد عن بعض أصحاب النبى ﷺ: (وقال: يامحمد، إذا صليت فقل اللهم إنى أسألك الطيبات... إلخ).

وفى رواية للترمذى عن معاذ بن جبل: (قال: سل، قلت: اللهم إنى أسألك فعل الخيرات.. إلخ).

---

(١) راجع الروايات فى: (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) للإمام الهيثمى، ج١، ص٢٣٧، وج ٧، ص ١٧٦، طبعة دار الكتاب العربى.

ويضاف إلى ذلك اضطراب آخر، وهو هل وقعت هذه الرؤية مناماً أم يقظة؟ وهل كانت فى صلاة أم لا؟!.

ففى رواية الترمذى عن ابن عباس قال: (أحسبه قال فى النوم).

وفى رواية الترمذى عن معاذ قال: (فنعست فى صلاتى فاستثقلت فإذا أنا بربى تبارك وتعالى فى أحسن صورة).

وفى رواية لأحمد: (فنعست فى صلاتى حتى استيقظت فإذا أنا بربى عز وجل فى أحسن صورة..).

وذهب بعض الشرَّاح إلى أن رواية (حتى استيقظت) تصحيف، وأن المحفوظ هو (حتى استثقلت) [١].

ثالثاً: بعض المفسرين ساق هذا الحديث تفسيراً للآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [٢].

والحديث والآية بينهما بون شاسع، فالآية تثبت الوحى للنبى ﷺ بإعلامه بالغيب الذى أوحاه الله تعالى فى شأن آدم واختصام الملائكة حول خلقه وأمر الله لهم بالسجود، ولنقرأ ماقبلها وما بعدها: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [٣].

والحديث يتعلق بالوضوء والصلاة والحسنات.. فما العلاقة بينهما؟!.

وقد تفطّن الإمام ابن كثير لذلك فقال: (وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور فى القرآن، فإن هذا (أى المذكور فى الحديث) قد فسِّرَ، وأما الاختصام الذى فى القرآن فقد فسِّرَ بعد هذا، وهو قوله تعالى: (إذ قال ربك للملائكة) [٤].

---

(١) راجع : (تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى) ـ تحقيق الدكتور عبدالوهاب عبداللطيف، ج٩، ص١٠٢.

(٢) سورة ص، الآية ٦٩

(٣) سورة ص، الآيات ٦٧ ـ ٧٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٣. وراجع موضوع الرؤية فى كتابنا «الإلهيات فى العقيدة الإسلامية» طـ دار الاعتصام.

الفصل الثاني

شبهات حول الوحي المحمدي

- تمهيد.
- الشبهة الأولى: البشرية.
- الشبهة الثانية: السحر.
- الشبهة الثالثة: الجنون.
- الشبهة الرابعة: الصرع.

تمهيد

قد نجد إنساناً يؤمن بموسى أو عيسى عليهما السلام وينكر نبوَّة محمد ﷺ.

وقد نصادف إنساناً يؤمن بالله تعالى وينكر الرسالات جميعاً.

وقد نلتقي بإنسان ملحد لايؤمن بالله ولا باليوم الآخر.

ولا أظن أن المنكرين للوحى المحمدى يخرجون عن هذه الأصناف الثلاثة، وموقفنا مع هؤلاء يكون على النحو التالى:

أما الأول فلا يستطيع أن يتنكر لحالات الوحى المختلفة، لأن طبيعة الوحى ـ فى جوهرها ـ واحدة لا تتباين من نبى لآخر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (١).

وأما الثانى فهو واقع فى تناقض غريب، حيث آمن بالله وكفر برسله، وكان عليه أن يتفحص الدلائل، ويتحقق من المعجزات، ويتعرَّف على حاجة البشر للرسالات، ويدرك قصور العقل البشرى..

وأما الثالث فالخلاف معه ليس فى إنكار النبوَّة فحسب وإنما فى إنكار الخالق المدبر الحكيم، فالإيمان بالله مقدمة ضرورية لإثبات النبوَّات، ولايتصور إيمان بالنبوة دون إيمان بمصدر الوحى فيها..

والجدل مع هذا النوع يكون بلفت النظر إلى آيات الأنفس والآفاق، وحكمة الوجود، ودقة نظام الكون، وإبداع الصنع فى الكائنات..

وعندما يصل إلى عتبة الإيمان بالله يستطيع أن يتفهم شخصية الأنبياء والضرورة القصوى لبعثتهم..

---

(١) سورة النساء، الآية ١٦٣

وهنا يمكن أن يلتقى مع النوعين السابقين، ويراجعوا ـ جميعاً ـ ملامح الشخصية المحمدية، والعمق التاريخى، وبشائر الأنبياء، والضرورة الإنسانية لرسالة الإسلام، والمعجزة الكبرى لهذا النبى الخاتم...

وبذلك يصلون إلى حقيقة الحقائق وكبرى اليقينيات، وهى:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

هذا وقد أُثيرت شبهات حول الوحى المحمدى، وهى ـ فى حقيقتها ـ ترديد لشبهات تقوَّلها أعداء الرسل فى كل زمان ومكان..

وسنشير إلى بعض هذه الشبهات وندحض باطلها...

وليكن معلوماً أن الدفاع عن الوحى المحمدى هو دفاع عن شرف الأنبياء جميعاً، وأن إثبات النبوَّة لسيدنا محمد ﷺ والإيمان برسالته إنما هو إثبات لنبوة الأنبياء، وإيمان بهم جميعاً..

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (١).

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٢).

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٥

(٢) سورة آل عمران، الآية ٨٤.

الشبهة الأولى : البشرية

تساءل مشركو مكة وتعجبوا كيف يكون النبى بشراً، له خصائص البشرية فى المأكل والمشرب وكافة شئون المعاش؟!.

وحكى القرآن المجيد مقالتهم هذه فقال:

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (١).

﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ (٢).

وتلك الشبهة الجاهلية سرت على لسان جميع الأمم.

قالوها لنوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا﴾ (٣).

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ (٤).

فقوم نوح عليه السلام استبعدوا أن تكون النبوة فى البشر، وظنوا أن المسألة شهوة تسلط، ثم أمعنوا فى التضليل، فزعموا أن هذا حدث لم يسبق...

وقالها قوم موسى وهارون عليهما السلام.

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (٥).

وقالها أصحاب القرية لرسلهم:

﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ (٦).

وحكى القرآن هذا المعنى على وجه العموم فقال:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٣

(٢) سورة الفرقان، الآية ٧

(٢) سورة هود، الآية ٢٧

(٤) سورة المؤمنون، الآية ٢٤

(٣) سورة المؤمنون، الآية ٤٧

(٦) سورة يس، الآية ١٥

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ (١).

وكان منهج القرآن المجيد فى معالجة هذه الشبهة على النحو التالى:

أولا: إن محمداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وكافة الأنبياء بشر، يجوز عليهم مايجوز على البشر مما لا يقدح فى مراتبهم العالية..

فالأنبياء يأكلون ويشربون:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ (٢).

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (٣).

والأنبياء يتزوجون ويتناسلون:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (٤).

ثانياً: إن النبوة اصطفاء من الله لمن يشاء من عباده، والتمايز بين الأنبياء والبشر إنما هو فى الوحى وتلقى الشرائع.. وتلك قضية لا اختيار للنبى فيها، وليست من تلقاء نفسه..

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (٦).

ثالثاً: إن المَلَك لايصلح أن يكون رسولا للبشر، لبعد الفجوة بين الملك والبشر فلا يكون المثل الأعلى قريباً للمحاكاة، ثم إن الإنسان ليس لديه القدرة على رؤية

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٩٤
(٢) سورة الفرقان، الآية ٢٠
(٣) سورة الأنبياء، الآية ٨
(٤) سورة الرعد، الآية ٣٨.
(٥) سورة إبراهيم، الآية ١١
(٦) سورة الكهف، الآية ١١٠.

الملك فى صورته الحقيقية، فيحتاج الأمر إلى أن يتشكل الملك فى صورة آدمى، وهنا يشتبه الأمر ويعود التساؤل: هل هو ملك أو بشر؟!.

وقد جرت سنة الله فى خلقه أنه عند تلبية مطالب المعاندين ثم عدم استجابتهم للإيمان يستأصلهم الله تعالى بعذاب من عنده.

فكان من اللطف بالبشر أن أنبياءهم من جنسهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (١).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (٢).

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ (٣).

***

الشبهة الثانية: السحر

سلك مشركو مكة مسالك شتى للنيل من الوحى المحمدى والإعجاز القرآنى، وضاق بهم التفكير، واستبد بهم القلق، وسيطر عليهم الفزع الأكبر، فأطلقوا ألسنتهم بالسوء وزعموا مزاعم باطلة، فنسبوا الرسول ﷺ إلى السحر، واعتبروا المعجزة القرآنية ضرباً من السحر.. وحكى القرآن مقالتهم فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٤).

وروت كتب السيرة: أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً مطاعاً فى قريش ـ قال يوماً وهو جالس فى نادى قريش: (يامعشر قريش، ألا أقوم لمحمد وأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا؟!.

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان ٨ و٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٤.

(٣) سورة الحجر، الآيتان ٧ و ٩.

(٤) سورة سبأ، الآية ٤٣.

قالوا: يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السطة[1] فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، مزقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم..

وفى رواية أنه قال أيضاً:

أنت خير أم عبد الله؟!. أنت خير أم عبد المطلب؟!.

إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فقل يسمع لقولك، لقد فضحتنا فى العرب حتى طار فيهم أن فى قريش ساحراً، وأن فى قريش كاهناً، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى..!!

فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع..

فقال: يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا.

وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لانقطع أمراً دونك.

وإن كنت تريد مُلكاً ملكناك علينا.

وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً من الجن تراه لاتستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى..

حتى إذا فرغ عتبة قال الرسول ﷺ:

---

(١) أى من الوسط، أى الخيار حسباً ونسباً

لقد فرغت يا أبا الوليد؟! قال: نعم.

قال: فاسمع منى، فقرأ رسول الله ﷺ.

﴿حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ..﴾[1].

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها فقرأها عليه، وقد أنصت عتبة لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها، يسمع منه، ثم انتهى الرسول ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[2].

فأمسك عتبة على فيه ﷺ وناشده الرحم أن يكف عن ذلك ثم انتهى إلى السجدة فيها فسجد ثم قال:

قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك..!!

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض:

لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به..!!

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟!!.

قال: ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولابالسحر ولابالكهانة..

يا معشر قريش أطيعونى، فاجعلوها لى، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به..

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه..!!

---

(١) سورة فصلت، الآيات ١ ـ ٤ (٢) سورة فصلت، الآية ١٣

قال: هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدالكم..»[1].

وهذا الفكر الجاهلى هو فكر كل مجتمع ضال منحرف يصم آذانه عن دعوة الحق، ويغمض عينه دون نور الهداية..

لقد ألصقت تهمة السحر بكل نبى جاهد فى الله حق جهاده.

قالها فرعون لموسى عليه السلام:

«فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا»[2].

وظن سحرة فرعون أن موسى ينافسهم اختصاصهم ويزاحمهم عملهم: «قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ»[3].

ويشاء الله أن يشرق نور الإيمان فى قلب هؤلاء السحرة ويدركوا الفرق بين فعل الخالق وفعل الخلق، ويميزوا بين الحقيقة والخيال..

«فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ»[4].

ووصلت التهمة إلى صالح وشعيب عليهما السلام:

«قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ»[5].

والمسحر صيغة مبالغة من المسحور، أى أثر فيه السحر حتى غلب على عقله ووعيه فلا يكاد يفكر.

وسواء كانت التهمة أن النبى ساحر أو مسحور أو مسحر، فإن لها صلة بالكهانة والكهان، فيجمعها الاتصال بالجن أو تسخيره أو التأثر به.

---

(١) السيرة الحلبية، جـ١، صـ٤٨٦

(٢) سورة الإسراء، الآية ١٠١

(٣) سورة طه، الآيتان ٦٣ و ٦٤

(٤) سورة طه، الآية ٧٠

(٥) سورة الشعراء، الآيتان ١٥٣ ، ١٨٥

ويمكن أن نتمثل منهج القرآن المجيد فى رد هذه الشبهة على النحو التالى:

أولاً: إن مرددى هذه الشبهة لايعنيهم الحق فى ذاته، وأمرهم قائم على العناد والمكابرة، ولو شاءوا لأنكروا الشمس فى رابعة النهار..

قال الله تعالى: «وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ»(١).

لقد بلغ من سفاهة القوم أن لو اجتمع لديهم الإدراك بالبصر واللمس باليد لظلوا على عنادهم وادعائهم أن هذا الكتاب سحر..

وقال جل شأنه: «وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ»(٢).

وهذا مثل آخر لمدى مكابرتهم فى الحق وجدالهم بالباطل، فلو صعدوا إلى السماء واخترقوا الحجب وعاينوا الملأ الأعلى.. ما زادهم ذلك إلا استكباراً.

ثانياً: إن العقل الإنسانى الراشد هو فيصل التفرقة بين الحق والباطل، وهو آلة النظر والفكر، وقانون الاعتبار.. فهلا تأملوا فى حياة الرسول قبل البعثة وبعدها؟!.

أليس هو الصادق الأمين؟!.

وهلا تأملوا فيما صاحب النبوة من آيات؟!.

أليسوا عاجزين عن الإتيان بمثلها؟!.

يقول سبحانه: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٧

(٢) الحجر، الآيتان ١٤ و ١٥

جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»[1].

فرفض هؤلاء لـلإيمان لايستند إلى نقل شـرعى سابق، ولاتفكيـر راشد.. فلم يسبق لأهل مكة تعامل مع الأنبياء ولامعرفة بأحوالهم، واغـترارهم بما منحه الله لهم من قـوة أو مال لايغنى من الحـق شيـئاً، وسبقـتـهم أمم أكثـر أموالا وأولاداً كـذبوا فحاقت بهم اللعنة..

ثم دعتهم الآيات إلى أمر فيه نصـفة، وهو أن يفردوا الوجهة لله، ويخلصوا فى طلب الحق، ويتأملوا دعـوة هذا الرسول وسلوكه وتصـرفاته وكافـة ما يتعلق بشـئون حيـاته؛ تأملا فيه روية، فلن يجـدوا مطعناً فى خلق، ولاانحرافاً فى سلوك، ولاطمـعاً فى رئاسة، ولاحباً فى ظهور، وما مسه جنّ ولالحق به جنون..

وإلى هذا المعنى تشيـر آية أخرى: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ»[2].

ثالثـاً: إن هناك فروقـاً أساسـية واضحـة بين النبـوّة والسحـر، فى مصدرهـما والموصوف بهما والأثر الناتج عنهما..

فمـصدر النبوّة هو الله تعـالى الذى يصطفى من يشاء من عـباده، والله هو أهل التقوى وأهل المغفرة، وهو سبـحانه نور السموات والأرض، وهو جل شأنه الرحمن الرحيم.. ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾[3].

أما مصدر السحر فهو شيـاطين الجن، المتمردون على الطاعة، المتربصون بالإنسان، وشعارهم قول إبليس الأول: «لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ»[4].

---

(١) سورة سبأ، الآيات ٤٣ ـ ٤٦

(٢) سورة المؤمنون، الآيات٨٦ ـ ٧٠

(٣) سورة الزخرف الآية ٨٤.

(٤) سورة الأعراف، الآيتان ١٦و ١٧

وصاحب النبوة هو الإنسان الكامل والنموذج الرفيع للبشرية، وسيرته أنقى سيرة يعرفها التاريخ..

أما الساحر فهو الأفاك الأثيم، همته دنيئة، وسلوكه منحرف، وغايته سلب أموال الناس وهتك أعراضهم..

وأثر النبوة هو صلاح المجتمع وكرامة الإنسان فى الدنيا وسعادته فى الآخرة، وأثر السحر هو تفريق الشمل وتمزيق الوحدة والإفساد فى الأرض..

وقد أكد القرآن هذه المعانى فى أكثر من آية، فقال فى مصدر السحر: «وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ»(١).

وقال فى صاحب السحر: «هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ»(٢).

وقال فى أثر السحر: «وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ»(٣).

وقد طهر الله ساحة النبي عن التعلق بحطام الدنيا، وأكد استقامة الهدف ونقاءه فقال: «أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»(٤).

وفى آية أخرى: «قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ»(٥).

وقد وضح هذا المعنى وتأكد لدى كافة الأنبياء، فقال نوح عليه السلام: «وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ»(٦).

وقال هود عليه السلام: «يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ»(٧).

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢١٠ ـ ٢١٢

(٢) سورةالشعراء، الآيات ٢٢١ ـ ٢٢٣

(٣) سورة البقرة، الآية ١٠٢

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان ٧٢ و ٧٣

(٥) سورة الشورى، الآية ٢٣

(٦) سورة هود، الآية ٢٩

(٧) سورة هود، الآية ٥١

فما أبعد النبوة عن السحر..!! وما أرفع مكانة الأنبياء..!!

رابعاً: حرص القرآن المجيد كثيراً على تأكيد منع استراق السمع، وحفظ السماء من مردة الجن وحجبهم عنها والحيلولة بينهم وبين تلقف الأخبار من الملأ الأعلى، واعتبر ذلك إرهاصاً بالنبوة الخاتمة..

قال تعالى: «وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ»(١).

وقال جل شأنه: «وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ»(٢).

وقد حكى القرآن فى سورة الجن تلك الوقائع، ما ضيها وحاضرها، وذكر ما اعترى الجن من تساؤلات حين انقلب الأمر عليهم، فقال: «وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا»(٣).

هذا.. ولعل قائلا يزعم: أليس هذه التأكيدات تتنافى مع ما ثبت من أن النبى ﷺ سحره لبيد بن الأعصم، فيكون النبى مسحوراً؟!

ونقول: إن حديث السحر هذا ذكرته كتب الصحاح، ونصه ـ كما فى البخارى (كتاب الطب) ـ عن عائشة ﵂ قالت: سحر رسولَ الله ﷺ رجلٌ من بنى زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم(٤)، حتى كان رسول الله ﷺ يمثل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم ـ أو ذات ليلة ـ وهو عندى ـ لكنه دعا ودعا..

---

(١) سورة الحجر، الآيتان ١٧ و ١٨

(٢) سورة الصافات، الآيات٧ ـ ١٠

(٣)سورة الجن، الآيات:٨ ـ ١٠

(٤) من اليهود المنافقين.

ثم قال: يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، أتانى رجلان[1] فقعد أحدهما عند رأسى، والآخر عند رجلىّ، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب[2].

قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم.

قال: فى أى شىء؟ قال: فى مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر[3].

قال: وأين هو؟ قال: فى بئر ذروان[4].

فأتاها رسول الله ﷺ فى ناس من أصحابه.

فجاء فقال: يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء أو كأن رءوس نخلها كأنه رءوس الشياطين[5].

قلت: يا رسول الله، أفلا استخرجته؟ قال: قد عافانى الله فكرهت أن أثور على الناس فيه شراً[6]، فأمرت بها فدفنت»[7].

وفهمنا لهذا الحديث على النحو التالى:

١ ـ إن واقعة هذا السحر كانت فى العام السابع للهجرة، أى بعد البعثة بعشرين سنة، وادعاء المشركين أنه ﷺ مسحور كان فى العهد الملكّىّ..

---

(١) فى بعض الروايات أنهما ملكان هما جبريل وميكائيل.

(٢) أى مسحور، يقال: طُب الرجل إذا سُحر، كنوا عن السحر بالطب تفاؤلا كما قالوا للديغ سليم.

(٣) المشط ـ بضم فسكون ـ الآلة المعروفة التى يسرح بها الشعر، والمشاطة ـ بضم الميم وتخفيف الشين ـ ما يخرج من الشعر عند التسريح، وجف ـ بضم أو له وتشديد ثانيه ـ وعاء طلع النخل، وهو الغشاء الذى يكون عليه، ويطلق على الذكر والأنثى، ولذلك وصفه بقوله: «ذكر»، والطلع ما يطلع من النخل وهو الكمء قبل أن ينشق، وهو شىء أبيض تشبه رائحته المنى.

(٤) موضع خارج المدينة.

(٥) تشبيهات لرداءة الماء وقبح المنظر.

(٦) لم يرغب الرسول فى استخراج السحر فينتشر الموضوع وتقع فتن بين اليهود والمسلمين.

(٧) أمر بالبئر فطمست معالمها وسواها بالأرض.

٢ ـ إن السحر المقطوع بعصمة النبى ﷺ منه هو ما يتعلق بالتبليغ عن الله تعالى، وهو الذى نفاه القرآن فى مثل قوله: «وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا»(١).

وتأثير السحر فى بدن النبى ﷺ فيما وراء ذلك يعد من باب الأمراض الخفيفة التى لاتقدح فى النبوّة.

٣ ـ إن الشىء الذى كان يظن ﷺ أنه يفعله، وما فعله، فسرته رواية أخرى صحيحة خرّجها البخارى عقب ذكر الرواية السابقة، وهو (كان يرى أنه يأتى النساء ولايأتيهن).

فإذن تعلق السحر بهذا الجانب فقط، ولم يكن له تأثير على قواه العقلية.

٤ ـ نصت الرواية على أنه ﷺ (دعا ودعا)، والمعنى أنه توجه إلى الله جل شأنه بالدعاء الضارع، وألح فى الدعاء كعادته ﷺ فى تكرير مسألته من ربه واستغفاره لخالقه.. الأمر الذى يؤكد سلامة الوعى، وصدق التوجه واستقامة التفكير.

•••

الشبهة الثالثة : الجنون

أطلق المشركون ألسنتهم وأيديهم بالسوء على رسول الله ﷺ، واختلقوا الأكاذيب فقالوا: إن محمداً مجنون..!!

لماذا؟!.

لأنه جعل الآلهة إلهاً واحداً، ولأنه أمرهم بالنظر والفكر!!

وبلغ من سفاهة القوم أن قالوا لأبى طالب: (يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى فى قريش وأجمله، فخذه، فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامنا، فنقتله، فإنما هو رجل برجل..!!

(١) سورة الفرقان، الآيتان ٨ و٩

قال أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني..!! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه..!! هذا والله مالا يكون أبداً)[1].

وقد عرض القرآن مقالة هؤلاء السفهاء وناقشهم، وبين لهم طرائق الوصول إلى الحق، وكشف عن دخائل نفوسهم الخبيثة.

ولو تتبعنا حديث القرآن عن هذا الجانب فسنجده على النحو التالي:

أولا: قال تعالى: «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ»[2].

والذكر هو القرآن، وسمى به لشرف القرآن وعلو قدره، ولما فيه من الموعظة وخبر القرون السوالف..

وعندما قال المشركون: «يا أيها الذى نزل عليه الذكر» قصدوا الاستهزاء والتهكم..

فكان الرد المناسب لافترائهم هو: «﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3]، فما اتخذتموه سخرياً؛ كتاب عظيم القدر فيه شرفكم، وعز من آمن به، وهو تنزيل الملك العلام، وسيظل محفوظا بعناية الله، يؤلف القلوب حوله، ويلهم الصدور حفظه، ويجعل العقول تهتم بشأنه، وتتوارثه الأجيال تواتراً متصلا..

ثانياً: بين القرآن استكبارهم وافتراءهم فقال: «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ»[4].

فالقضية عند هؤلاء ليست بحثاً عن الحق، وليست معرفة بالقيم، وليست التزاماً بالصدق، وإنما هى التقاليد البالية والأعراف الفاسدة، والتعلق بمظاهر الحياة الخادعة.

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير، جـ٣، صـ٤٨

(٢) سورة الحجر، الآية ٦

(٣) سورة الحجر، الآية ٩

(٤) سورة الصافات، الآيتان ٣٥ و ٣٦

وقد أوقعهم هذا فى التخبط، فحين يريدون اتهام الرسول بالجنون حيث لافكر ولاوعى ولااختيار ـ يجمعون عليه وصف الشعر حيث الخيال الجامح، والتعبير الساحر، واختيار اللفظ البديع، والإيقاع المؤثر.

وكان الرد القرآنى هنا هو: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1].

والحق هو الثابت، وهو المطابق للواقع، والمجنون لايعرف الحق، والشاعر لايلتزم بالواقع..

والدعوة إلى الحق هى رسالة كل نبى، وقد التقى هتاف محمد ﷺ بهتاف إخوانه المرسلين، وتطابقا فى المبدأ والمعاد وأصول العبادات ومكارم الأخلاق..

فليس فى الأمر اختلاق ولاوهم..

ثالثاً: كشف القرآن عن تخلف القوم العقلى مع وضوح الدلائل وقوة البراهين فقال: «أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ»[2].

فدلائل النبوة واضحة، وكل من تأمل حياة محمد قبل الرسالة وبعدها عرف أنه الصادق الأمين، أيده الله بالمعجزة التى تتحداهم صباح مساء أن يأتوا بمثلها..

ومع ذلك يختفى جانب العقل ويلغى التفكير السليم، وتلقى التهم بعشوائية وتخبط، فيقال: إن محمداً تلميذ فاشل مخبول العقل..!!

فمتى كان محمد ـ ﷺ ـ تلميذاً؟!.

ومتى جلس إلى معلم؟! ومتى اعتراه الجنون؟!

رابعاً: حرص القرآن فى موضعين على تأكيد أن الاصطفاء الإلهى للوحى نعمة على محمد ﷺ، وأن الله خير الشاهدين على خلقه وسلوكه..

فقال فى سورة الطور:

«فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ»[3].. الآيات.

---

(1) سورة الصفات، الآية ٣٧

(2) سورة الدخان، الآيتان ١٣ و ١٤

(3) سورة الطور، الآية ٢٩ ومابعدها

وقال في سورة القلم: «مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ»(١).

وأعقب ذلك فى السورة الأولى التحدى بالقرآن فقال: « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ»(٢).

وتلا ذلك فى السورة الثانية تحد من نوع آخر، يمكن أن نسميه التحدى بالخلق والسلوك المحمدى، فقال: «فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ»(٣).

أى فستعلم يا محمد ويعلم الناس كافة من المجنون؟ ومن الضال عن الحق؟!.

خامساً: انطلق القرآن فى حديثه عن هذا الجانب انطلاقاً يصعق قلوب المشركين ويزيدهم حيرة وقلقاً واضطراباً..

إن الرسالة المحمدية ليست موجهة لكم فقط ولاخاصة بزمانكم أو عالمكم، إنها رسالة للعالمين..!!

وإن الرسول الذى يحرص على هدايتكم ويقدم لكم سبيل شرفكم ومجدكم، مؤهل لقيادة العالمين، ويولى وجهه إلى الثقلين فى دعوة مخلصة للتى هى أقوم..

وقد عبر القرآن عن هذا المعنى في موضعين: فقال في سورة القلم: «وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ»(٤).

وهكذا فجعت سورة القلم المشركين فى عقيدتهم وعقولهم بأن هناك عالماً أرحب هو مجال هذه الدعوة، وفجأتهم بهذا الأمر العظيم..

وقال في سورة التكوير: «وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ»(٥).

---

(١) سورة القلم الآيات ٢ـ٥
(٢) سورة الطور الآية ٣٤
(٣) سورة القلم الآيتان ٥، ٦
(٤) سورة القلم الآيتان ٥١، ٥٢
(٥) سورة التكوير الآيات ٢٢ ـ ٢٧

إن طرائق تفكير المشركين قد ضلت، وضاقت عليهم أنفسهم، فلا يدرون ماذا يقولون؟!.

إن محمداً ﷺ قد وضحت لديه الدلائل، ويتحمل الرسالة فى أمانة وصدق وثبات، محروساً بعناية الله، حتى تصل دعوته إلى الآفاق، ويبلغها للعالمين..

سادساً: خلال حديث القرآن فى تعقب هؤلاء المشركين والرد عليهم فى زعم الجنون لصاحب الرسالة العصماء؛ اتجه فى أكثر من موضع إلى تسلية الرسول وتثبيت فؤاده، فلفت نظره إلى أن تلك سنة جارية مع رسل الله يتحملون البأساء والضراء، ويصبرون حتى يحكم الله بينهم وبين أقوامهم..

اتهم بالجنون موسى عليه السلام وهو يبسط آيات الأنفس والآفاق أمام فرعون مصر ويرشده إلى الحق فى العقيدة قال تعالى فى سورة الشعراء:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾[1].

ادّعى فرعون الإلهية لنفسه وأرغم شعبه على العبودية له، فلما فاجأه موسى عليه السلام بأن هناك إلهاً آخر هو رب العالمين، دار حوار حول آيات الأنفس والآفاق.

بدأ موسى عليه السلام بالإشارة على وجه العموم إلى مستقر الآيات فى العالم العلوى والعالم السفلى، ولم يفطن فرعون لتلك الإشارة اللطيفة، وتهكم

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢٣ ـ ٣٤

بموسى عليه السلام؛ فواجهه موسى بالحقيقة الناطقة فى نفسه، ونبهه إلى ظاهرتى الحدوث والفناء فى نفسه ونسبه، فاستشاط غضباً ورمى موسى بالجنون..

عاد موسى عليه السلام وواجهه بظاهرة متكررة متعاقبة هى شروق الشمس وغروبها، وليبدل فرعون هذا النظام إن استطاع..

حينئذ لم يجد فرعون بُداً من قطع الحوار، فعمد إلى أسلوب القهر والقوة، وهدد موسى بالسجن..!!

هنا بدأ موسى عليه السلام يظهر معجزة النبوّة بعد أن لزمتهم حجة الربوبية والإلهية، فاختل تفكير فرعون وناقض نفسه، واتهم موسى بالسحر والبراعة فيه..!!

فكيف تستقيم تهمة السحر مع سابقتها تهمة الجنون؟!.

وهل المجنون يكون ساحراً عليماً؟!.

وهذا الحوار الطويل وما تبعه من أحداث اختصره القرآن فى سورة الذاريات فى ثلاث آيات جمعت مواقف ثلاثة:

- موقف موسى ودلائل نبوّته.

- موقف فرعون وجبروته.

- موقف العدل الإلهى فى ملاحقة المفسدين.

قال تعالى: «وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ»(١).

وقبيل انتهاء هذه السورة ساقت الآيات عبرة التاريخ وتشابه المكذبين وتقارب أفكارهم، فقالت: «كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ

(١) سورة الذاريات، الآيات ٣٨ - ٤٠

مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ»[1].

وفي سورة القمر ذكرت نفس التهمة لشيخ الأنبياء نوح عليه السلام فقالت: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ»[2].

وهكذا تعقب القرآن المجيد شوارد فكر هؤلاء المشركين، وبين تهافتهم وسوء منقلبهم ليظل ذلك آية بينة على صدق محمد ﷺ وتصديق الله تعالى له..

الشبهة الرابعة: الصرع

تعقب بعض المغرضين ما يعترى الرسول ﷺ عند تلقى الوحى، ووصل إلى نتيجة خاطئة مقطوعة الصلة بحياة الرسول الكريم..

أما الحالات التى تعترى الرسول فهى كما وضَّحته مثل هذه الأحاديث: ففى صحيح البخارى بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ولقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً).

وفى حديث الإفك قالت عائشة: (فوالله مارام رسول الله ﷺ مجلسه ولاخرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء[3] عند الوحى، حتى إنه ليتحدَّر منه مثل الجمان[4] من العرق وهو فى يوم شاتٍ من ثقل القول الذى أُنزل عليه).

وفى صحيح مسلم بسنده عن عبادة بن الصامت قال: (كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى كربه ذلك، وتربَّد وجهه، ـ وفى رواية وغمض عينيه ـ وكنا نعرف ذلك منه).

(١) سورة الذاريات، الآيتان ٥٢ و ٥٣

(٢) سورة القمر، الآية ٩، ومعنى «وازدجر» : زجروه وانتهروه وتوعدوه بالرجم.

(٣) البرحاء: شدة الحمى وقيل : شدة الحر، وقيل : شدة الكرب.

(٤) الجمان : اللؤلؤ، شبهت به قطرات عرقه لتشابههما فى الصفاء والحسن.

وفى الصحيح أيضاً عن يعلى بن أمية قال: (قال لى عمر: أيسرك أن تنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يوحى إليه؟!. فرفع طرف الثوب من وجهه وهو يوحى إليه بالجعرانة فإذا هو محمرّ الوجه، وهو يغطّ كما يغطّ البكر)[1].

فهذه الحالات من التفصد عرقاً وتغميض العينين واحمرار الوجه.. إلخ.. جعلت البعض يزعم أنها أعراض مرض الصرع، وما محمد ﷺ فى زعمهم إلا مصروع تعتريه حالات فقدان للوعى والإدراك.

وما أكذب هؤلاء!! وما أشد افتراءهم على رسول الله!!

إن الصرع حالة مرضية لايعى صاحبها ما يحدث له ولاما يحدث منه، ويفقد الذاكرة تماماً، وتصدر حركات عصبية لايدرى عنها شيئاً.. فإذا أفاق فكأنما ولد من جديد..

فأى شيء من ذلك وقع لرسول الله ﷺ؟!!

إن الرسول عقب الوحى يبلّغ ما أُنزل إليه، أحكاماً وتشريعاً، وقصصاً وتاريخاً، وأحداثاً فى غابر الزمن، ووقائع فى سالف الأيام ومستقبلها.. فى إطار من النظم الدقيق المعجز لكافة الإنس والجن.

فهل هذا فعل مصروع؟!.

وكان من شدة حرص الرسول على الوحى وتمام إدراكه للتنزيل يسارع بتلاوة ما يوحى إليه قبل أن يفرغ الملك من إلقاء النجم القرآنى، فنهى ﷺ عن ذلك ونزل قوله تعالى: «لا تُحَرِّكْ به لسَانَكَ لتَعْجَلَ به (١٦) إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ»[2].

---

(١) البكر : ولد الناقة.

(٢) سورة القيامة، الآيات ١٦ ـ ١٩

وحول هذه الآيات يقول الإمام ابن كثير:

(هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ فى كيفية تلقيه الوحى من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك فى قراءته فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحى أن يستمع له، وتكفَّل الله له أن يجمعه فى صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه، وأن يبينه له ويوضحه.

فالحالة الأولى: جمعه فى صدره.

والثانية: تلاوته.

والثالثة: تفسيره وإيضاح معناه.

ولهذا قال تعالى: «**لاتحرك به لسانك لتعجل به**» أى بالقرآن، كما قال تعالى: «وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا»[١].

ثم قال تعالى: «إن علينا جمعه» أى فى صدرك «وقرآنه» أى أن تقرأه «فإذا قرأناه» أى إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى «فاتبع قرآنه» أى فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك «ثم إن علينا بيانه» أى بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا)[٢].

ومما يدل على أن الإحساس لم يكن يغيب بالكلية عما حوله ومن حوله ـ ما جاء فى الصحيحين من حديث عائشة ﵂ قالت: (خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لاتخفى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب، فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظرى كيف تخرجين، قالت: فانكفأتْ راجعة ورسول الله ﷺ فى بيتى، وإنه ليتعشى، وفى يده عرق[٣]، فدخَلَتْ فقالت: يارسول الله، إنى خرجت لبعض حاجتى فقال لى عمر كذا وكذا؛ قالت: فأوحى الله إليه ثم رفع عنه، وإن العرق فى يده ما وضعه، فقال: إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن).

---

(١) سورة طه، الآية ١١٤ (٢) تفسير القرآن العظيم جـ٤، صـ٤٤٩

(٣) العرق ـ بفتح فسكون ـ عظم عليه لحم.

وإذا كان الواحد منا عندما يهمه شيء ويحرص عليه يشغل باله وفكره حتى لايكاد يحس بمن حوله، فينادى عليه أقرب الناس منه مكاناً فلا يسمع له نداء..

فما بالك بالاتصال بالملأ الأعلى، والاستغراق فى لقاء الملك الروحانى، والتلقى عن الله تعالى؟!

ثم إن الناس فى كل زمان ومكان يرون المصروع ويعرفون الصرع، فهل من المعقول أن يُخدع الصحابة جميعاً فى رسول الله ﷺ ويصعب عليهم التفريق بين حال الوحى وحال الصرع؟!

إن فاقد الشيء لايعطيه، والمصروع لايشفى مصروعاً، ولقد كان الصرعى يأتون إلى رسول الله ﷺ طلباً للشفاء.. ففى صحيح البخارى عن عطاء بن رباح قال:

(قال لى ابن عباس: ألا أُريك امرأة من أهل الجنة؟!.

قلت: بلى.

قال: هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ فقالت: إنى أصرع وإنى أتكشف فادع الله لى.

قال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك.

فقالت: أصبر.

فقالت: إنى أتكشف فادع الله أن لاأتكشف، فدعا لها).

فإذا كان الصرعى يأتون رسول الله طلباً للشفاء، فهل يكون الصرع خفيًا على الناس يومئذ حتى يختلط بالوحى؟!.

ألا ساء ما يحكمون..!!

الباب الرابع

خصائص النبوة المحمدية

- عموم الرسالة.
- ختم النبوة.

الفصل الأول

عموم الرسالة المحمدية

●ـ طوائف المكلفين.

ـ أهل الكتاب.

ـ العرب والعجم.

ـ الإنس والجن.

ـ العالمون.

●ـ دعوة نوح عليه السلام.

عموم الرسالة المحمدية

(أ) طوائف المكلفين:

المدخل الصحيح لفهم عموم الرسالة هو صدق النبوة لمحمد ﷺ بدلائلها فى المعجزة العقلية والمعجزات الحسية وبشائر الأنبياء والخلق العظيم.

وحيث إن اليقين بصدق الرسالة يستلزم صدق ما يصدر عن صاحب الرسالة فى نطاق التبليغ عن الله عز وجل ـ فإن آيات القرآن وأحاديث الرسول قاطعة فى عموم الرسالة المحمدية زمانا ومكانا، فلا تقف عند زمن معين، ولا يحدها مكان خاص، ولايخاطب بها جنس دون آخر..

ويتبلور عموم الرسالة فى ضرورة الإيمان بها والعمل بمقتضاها من هؤلاء جميعا:

١ ـ أهل الكتاب. ٢ ـ العرب والعجم.

٣ ـ الإنس والجن. ٤ ـ العالمين.

١ ـ أهل الكتاب:

سورة المائدة من السور القرآنية التى تعقبت اليهود والنصارى، وكشفت فساد عقائدهم وما يكتمونه من الوحى المنزل الذى حرفوه وبدلوه.

ولنقرأ قوله تعالى « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »(١).

وتمضى الآيات فى هذه السورة الكريمة مطالبة أهل الكتاب بضرورة الإيمان بالرسالة الخاتمة التى بعث بها محمد ﷺ:

(١) سورة المائدة آية ١٧

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»(١).

ثم تسوق السورة مثالا لتحريف الكتمان لدى اليهود، فقد جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله: ما تجدون في التوراة فى شأن الرجم؟

فقالوا: نفضحهم ويجلدون.

قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة.. فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك.

فرفع يده فإذا آية الرجم.

فقالوا: صدق يامحمد، فيها آية الرجم.

فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما.

ونزلت الآيات تدمغهم بهذا التحريف فقال جل شأنه:

«وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ»(٢).

ويعلق الإمام الرازى قائلا (٣):

«هذا تعجيب من الله تعالى لنبيه ﷺ بتحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما فى التوراة من حد الزانى ثم تركهم قبول ذلك الحكم.

فعدلوا عما يعتقدونه حكما حقا إلى ما يعتقدونه باطلا، طلبا للرخصة، جرم ظهر جهلهم وعنادهم فى هذه الواقعة من وجوه:

---

(١) سورة المائدة آية ١٩

(٢) سورة المائدة آية ٤٣ (٣) التفسير الكبير جـ ١١ ص٢٤٢

أحدها: عدولهم عن حكم كتابهم.

والثاني: رجوعهم إلى حكم من كانوا يعتقدون فيه أنه مبطل.

والثالث: إعراضهم عن حكمه بعد أن حكموه.

فبين الله تعالى حال جهلهم وعنادهم لئلا يغتر بهم مغتر أنهم أهل كتاب الله ومن المحافظين على أمر الله».

وساقت السورة بعض أحكام التوراة، فقال تعالى:

«وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»[1].

ثم بينت سورة المائدة أن الأنبياء تعاقبوا على بنى إسرائيل من بعد موسى حتى جاء عيسى مصدقا للتوراة ومبشراً بمحمد، ولكن أهل الإنجيل طمسوا هذه البشائر، وفسروها تفسيرا يصرفها عن النبى العربى، فطالبهم القرآن المجيد بالرجوع إلى الحق فى أمر هذه البشائر فقال:

«وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ»[2].

فهو زجر لهم عن ارتكاب جرائم التحريف والتزوير فى الوحى المنزل الذى استحفظوا عليه، ودعوة إلى تحكيم الإنجيل الصحيح.

وتلا ذلك تأكيد الرسالة المحمدية، وبيان موضعها بين الرسالات فهى المهيمنة..

فقال جل شأنه:

« وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ»[3].

---

(١) سورة المائدة آية ٤٥ (٢) سورة المائدة آية ٤٧ (٣) سورة المائدة آية ٤٨



وتوجهت الآيات إلى سيدنا محمد ﷺ تثبته على الحق وتطالبه بالحذر من اليهود والنصارى الذين طمست بصائرهم وغشيتهم الضلالة، فقال جل شأنه:

« وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ»(١).

ودعت السورة أهل الكتاب إلى أمر فيه نصفة، وهو التأمل العقلى المجرد عن الهوى والبدعة.

فماذا يعاب على المسلمين فى دينهم؟!

إنهم يؤمنون بالله الواحد الأحد ولايفرقون بين رسل الله.. فهلا استجاب أهل الكتاب لدعوة الحق هذه؟!

«قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ»(٢).

وساقت الآيات بعضاً من قبائح اليهود، فهم لاينزهون الله تعالى عن النقائص، ويسعون فى الأرض فساداً، قال سبحانه:

«وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ»(٣).

ثم وقفت الآيات تنادى أهل الكتاب بالدخول فى الإسلام واتباع الرسول العربى الذى بشرت به أنبياؤهم، ووعدتهم ـ على ذلك ـ رغد الحياة الدنيا وكرامة الآخرة، فقال جل شأنه:

---

(١) سورة المائدة آية ٤٩

(٢) سورة المائدة آية ٥٩

(٣) سورة المائدة آية ٦٤

«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ»(١).

فأهل الكتاب غير مؤمنين الإيمان الصحيح، وقد دعتهم الآية الكريمة إلى الإيمان والتقوى وفق الهدى الإلهى المنزل فى ختام الرسالات الإلهية، وطالبتهم بإقامة التوراة الصحيحة والإنجيل غير المحرف ليلتقوا مع ما أنزل إليهم من ربهم وهو القرآن العظيم الذى جاءهم به محمد ﷺ حتى يسعدوا فى الأولى والآخرة.

ولن يتحقق إقامة التوراة والإنجيل إلا بالوفاء بعهد الله فيها بضرورة الإيمان بالنبى الخاتم محمد ﷺ.

وجاءت الآيات التالية تأكيدا لهذه الحقيقة فقالت:

«قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »(٢).

فمعنى «لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ» أى من الدين والحق والهدى.

وفى التعبير بقوله«أُنزِلَ إِلَيْكُم » تخصيص أهل الكتاب بتوجيه الرسالة المحمدية إليهم ولذا وصفتهم الآية فى ختامها بالكفر حيث حرفوا التوراة والإنجيل ورفضوا الإيمان بالقرآن المجيد.

ووضحت الآيات بعد ذلك أن إنكار هؤلاء للرسالة المحمدية مصدره الهوى والشهوة وأن لبنى إسرائيل تاريخاً أسود مع أنبياء الله عز وجل، فقال تعالى:

« لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ »(٣).

فسيقت هذه الآية سلوى لرسول الله ﷺ، فذلك دأبهم فى الإنكار والتكذيب للحق والهدى، ولم يكن لهم عهد ولاميثاق على مدى التاريخ.

---

(١) سورة المائدة آية ٦٥ ـ ٦٦ (٢) سورة المائدة آية ٦٨ (٣) سورة المائدة آية ٧٠

ثم عادت الآيات لتفضح النصارى فى مزاعمهم حول المسيح ولتحكم عليهم بالكفر الذى يقودهم إلى جهنم وبئس المصير، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

وأعلنت السورة حقيقة شخصية المسيح وأنه بشر ولد من امرأة بتول طهرها الله وجعلها وابنها آية للعالمين... قال سبحانه: «مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ»[2].

ودعت السورة أهل الكتاب إلى ترك الغلو فى الدين، والبعد عن الهوى والتقاليد... قال جل شأنه:

«قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ»[3].

ثم تنوه الآيات بطائفة من أهل الكتاب عرفوا الحق، فاتبعوه، وآمنوا بالرسالة لمحمد ﷺ بناء على البشائر المدونة فى كتبهم، ورفضوا الصمت القاتل، وأعلنوا ولاءهم للدين الجديد... قال سبحانه «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ

---

(١) سورة المائدة آية ٧٢، ٧٣

(٢) سورة المائدة آية ٧٥

(٣) سورة المائدة آية ٧٧

الصَّالحينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ»[١].

وكان ختام سورة المائدة حول دعوة المسيح عليه السلام إلى إفراد الله تعالى بالربوبية والألوهية فى أسلوب تقريعى للنصارى.. فقال:

«وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ؟

قال: سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ»[٢].

هذا وقد جاء فى صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال «**والذى نفس محمد بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولانصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[٣].

---

(١) سورة المائدة الآيات ٨٣ : ٨٥

(٢) سورة المائدة الآيات ١١٦ : ١١٨

(٣) ولمزيد من التفاصيل راجع كتابنا «المسيح ورسالته فى القرآن» طـ مكتبة الصفا بالأزهر.

قصة المباهلة:

لقد واجه الرسول المشركين واليهود والنصارى ودار حوار طويل سجله القرآن المجيد وسجلته السنة الشريفة..

وعلى سبيل المثال قصة المباهلة التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى: «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ»(١).

والمفسرون على أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت فى وفد نصارى نجران.

كانوا ستين راكبا منهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم، وثلاثة منهم كانوا أكابرهم، أحدهم الأمير واسمه عبد المسيح وكان ذا رأيهم، وصاحب مشورتهم ولايصدرون الا عن رأيه وهو العاقب، والثانى وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم وهو الأيهم ويقولون له السيد، والثالث حبرهم وأسقفهم وهو أبو حارثة ابن علقمة، أحد بنى بكر بن وائل.

وتكلم أولئك الثلاثة مع رسول الله ﷺ فى شأن عيسى عليه السلام، وتفيد الروايات أنهم قالوا لرسول الله: يا محمد فيم تشتم صاحبنا؟

قال رسول الله: أجل إنه عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.. فغضبوا وقالوا: إن كنت صادقا فأرنا عبداً يحي الميت ويبرئ الأكمة والأبرص ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً!؟ لكنه الله..!!

فسكت حتى أتاه جبريل فقال: يا محمد:

«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ»

فقال رسول الله: يا جبريل: إنهم سألوني أن أخبرهم بمثل عيسى قال جبريل: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ».

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٦١

وتضيف بعض الروايات أن الرسول ﷺ أخذ يناظرهم فقال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك؟

قالوا: لا

قال: ألستم تعلمون أن الله لايخفى عليه شيء فى الأرض ولافى السماء فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما عُلِّم؟

قالوا: لا

قال: فإن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء، فهل تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولايحدث الحدث، وتعلمون أن عيسى حملته امرأة كحمل المرأة، ووضعته كما تضع المرأة، ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟!

قالوا: بلى فقال عليه الصلاة والسلام: فكيف يكون كما زعمتم؟!.

فعرفوا ثم أبوا إلا الجحود، ثم قالوا: يامحمد ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟

قال: بلى

قالوا: فحسبنا.

فأنزل الله تعالى «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ...»(1).

هنا يحسن التوقف عن الكلام حيث لايفيد مع الجاحدين المنكرين.

فقال ﷺ:

إن الله أمرنى إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم.

فقالوا: يا أبا القاسم بل نرجع فننظر فى أمرنا ثم نأتيك.

فلما رجعوا قالوا للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ ياعبد المسيح ما ترى؟

فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبى مرسل، ولقد جاءكم بالكلام الحق فى أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبيًا قط فعاش كبيرهم ولانبت صغيرهم، ولئن فعلتم لكان الاستئصال، فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم والإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم.

---

(1) راجع تفسير الرازى جـ٧ صـ١٦٧، وتفسير ابن كثير جـ١ ص٣٦٨

وكان رسـول الله ﷺ خرج وعليه مـرط من شعر أسـود، وكان قد احـتضن الحسين وأخـذ بيد الحـسن، وفاطمة تمشى خـلفه، وعلى ؓ خلفهـا وهو يقول: إذا دعوت فأمنوا.

فقال أسقف نجران: يا معـشر النصارى إنى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبـلا من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فـتهلكوا ولايبقى على وجـه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة.

ثم قالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نقرك على دينك.

فقـال صلوات الله عليه: فإذا أبيـتم المباهلة فـأسلموا يكن لكم ما لـلمسلمين، فأبوا فقال: فإنى أناجزكم القتال.

فقالوا: مـا لنا بحرب العرب طاقة ولكن نصـالحك على أن لا تغزونا ولاتردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك فى كل عـام ألفى حلة، ألفـا فى صفر وألفـا فى رجب، وثلاثين درعا عادية من حديد.

فصالحهم على ذلك وقال:

والذى نفـسى بيده إن الهـلاك قد تدلى على أهل نجـران، ولو لاعنوا لمسـخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادى ناراً، ولاستـأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رءوس الجبال، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا.

وقد ساق الإمام الرازى هذا الحوار ثم قال:

واعلم أن هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث(١). وقد استدل الإمام الرازى بهذه الواقعة على صحة النبوة لسيدنا محمد ﷺ من وجهين:

أحدهما وهو أنه عليه السلام خـوفهم بنزول العذاب عليهم ولو لـم يكن واثقا بذلك لكان ذلك منه سعـيا فى إظهار كذب نفسـه، لأنه بتقدير أن يرغبوا فى مـباهلته ثم لا ينزل العذاب فحينئذ كان يظهر كذبه فيما أخبر، ومعلوم أن محمداً ﷺ كان

(١) التفسير الكبير جـ ٨ صـ ٨٨



من أعقل الناس فـلا يليق به أن يعمل عمـلا يقضى إلى ظهور كذبه، فلمـا أصر على ذلك علمنا أنه إنما أصر عليه لكونه واثقا بنزول العذاب عليهم.

ثانيهمـا: أن القوم لما تركوا مبـاهلته، فلولا أنهم عرفوا من التـوراة والإنجيل ما يدل على نبوته وإلا لما أحجموا عن مباهلته[1].

٢ ـ العرب والعجم:

بدأت الدعوة الإسـلامية بذوى قربى رسـول الله وبنداء من فوق جبل الصـفا، ففى صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت:

لما نزلت «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ [2]» قام رسـول الله ﷺ على الصـفا فقال: «**يافاطمة بنت محمد، ياصفـية بنت عبد المطلب، يابنى عبد المطلب.. لا أملك لكم من الله شيئا، سلونى من مالى ما شئتم**».

وفى رواية عن أبى هريرة رضي الله عنه قال:

لما نزلت هذه الآية «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ» دعا رسول الله ﷺ قـريشا فاجتمعوا، فعم وخص فقال:

«**يابنى كـعب بن لؤى أنقـذوا أنفسكـم من النار، يابنى مـرة بن كعب أنقـذوا أنفسكم من النار، يابنى عبد شمس أنقـذوا أنفسكم من النار، يابنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يافـاطمة أنقذى نفـسك من النار، فإنى لا أملك لكم من الله شيـئا، غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها**»

وعـقب هذه المرحلة التقى رسـول الله بالناس فى أمـاكن تجمـعاتهم ومـواسم حجهم وأسواق تجارتهم يبلغهم كلمة الله.

وقد أكد القرآن مـراراً أن دعوة الإسلام موجهة إلى العـرب بخصوصهم وإلى غير العرب بعمـومهم، فقال الله تعالى «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو

(١) التفسير الكبير جـ ٨ صـ ٩١

(١) سورة الشعراء ـ الآية ٢١٤

عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»(١).

فالأميون هم العرب لأنهم أمة لاتقرأ ولاتكتب، ولاكتاب أنزل عليهم ولارسول بعث فيهم منذ إسماعيل عليه السلام.

والآخرون هم غير العرب من أى جنس كان...

وقال الله تعالى«وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ»(٢).

فالخطاب لأهل مكة فى قوله «لأُنذِرَكُم بِهِ» والمراد بقوله«وَمَن بَلَغَ» كل من بلغه القرآن من العرب والعجم إلى يوم القيامة، وقيل فى معنى «مَن بَلَغَ» أى احتلم وبلغ سن التكليف، وهو دليل أيضا على عموم الدعوة، فكل من وصل إلى سن التكليف من العرب والعجم فهو مطالب شرعا بعقيدة الإسلام وشريعة القرآن.

وجاءت آية من كتاب الله تعالى تصف القرآن بأنه عربى وتؤكد فى الوقت ذاته أنه رسالة عالمية موجهة إلى الناس فى أم القرى وما حولها فقال تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»(٣).

فالوصف بأم القرى يعنى العموم من حيث إن مكة المكرمة هى قبلة أهل الأرض بالكعبة المشرفة حجا وصلاة، وقوله «وَمَنْ حَوْلَهَا» لايقتصر على بقعة أو بيئة بل تمتد الحولية حتى نهاية العالم.

وعندما يوصف القرآن بأنه حكم عربى لايعنى أكثر من أن أمة العرب تتحمل أمانة الدعوة إلى هذا الدين القيم وتأتى فى المقدمة وتتلوها الأمم، فالرسول عربى

---

(١)سورة الجمعة ـ الآيتان ٢، ٣

(٢) سورة الأنعام ـ الآية ١٩

(٣) سورة الشورى ـ الآية ٧

والقرآن عربى.. قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ﴾[1].

وعربية اللسان لاتمنع عالمية الدعوة والرسالة، وليس معقولا أن ينزل القرآن بجميع اللغات، وقد جرت سنة الله أن ينزل الوحى بلسان واحد هو لسان البيئة التى نشأ بها الرسول، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[2].

إن السابقين فى الإسلام كانوا ممثلين لفئات الإنسانية وأجناسها، رجالا ونساء وصبية وعبيداً، وعربا وعجما، واستطاع الإسلام بسناء تشريعه وخلق رسوله وشجاعة رجاله أن يعمق صلته بالإنسان من كل فج عميق.. والتقت هذه الصفوة على كلمة التوحيد:

خديجة بنت خويلد..

أبو بكر الصديق..

على بن أبى طالب..

بلال بن رباح الحبشى..

صهيب بن سنان الرومى..

* * *

الهجرة إلى الحبشة:

وحين اشتد إيذاء المشركين لمن آمن بالله ورسوله فى صدر الإسلام أشار النبى ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة وقال:

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه».

(١) سورة الرعد الآيتان ٣٦، ٣٧

(٢) سورة ابراهيم آية ٤

فخـرج الصحابة متـسللين سراً، ما بين مـاش وراكب، حتى انتهوا إلى البـحر وركبـوا إلى الحبشة، وقـد هاجر المسلمون إلـيها مرتين، وكـانوا فوق الثمـانين رجلا سوى نسائهم وأبنائهم..

وحاولت قريش اسـترجاع هؤلاء المسلمين، فأرسلوا وفداً إلى نجاشـى الحبشة يحملون إليه الهدايا ويستعدونه على المسلمين..

لكن الرجل كـان حكيـما عـادلا، فـأبى إلا أن يلتـقى الجمـعـان فى حضـرته ويستمع إلى الطرفين ويتعرف على حقيقة الموقف..

وبعد سماع دعوى قريش ودفاع جعفر بن أبى طالب.

قال النجاشى:

إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة..

وتحدث الروايات أن وفد قريش أراد أن يستثير النجاشى فقال:

- إنهم يخالفونك فى عيسى ابن مريم..

- إنهم يشتمون عيسى وأمه..

- إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما..

فسأل النجاشى المهاجرين عن عقيدتهم فى عيسى، فتكلم جعفر قائلا: هو عبد الله ورسوله ، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول..

وقرأ عليه صدر سورة مريم..

فقال النجاشى:

والله مازاد المسيح على ما تقولون نقيراً..

مـرحبـا بكم وبمن جـئـتم من عنده، أشـهد أنه رسـول الله، وأنه الذى نجـد فى الإنجيل، وأنه الرسول الذى بشـر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شـئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذى أحمل نعليه»[1]

إن هجرة المسلمين إلى الحبشة عبرت بالإسلام إلى إفريقيا.

---

(١) راجع الروايات وتخريجها فى البداية والنهاية لابن كثير - ج٣- صـ٦٦

الرسائل النبوية:

ولما استقر الأمر للمسلمين فى المدينة المنورة بصلح الحديبية فى العام السادس للهجرة اتجه الرسول ﷺ إلى مخاطبة ملوك العالم وأمراء الجزيرة العربية، وبعث رسائل شخصية إلى هرقل عظيم الروم، وكسرى عظيم فارس، والنجاشى فى الحبشة، والمقوقس فى مصر.. الخ.

كما أوفد الرسول ﷺ ممثلين شخصيين له إلى أطراف الجزيرة العربية والقبائل المختلفة يعلمون الناس أمر دينهم..

ومن نماذج الرسائل النبوية رسالة هرقل، ونصها كما فى صحيح البخارى:



من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم

سلام على من اتبع الهدى

أما بعد . . .

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

وهذه الرسالة فى غاية الدقة والبلاغة فإنه قد حصل المعنى المراد بأيسر عبارة وأحسنها، فقد حملت إلى هرقل الدعوة الإسلامية، تلك الدعوة التى تقوم على التوحيد الخالص وكرامة الإنسان، ووعدته بالثواب المضاعف والأجر الجزيل من الله عز وجل، لأن أهل الكتاب إذا أسلموا يؤتون أجرهم مرتين، مرة لإيمانهم بنبيهم ومرة لإيمانهم بخاتم الأنبياء محمد ﷺ.

ثم وضحت الرسالة أنه فى حال الإعراض سيتحمل هرقل مسئولية تضليل الجماهير، فالناس على دين ملوكهم ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة..

ومما ينبغى ذكره أن مسئولية الملوك وأصحـاب الشأن وإن كانت مضاعفة فإنها لاتنفى المسئولية الفردية لكل إنسان منحه الله عقلا..

قال الله تعالى: «وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ». (١)

تأمين الدعوة:

إن الملوك والأمـراء الذين راسلهـم النبى ﷺ، منهم من اسـتـقـبل الكتـاب استقبالا حـسنا ومنهم من أساء، ووصلت الإساءة إلى حد القتل، فقد قـتل شرحبيل والى مؤتة الحارث بن عمير الأزدى الذى كان يحمل رسالة إلى الأمير الغسانى المقيم فى بصرى الشام.

ولهذا السـبب أعد الرسول حـملة كبيـرة فى جمادى الأولى من الـسنة الثامنة للهجرة وعقد اللـواء فيها لزيد بن حارثة وقال لهم: إن أصيب فالأمـير جعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة.

وأثناء المعركة قـتل الأمراء الثلاثة واستطاع خالد بن الوليـد بحيلة عسكرية أن يلقى الرعب فى قلوب الأعداء فكفوا عن القتال فانسحب المسلمون وعادوا إلى المدينة.

ثم وقعت سرية السلسل (نسبة إلى ماء بأرض جذام على حدود الشام) بقيادة عمرو بن العاص، استطاع فيها أن يفرق حشودا تتهيأ للسير جنوبا..

وفى العام الـتاسع للهجـرة وقعت غـزوة تبوك وجـمع الرسول جيـشاً قـوامه ثلاثون ألفاً، وهو جيش لـم تشهده بلاد العرب من قبل، وقد لاقى الرسول فى تكوينه شـدة وعسـرة فى المال والزاد والماء والـراحلة، ولذا سمـى بجيش العـسـرة، ووصل الجيش إلى تـبوك على بعد سـتمـائة كيلو مـتر تقريبـا من المدينة، وأقام الجـيش هناك يتـحدى الروم ولـم تحـدث معارك، ووقـع الرسول معـاهدات مع القـبائل المسـيحـية واليهودية المقيمة حول خليج العقبة.

---

(١) سورة غافر، الآيتان ٤٧، ٤٨.

وكان لهذه الغزوة أثر كبير فى تأمين الجزيرة العربية والتسامع بالإسلام فى الامبراطورية الرومانية.

ثم كان آخر وصايا الرسول - ﷺ - إنفاذ بعث أسامة الذى أمره أن يرهب الغساسنة والروم وأن يوطئ الخيل تخوم أرض فلسطين وأن يرهب القبائل فى أطراف بلاد العرب.

٣ ـ الإنس والجن:

أكد القرآن مرارا أن رسالة الإسلام موجهة إلى الثقلين من الإنس والجن، وتنوع الأسلوب القرآنى فى عرض هذه القضية، فقد توجه التحدى بالقرآن إلى الإنس والجن، كما فى قوله تعالى:

«قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» (الإسراء / ٨٨).

ومن سور القرآن المكى سورة الجن وهى تبدأ بقوله تعالى «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا» (سورة الجن الآية ١، ٢).

قال الإمام الرازى:

اعلم أن قوله تعالى «قُلْ» أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى الله فى واقعة الجن، وفيه فوائد: إحداها: أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس فقد بعث إلى الجن، وثانيها: أن تعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا بالرسول، وثالثها: أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس، ورابعها: أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا، وخامسها: أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان، وفى كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس»[1].

---

(١) التفسير الكبير جـ ٣٠ صـ ١٥٣

وقد تكررت قصة استماع الجن إلى القرآن في سورة الأحقاف فقال الله تعالى «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ»[1].

وفى حديث أخرجه الترمذى وصححه الحاكم عن ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا فقال: مالي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم؟ ما أتيت على قول الله تعالى «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» إلا قالوا: لاشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد.

٤ ـ العالمون:

وقد جاءت آيات من القرآن المجيد تتخطى تحديد طوائف المكلفين بأوصافهم الخاصة إلى التعبير العام الشامل الذى لايند عنه أحد.

ففى سورة القلم وهى الثانية نزولا بعد سورة العلق جاء ختامها قوله تعالى «وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ».

وفى سورة التكوير وهى مكية أيضا جاء قوله تعالى «إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ».

وفى مفتتح سورة الفرقان جاء قوله تعالى «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا».

وجاء فى سورة الأنبياء نمط آخر للتعبير عن هذه العالمية بوصف الرسالة المحمدية بأنها رحمة عامة فقال «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ».

ولعل الوصف بالذكر ثم الإنذار ثم الرحمة له دلالته، فالإسلام شرف لمن اعتقده وصدق به، ثم إذا لم يستجب البعض فلابد من ملاحقة العدل الإلهى لهؤلاء، وعلى كل فالرحمة لاتنفك عن الدعوة حال التصديق بها أو التكذيب، كما قال الله

---

(١) سورة الأحقاف ـ الآيتان ٢٩:٣٠

تعالى «لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (الممتحنة / ٨).

وفى سورة الأعراف توجهت الآيات بمخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى وألزمتهم ضرورة التصديق بالنبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ثم جاء الخطاب عاما شاملا فى قوله تعالى «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»(١).

والعجيب حقا أن كل هذه الآيات التى سقناها تحت عنوان « الْعَالَمِينَ» هى آيات مكية نزلت فى وقت يعيش المسلمون فيه مضطهدين لا يملكون الدفاع عن أنفسهم، أفلا يعد ذلك لونا من الإعجاز القرآنى لأنه كالوعد الإلهى بأن يسرى نور الإسلام فى الآفاق كلها..؟! أوَلاَ يكون ذلك تأكيدا على أن عالمية الإسلام ليست اجتهادا ولا ادعاء وإنما هى حقيقة مقررة مؤكدة منذ اليوم الأول لرسالة الإسلام لاتعرف تحويلا ولا تبديلا؟!

ومن المعجزات النبوية الإسراء والمعراج، وهى معجزة مكية وقعت قبل الهجرة، والإسراء هو السير ليلا، والمعراج هو سلم الصعود، والمقصود هو انتقال النبى ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ثم الصعود إلى السموات العلا ثم إلى سدرة المنتهى، ثم إلى حيث شاء العلى الأعلى.. كل ذلك فى جزء يسير من الليل.

فَبِمَ يوحى الإسراء والمعراج؟!

إنها بشرى عظيمة للرسول والمسلمين فى وقت ضاقت فيه مكة عليهم.

إنها بشرى النصر والفرج القريب..

إنها بشرى التمكين لهذا الدين المتين..

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٨

إنها الوحدة الكونية التى تترابط فى عقل المسلم وقلبه..

إنها وحدة الآفاق فى المشارق والمغارب إيماء إلى أن هذا الأمر سيبلغ ما بلغ الليل والنهار، وسيطلع على ما طلعت عليه الشمس..

وماهى إلا سنوات قلائل حتى قامت الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة ودخل الناس فى دين الله أفواجا، وذهبت كتائب الإيمان شرقا وغربا، ترسى قواعد العدل وتعلى حقوق الإنسان وتبنى الحياة المثلى..

ومن جهة أخرى فإن هناك وحدة عقدية وترابطا تاريخيا بين أماكن ثلاثة أشرق منها نور التوحيد، هى مكة وطور سيناء والقدس..

إن الرسول ﷺ أسرى به من مكة المكرمة، ومرّ بطور سيناء، وصلى إماما بالأنبياء فى القدس الشريف، وفى هذا دلالة عميقة على أن عقدا فريدا فى عنق المسلمين يجب الحفاظ عليه، لأنهم أمناء الله فى أرضه، وأولى الناس بأنبياء الله ورسله..

قال تعالى «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» (آل عمران / ٦٨).

دعوة نوح عليه السلام

قد يتوهم البعض أن عموم الرسالة ليس من خصائص النبوة المحمدية ويعترض بنبوة نوح عليه السلام، ويزعم أنها كانت عامة..

ونحن نرفض هذا الاعتراض ونؤكد أن عموم الرسالة زمانا ومكانا هو من خصائص سيدنا محمد ﷺ، لما يأتى:

١ - إن نوحا عليه السلام أرسل إلى قومه خاصة بنص قوله تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ»(١)، وذكر القرآن قوم نوح فى مقدمة أقوام لاحقهم العدل الإلهى فى قوله تعالى «أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»(٢).

٢ - إن حديث الشفاعة الذى ورد فيه أن الناس يأتون نوحا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدا شكوراً...» - لايعنى أن نوحا عليه السلام أرسل برسالة عامة إلى أهل الأرض جميعا، ولعل المراد أنه أول رسول يأتى بتشريع جديد بعد شرائع آدم وإدريس عليهما السلام.

٣ - إن تعبيرات قرآنية مثل قوله تعالى:

«وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ»(٣)

«فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا»(٤)

«رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا»(٥)

لاتعنى بالضرورة عموم الرسالة، فإن بقاء الذرية يفهم منه هلاك قومه المكذبين ونجاة نوح ومن آمن معه، وتفتيح السماء وتفجير الأرض قد لا يعنى أكثر من السماء التى تظل قومه والأرض التى تقلهم فى موقعهم الذى كانوا فيه، وتكون «أل» للعهد.

---

(١) سورة نوح - الآية ١

(٢) سورة التوبة - الآية ٧٠

(٣) سورة الصافات - الآية ٧٧

(٤) سورة القمر - الآية ١١، ١٢

(٥) سورة نوح - الآية ٢٦

٤ ـ لو سلمنا جدلا عموم دعوة نوح عليه السلام فهو عموم موقوت لم يستمر، بل جاءت الرسل تترى من بعد نوح، وأنزل الله شرائع جديدة نسخت شريعته، ولم يكتب لشريعة نوح البقاء، وبالتالى يظل لسيدنا محمد عموم الرسالة زمانا ومكانا بلا منازع وبلا مثيل.

٥ ـ إن سفر التكوين هو الذى يعطى معلومات تجعل الطوفان يعم الجنس البشرى كله والكائنات التى خلقها الله جميعاً، وقد أكد المستشرق «موريس بوكاى» الذى أسلم: أن المعطيات التاريخية تثبت استحالة اتفاق هذه الرواية مع المعارف الحديثة، فإن التاريخ الذى حددته الرواية الكهنوتية للطوفان قد ظهرت فيه حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التى تلتها، ففى مصر هو تاريخ الفترة الوسطى الأولى قبل الأسرة الحادية عشرة، وفى بابل هو أسرة أور الثالثة، ولم يحدث انقطاع فى هذه الحضارات، ولم يحدث إعدام يعم البشرية برمتها كما تقول التوراة»[١].

٦ ـ ذكر الشيخ عبد الوهاب النجار الرأيين فى مسألة طوفان نوح، وانتهى إلى نتيجة هى:

وعلى كل حال فالمسألة ليس فيها نص من القرآن، بل كل ما فيه من هذه الناحية أن قوم نوح كفروا وعصوا الرسول فأغرقهم الله بالطوفان. ونجى نوحا ومن معه فى الفلك، وجعل ذريته الباقية، فالعموم محتمل والخصوص محتمل.

والذى أميل إليه أن يكون خاصا، وأن النوع الإنسانى لم يكن منتشراً فى جميع الكرة بل كانوا منحصرين فى الناحية التى عمها الطوفان وأنهم قد هلكوا وبقى نوح وذريته»[٢].

٧ ـ ذهب الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت إلى أن المسألة من المعارف البشرية التى تركها الوحى لبحث الإنسان، لاتفسيراً للقرآن، وليس من مهمة القرآن

---

(١) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ـ ط دار المعارف بالقاهرة.

(٢) قصص الأنبياء صـ ٣٦ ط الحلبى.

أن يحدد الأوضاع ولاأن يعين الوقـائع، وإنما مهمته الإرشاد إلى ما تدل عـليه القصة من جهات العظة وأنواع العبرة.

وعلى كل فنوح أرسل لقـومه فـقط، أما أنه كان في المعـمورة غـير قـومه ولم يرسل إليهم، أو أنه لم يكن فـيهم سواهم، فـهذا شئ ليس له تأثير في هدف القـصة، ولايمس اختصـاص محمد ﷺ بعموم الرسـالة لقومه ولغير قـومه الموجودين على سطح الأرض ومن سيـوجد عليـها إلى يوم الدين، «قل يا أيهـا الناس إني رسول الله إليكم جميعاً»(١)

(١) إلى القرآن الكريم صـ ١١١ ط كتاب الهلال سنة ١٩٦٤

الفصل الثانى

ختم النبوة

- تمهيد.
- دلائل ختم النبوة.
- حكمة ختم النبوة.
- حكم إنكار ختم النبوة.
- على هامش ختم النبوة.

ختم النبوة

تمهيد:

انطلاقا من دلائل النبوة المحمدية، وتتميما لعموم الرسالة وتأكيدا، تأتى قضية ختم النبوة لتقرر أن محمدًا ﷺ آخر الأنبياء وأن رسالته باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلا وحى بشريعة جديدة ولانسخ للشريعة الإسلامية، وقد تكامل الدين وتمت النعمة الإلهية على الخلق.

وفى يوم من أيام الله الخالدة فى يوم عرفة، عام حجة الوداع نزل قول الله تعالى «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا»(١).

وجاء فى صحيح البخارى أن رجلا من اليهود قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، آية فى كتابكم تقرءونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال: أى آية؟ قال: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا» قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذى نزلت فيه على النبى ﷺ، وهو قائم بعرفة، يوم جمعة».

وفى رواية: إنى لأعلم اليوم الذى أنزلت فيه، والمكان الذى نزلت فيه، والساعة التى نزلت فيها على النبى ﷺ».

وفى رواية:«نزلت يوم جمعة، يوم عرفة وكلاهما بحمد الله عيد».

---

(١) سورة المائدة آية ٣

دلائل ختم النبوة

جاءت نصوص القرآن المجيد والسنة الصحيحة دالة دلالة صريحة على ختم النبوة، وأجمعت الأمة سلفاً وخلفا على أن سيدنا محمدا ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين، فلا نبى بعده ولا رسول يعقبه..

ونسوق أولاً من القرآن الكريم هذه الآية:

«مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا»(١)

ولنا معها وقفات:

الارتباط بما سبق

تحدثت الآيات السابقة عن زواج الرسول ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد بن حارثة، وأنه زواج أمر الله تعالى به قدرا مقدورا لإبطال التبنى الجاهلى حكما وتطبيقا.

الأبوة للرجال

نفت الآية أن يكون الرسول ﷺ أبا لأحد من الرجال، مع أن للرسول أولادا ذكورا.. فكيف يتأتى ذلك؟

وللتوضيح نقول إن مفهوم الرجل ليس وقفا على البالغ بل قد يراد به غالبا الذكر من الناس صغيرا كان أو كبيرا، كما قال تعالى«وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ»(٢)

فالرجل يشمل الكبير والصغير فكلاهما وارث.

وقد يطلق الرجل ويراد به الجلادة والرجولية(٣) وكمال العقل، ومنه قوله

---

(١) سورة الأحزاب ـ الآية ٤٠ (٢) سورة النساء ـ الآية ١٧٦

(٣) الرجولة والرجولية كمال الصفات المميزة للرجل.

تعالى «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ . رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ»(١)

فالتسبيح ليس وقفا على الذكور بل هو يشمل الجنسين معاً.

والجواب على التساؤل الذى سقناه هو أنه لو فسرنا الرجل بالبالغ فلم يكن لرسول الله ﷺ رجال بالغون..

فأولاد الرسول الذكور وهم القاسم وعبد الله وإبراهيم لم يصلوا إلى حد البلوغ..

ولو فسرنا الرجل بالذكر مطلقا فإن أبناء الرسول الذكور لم يكونوا أحياء وقت نزول الآية، فإن القاسم وعبد الله ماتا صغيرين قبل النبوة أو فى صدر العهد المكى وهما من السيدة خديجة ﵂ التى توفيت فى العام العاشر من البعثة..

وأما إبراهيم فمن السيدة مارية القبطية، ولد فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة فى العهد المدنى وتوفى وهو ابن ستة عشر شهرا، أو ثمانية عشر شهرا..

وقد تزوج الرسول ﷺبزينب بنت جحش فى ذى العقدة سنة خمس من الهجرة.

الاستدراك بالرسالة

نفت الآية أن يكون محمد ﷺ أبا أحد من المؤمنين، وقد يظن من نفى النسب نفى الحق المترتب على النسب من الاحترام والتبجيل، فجاء الاستدراك بإثبات الرسالة التى توجب ما هو أعظم.. فكل نبى أب لأمته..

وحق الرسالة له جانبان

١ ـ الشفقة من جانب الرسول

٢ ـ التعظيم من جانب الأمة

---

(١) سورة النور ـ الآية ٣٦، ٣٧

وقد عبر القرآن عن الجانب الأول فى مثل قوله تعالى «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »(١)

وعبر عن الجانب الثانى فى مثل قوله جل شأنه «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً»(٢)

العطف بالختم على الرسالة

إن عطف «خاتم النبيين» على «رسول الله» له دلالته فى بيان حق الرسول على أمته، فإذا كان سيدنا محمد ﷺ له حق التعظيم على أمته كسائر الرسل على أقوامهم فإن لسيدنا محمد ﷺ حقاً مضاعفاً، لأنه النبى الخاتم الذى كمل به الدين على البشر، وعظمت به المنة على العالمين وختم به الوحى الإلهى إلى المكلفين..

مفهوم الختم

قرأ عاصم بفتح التاء «خاتَم»، وقرأ الجمهور بكسرها «خاتِم»، والختم الطبع وهو تأثير الشىء كنقش الخاتم والطابع..

ويقال: ختمت القرآن أى أتممت قراءته وانتهيت إلى آخره، وختم القوم أى جاء آخرهم..

والأموربخواتيمها أى عواقبها وأواخراها..

وختامه مسك أى خاتمة شربه وسؤره، ومن قال يختم بالمسك أى يطبع فليس بشىء لأن الشراب يجب أن يطيّب فى نفسه، فأما ختمه بالطيب فليس مما يفيده ولا ينفعه طيب خاتمه مالم يطب فى نفسه.

وخاتم النبيين أى ختموا به أو ختمهم.. فهو كالخاتم والطابع لهم أو أنه جاء آخرهم..(٣)

---

(١) سورة التوبة ـ الآية ١٣٨

(٢) سورة الفتح ـ الآية ٩

(٣) راجع أساس البلاغة للزمخشرى، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى

ختم النبوة والرسالة

ختم النبوة ختم للرسالة لأن الرسول والنبى بمعنى واحد، هو الاصطفاء من الله تعالى لعبده وقيام هذا المصطفى بالتبليغ عن الخالق إلى الخلق..

وإذا قلنا إن النبوة أعم والرسالة أخص، فالنبى من أوحى إليه بشرع سواء أمر بالتبليغ أو لم يؤمر، والرسول هو من أوحى إليه بشرع وأمر بالتبليغ، فكل رسول نبى ولاعكس.. فمتى جاء النص على ختم النبوة فقد ختمت الرسالة، فنفى الأعم يقتضى نفى الأخص..

قال الإمام ابن كثير:

فهذه الآية نص فى أنه لا نبى بعده، وإذا كان لا نبى بعده فلا رسول بالطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبى ولاينعكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة ﷺ.[1]

● ● ●

ثانيا: دلائل الأحاديث

نسوق هنا نماذج من أحاديث رسول الله ﷺ الدالة على ختم النبوة،:

١ - فى صحيح البخارى بسنده عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟! قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**» فهذا مثل ضربه رسول الله تقريبا للأفهام، وبيانا لختم النبوة وتمام الرسالة الإلهية للخلق..

٢ - فى صحيح البخارى بسنده عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ« **لى خمسة أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب**»

(١) تفسير القرآن العظيم حـ٣ صـ ٤٩٣

ووجه الشاهد فى موضعين:

الأول: «أنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى» وفيه معنيان: قيل إنه ﷺ يحشر قبل الناس، كما جاء فى رواية أخرى «أنا أول من ينشق عنه القبر»، وقيل إن المراد أنه ﷺ آخر نبى، ويعقب زمن رسالته البعث والحشر، فلا ينتظر الناس نبيا بعده، وإنما موعدهم الساعة..

الثانى: «أنا العاقب»، وقد فسر فى بعض الروايات «الذى ليس بعده نبى»، وهذه الجملة محتملة للرفع إلى النبى ﷺ، والوقف على الراوى، وأيا ما كان فهى تفسير لكلمة العاقب..

٤ ـ فى صحيح البخارى بسنده عن أبى حازم قال: « **قاعدت أبا هريرة رضي الله عنه خمس سنين فسمعته يحدث عن النبى ﷺ قال: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبى خلفه نبى، وإنه لانبى بعدى، وسيكون بعدى خلفاء فيكثرون، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم**»

فأنبياء بنى إسرائيل كانوا يتعاقبون على حكم شعبهم ويجددون ما اندرس من شريعة الله، حتى جاء محمد ﷺ نبيا رسولا يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ولما ختمت النبوة ببعثة محمد ﷺ لم يبق إلا الخلفاء والأمراء يخلفون رسول الله فى الحكم وليس فى النبوة، فلا نبى بعده، وهؤلاء الخلفاء أو الأمراء قد يحدث بينهم نزاع وشجار فيجب الوفاء لمن عقدت له البيعة أولاً، ولايجوز الخروج على الحاكم إلا أن يرى الناس فيه كفرا بواحا عندهم فيه من الله برهان.. لأن الفتنة تأكل الأخضر واليابس ولاتبقى ولاتذر.

٥ ـ وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون**»

٦ ـ وفى صحيح مسلم أن الرسول ﷺ قال: «**بعثت أنا والساعة كهاتين، وضم السبابة والوسطى**»

فمراد هذا الحديث تأكيد قرب قيام الساعة وأن النبي من أشرطها لأنه نبى آخر الزمان فلا نبى بعده، ولهذا قال الله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[1]

قال الإمام ابن كثير:

فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر الله تبارك وتعالى فى كتابه، ورسوله ﷺ فى السنة المتواترة عنه أنه لانبى بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب، أفاك، دجال، ضال مضل، ولو تخرق وشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات، فكلها محال وضلال عند أولى الألباب، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسى باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذى لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله.

وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيخ الدجال، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها، وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لايأمرون بمعروف ولاينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال الله تعالى ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[2]

وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم فى غاية البر والصدق، والرشد، والاستقامة، والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات فصلوات الله وسلامه عليهم دائما مستمرا مادامت الأرض والسموات»[3]

• • •

---

(١) سورة القمر، الآية ١ (٢) سورة الشعراء الآيتان ٢٢١ , ٢٢٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم حـ٣ صـ ٤٩٤

حكمة ختم النبوة

إن ختم النبوة له حكم بالغة ودلالات ذات مغزى كبير، أهمها:

١ ـ كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وتستمر شريعته لفترة محددة حتى يأتى نبى آخر يجددها أو ينسخها.. فقد اجتمع ابراهيم ولوط فى زمن واحد وفي مكانين متجاورين، قال الله تعالى «فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ»(١) وكان داود وسليمان نبيين، وكذا زكريا ويحيى فالأول منهما أب للثانى..

فإذا بعث الله تعالى محمدا ﷺ بالرسالة العامة الخالدة تأكدت حكمة ختم النبوة فإن دين الله قد عمّ الآفاق..

٢ ـ كان كل نبى يعالج قضية خاصة فى مجتمعه فى إطار القضية العامة التى التقى عليها الأنبياء جميعا، وهى قضية التوحيد الكبرى..

على سبيل المثال فقد تميزت رسالة شعيب بمعالجة الفساد الاقتصادى، قال الله تعالى «وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ»(٢)

وتميزت رسالة لوط عليه السلام بمعالجة الفساد الأخلاقى، قال تعالى: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ

(١) سرزة العنكبوت ـ الآية ٢٦ : ٢٧

(٢) سورة هود ٨٣ : ٨٦

إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»(١)

وتميزت رسالة موسى بمعالجة الفساد السياسى المتمثل فى الملك الطاغية فرعون، وبطانة السوء هامان، وكبرياء صاحب الثروة قارون، قال الله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ»(٢)

وهكذا كل نبى فى قومه له رسالة خاصة فإذا جاء محمد ﷺ ليعالج الحياة بأسرها، ويصلح المجتمع فى كافة جوانبه، ويقود الناس إلى التى هى أقوم فى الدين والدنيا كان لختم النبوة حكمة بالغة..

٣ ـ أيد الله رسله بالمعجزات تأكيدا لصدق البلاغ عن الله، إلا أن معجزات جميع الأنبياء السابقين كانت معجزات حسية ارتبطت بزمان ومكان وشخص نبيها وبمن شاهدها وقت وقوعها، فانقلاب العصا حية على يد موسى عليه السلام أو إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام ـ موقف حدث فى لحظة من الزمان، ووقع فى مكان معين وأمام جمع من الناس ثم أصبحت المعجزة خبرا يروى..

فإذا جاء محمد ﷺ بالقرآن المجيد معجزة عقلية لاترتبط بزمان ولامكان، ولايتوقف إعجازه على حياة النبى الذى جاء به، بل يظل هذا القرآن يحمل دليله معه يناجى العقل الإنسانى ويناديه:

«وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»(٣)

هنا تصبح عقيدة ختم النبوة ضرورة عقلية..

(١) سرزة العنكبوت ـ الآيتان ٢٨ : ٢٩

(٢) سورة غافر ـ الآيات ٢٣ : ٢٥

(٣) سورة البقرة ـ الآية ٢٣

٤ ـ إن معجزة موسى عليه السلام انقلاب العصا حية، ورسالته التوراة، وإن معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى، ورسالته الإنجيل، وهكذا كل نبى كانت له معجزة يستدل بها على رسالته، فهما شيئان مختلفان.. فإذا جاء محمد ﷺ بالمعجزة والرسالة يلتقيان على شيء واحد هو القرآن العظيم كان ذلك دلالة كبرى على ختم النبوة، فإن القرآن هو معجزة محمد ﷺ التى تظل شاهدة على صدقه، وإن القرآن هو الرسالة التى جاهد عليها محمد ﷺ بما فيه من عقيدة وشريعة وأخلاق وقيم تربى الإنسان السوى، وتبنى المجتمع المثالى، وتشيد الدولة والحضارة فى دنيا الناس جيلا بعد جيل..

٥ ـ إن أتباع الرسالات السابقة حرفوا كتبهم المنزلة، وغيروا معالم الحق، وطمسوا حقائق الوحى، وخانوا الأمانة وما استحفظوا عليه..

قال تعالى «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ»(١)

فإذا جاء محمد ﷺ بالكتاب المهيمن الخالد الذى يتولى الله حفظه وبقاءه وعدا عليه حقا «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»(٢)، كان ختم النبوة موائما لمقتضى الحال، وملائما لسنة الطبيعة، وحتمية اجتماعية حيث بقى الكتاب فانقطعت النبوة..

٦ ـ إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة محكمة على كل مسلم ومسلمة بقدر علمه وفى حدود مسئوليته.. قال الله تعالى «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»(٣)

١ ـ سورة البقرة ـ الآية ٧٩

٢ ـ سورة الحجر ـ الآية ٩

٣ ـ سورة التوبة ـ الآية ٧١

وإن تبليغ دعوة الإسلام وتجديد الولاء لها منوط بالعلماء العاملين والأمراء العادلين، الذين يحفظون للأمة أصول الدين ومعالم الإسلام، وفى صحيح البخارى بسنده عن المغيرة بن شعبة عن النبى ﷺ قال: «**لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون**» وفى رواية عن معاوية قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «**لايزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك**»

وقد فسر البخارى هذه الطائفة بأنهم أهل العلم، وفسرها الامام النووى بأنها جماعة متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقيه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وزاهد وعابد، وقال: لايلزم أن يكونوا مجتمعين فى بلد واحد بل يجوز اجتماعهم فى قطر واحد وافتراقهم فى أقطار الأرض..(١)

وجاء فى حديث رواه أبو داود وصححه الأئمة قول رسول الله ﷺ «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»

واختلف العلماء فى شرح هذا الحديث من وجوه:

هل المراد بالأمة أمة الإجابة أو أمة الدعوة؟

وهل اعتبار المائة من الميلاد أو من البعثة أو من الهجرة أو من الوفاة؟

وهل المراد برأس المائة آخرها أو أولها؟

وهل المبعوث واحد أو أكثر؟

وأيا ما كان فالمراد هو استمرار الدعوة إلى هذا الدين القيم، وتحمل المؤمنين الصادقين لتبعات هذه الدعوة، وعناية الله تعالى ووعده بحفظ الإسلام..

ومما لا يخفى أن البعث ليس مرادا به بعث النبوة فإن النبوة قد انقطعت وإنما هو بعث إيجاد وتدبير وعناية تحقيقا لقوله تعالى « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» (٢)

---

١ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ١٣ صـ ٢٩٥

٢ ـ سورة الصف ـ الآية ٩

إنكار ختم النبوة

نقل الإمام القرطبى فى تفسيره لآية ختم النبوة من سورة الأحزاب ما يلى:

قال ابن عطية: هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفا وسلفا، متلقاة على العموم التام، مقتضية نصا أنه لا نبى بعده ﷺ، وما ذكر القاضى أبو الطيب فى كتابه المسمى بالهداية من تجويز الاحتمال فى ألفاظ هذه الآية ضعيف.

وما ذكره الغزالى فى هذه الآية، وهذا المعنى فى كتابه الذى سماه بالاقتصاد، إلحاد عندى وتطرق خبيث إلى تشويه عقيدة المسلمين فى ختم محمد ﷺ النبوة، فالحذر.. الحذر منه، والله الهادى برحمته»[1]

وقد رجعت إلى كتاب «الاقتصاد فى الاعتقاد» فوجدت الإمام الغزالى فى نهايته يتكلم عمن يجب تكفيره من الفرق والأديان، وحدد الغزالى أصلا مقطوعا به، وهو أن كل من كذب محمدا ﷺ فهو كافر، وجعل هؤلاء المكذبين مراتب ستا، ويعنينا هنا المرتبة السادسة وأصحابها لايصرحون بالتكذيب ولايكذبون أمرا معلوما على القطع بالتواتر من أصول الدين، وإنما ينكرون الإجماع..

ويرى الغزالى أن الشبه كثيرة فى كون الاجماع حجة قاطعة، وليس يدل على استحالة الخطأ على أهل الإجماع دليل عقلى ولاشرعى متواتر ولذا فالتوقف فى تكفير منكر الإجماع وارد وإن كان مستبعدا..

واعترف الغزالى بأنه لو قيل بذلك وفتح هذا الباب لجر إلى أمور شنيعة، وضرب لذلك مثلا بمن قال: يجوز أن يبعث رسول بعد نبينا محمد ﷺ..!!

وأسباب التوقف فى تكفير هذا القائل أن العقل لايحيله، والنقل يجوز فيه التأويل، فلا يبعد تخصيص العام كأن يقال : خاتم النبيين أراد به أولى العزم من الرسل أو أن النبى أعلى مرتبة من الرسول فهو خاتم النبيين وليس خاتم المرسلين..

ووصف الغزالى هذه الأسباب بأنها من أنواع الهذيان لأنها تعتمد على مجرد

---

١ ـ الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى جـ ١٤ صـ ١٩٦ ط مكتبة الغزالى بدمشق

اللفظ، وتتناسى أن الأمة فهمت بالإجماع من هذه الألفاظ ومن قرائن الأحوال أنه لانبى بعد محمد أبدا، وأنه ليس فيه تأويل ولاتخصيص»..

فالواضح أن الغزالى لم يقطع بتكفير منكر ختم النبوة لأن النصوص قد تؤول، ولأن العقل لايحكم بالاستحالة، والمنكر إنما ينكر الإجماع، وإنكار الإجماع ليس كفرا..

ونحن نرى أن ختم النبوة قضية شرعية سمعية، ولها حكم عقلية، وهى مرتبطة بدلائل النبوة، فمتى صدق النبى فى دعوى النبوة وقامت بينات الهدى وجب قبول ما يخبر به من أمور لايحيلها العقل ولايمنعها..

ومسألة التأويل فى النصوص ليست مفتوحة على الإطلاق، وإلا لم يسلم نص من ذلك، وضاعت كل معالم الدين..

فالواجب هو أن يكون للتأويل سبب، ويدفع إليه مقتض، وتدعو إليه قرائن واضحة ومرشحات صحيحة..

ثم إن احتمالات الخطأ فى الإجماع الكلى هى احتمالات وهمية ومجرد تصور يتلاشى مع وضوح النص وقرائن الأحوال وتلقى الأمة بالقبول.. والأهم من ذلك كله أن احتمال صدق دعوى النبوة بعد سيدنا محمد ﷺ واستمرار الوحى الإلهى لم يقع، ولم تعرف البشرية أهدى من التوحيد والتشريع الإسلامى..

وذهب الأدعياء أدراج الرياح، وثبت أنهم مرضى نفسيًا وعقليًا، وطالبون للزعامة والشهرة، وحاقدون يبغون الفتنة، ودخلاء يسعون لتمزيق وحدة الصف الإسلامى، ولم يكن لأى منهم سلوك المهتدين أو منهج الإصلاح الراشد، ولم تصاحبهم معجزات مؤيدة..

إن إنكار ختم النبوة ليس مجرد إنكار للإجماع، بل هو سيؤدى حتما إلى إنكار ما علم من الدين بالضرورة وهدم حقائق الإسلام بأجمعها، فماذا نقول لو ادعى مخبول أن الصلاة نسخت أو أن أركانها تبدلت، أو أن الصيام يرتبط بشهر ديسمبر بدلا من شهر رمضان، أو أن الحج يؤدى فى شهر يناير بدلا من شهر ذى الحجة؟!

وماذا نقول لمن استهوته الشياطين وألف كتابا ينسخ القرآن ويرفض التعبد به؟!

ولسنا نتوهم ذلك أو نفرض المحال، بل لقد وقع ذلك عند أدعياء النبوة قديما وحديثا، وقال البهائيون بأكثر من ذلك..

فإنكار ختم النبوة كفر صراح، والقائلون باستمرار النبوة بعد سيدنا محمد ﷺ مرتدون عن الإسلام..

على هامش ختم النبوة

ختم النبوة يعنى انقطاع الوحى الإلهى المرتبط بالتشريع والأحكام، بحيث يظل المكلفون على الولاء للرسالة المحمدية، وعقيدة القرآن والسنة، بلا نبوة جديدة، لامؤسسة ولامؤكدة..

لكن ذلك لايعنى بحال من الأحوال انقطاع صلة التكريم بين الله تعالى وعباده المؤمنين، فإن هناك ألوانا كثيرة تحقق هذه الصلة وتعمقها، منها:

١ ـ المبشرات

ففى صحيح البخارى بسنده أن أبا هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة**»

وفى رواية عن عبادة بن الصامت ﷺ أن النبى ﷺ قال: «**رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»

وكانت الرؤيا الصالحة جزءا من النبوة على جهة التشبيه، من حيث كونها اطلاعا على بعض الغيب، ثم إن العدد بستة وأربعين لامفهوم له فقد جاءت روايات أخرى بخمسة وأربعين، وسبعين، وغير ذلك فالمراد بيان تباعد ما بين النبوة والرؤيا.

وقد قسم الرسول ﷺ الرؤيا إلى أنواع، فقال ـ كما فى صحيح مسلم ـ: «**أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءا من النبوة، والرؤيا ثلاثة: الرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل ولايحدث بها الناس**»

قال القاضى أبو بكر بن العربى:

رؤيا المؤمن الصالح هى التى تنسب إلى أجزاء النبوة، ومعنى صلاحها استقامتها وانتظامها، قال: وعندى أن رؤيا الفاسق لاتعد من أجزاء النبوة، وقيل: تعد من أقصى الأجزاء، وأما رؤيا الكافر فلا تعد أصلا.

وقال القرطبي: «المسلم الصادق الصالح هو الذى يناسب حاله حال الأنبياء، فأكرم بنوع ما أكرم به الأنبياء، وهو الاطلاع على الغيب، وأما الكافر والفاسق والمخلط فلا، ولو صدقت رؤياهم أحيانا فذلك كما قد يصدق الكذوب، وليس كل من حدث عن غيب يكون خبره من أجزاء النبوة كالكاهن والمنجم»(١)

● ● ●

٢ ـ المحدَّثون

فى صحيح البخارى بسنده عن أبى هريرة ﷺ قال: رسول الله ﷺ: «**لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون، فإن يك فى أمتى أحد، فإنه عمر**»

وفى رواية: «**لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر**»

والمحدث (بفتح الدال المشددة) ويكلمون (بالبناء للمجهول) أى تحدثهم الملائكة وتكلمهم بحيث يلهمون الخير والتوفيق، كما جاء فى رواية الترمذى «**إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه**»

وليس هذا المعنى خاصا بعمر بن الخطاب ﷺ، وإن كان له مزيد فضل، فإن الله تعالى قد منحه لكل مؤمن تقى نقى، فقال «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»(٢)

وقال سبحانه «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ»(٣)

---

١ ـ راجع فتح البارى بشرح البخارى للإمام ابن حجر جـ ١٢ صـ ٣٦٢

٢ ـ سورة الأنفال ـ الآية ٢٩

٣ ـ سورة فصلت ـ الآيتان ٣٠ ، ٣١

فتنزل الملائكة على أولياء الله للتأييد والنصرة والتسديد قائم إلى يوم القيامة، وقد جاءت النصوص الشرعية بتنزل الملائكة عند قراءة القرآن، وحلق العلم والذكر، وفي ليلة القدر.. وهكذا، قال تعالى «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ»(١)

وفى صحيح الحديث يقول ﷺ:

«ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»

وللتفريق بين إلهام الملائكة ونزغات الشياطين، لابد أن يكون الحكم حينئذ لأصول الشرع وقواعد الدين ومسلمات الفطرة، فما وافقها كان مقبولا وما خالفها كان مردودا..

وهناك حديث شريف يوضح فيه الرسول ﷺ هذا المعنى فيقول:

إن للشيطان لمة وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد منكم ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله على ذلك، ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان، ثم قرأ «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً »(٢)

● ● ●

٣ ـ نزول عيسى عليه السلام

عقيدة المسلم فى شأن عيسى ابن مريم أنه عبد الله ورسوله، أنجبته مريم البتول دون أن يمسها بشر، ودعا إلى التوحيد الخالص، وحاول اليهود قتله وصلبه ولكن الله تعالى أنقذه منهم ورفعه إليه..

وهناك اتجاه قوى لدى علماء العقيدة يؤكد نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض فى آخر الزمن بناء على ظاهر القرآن وصريح السنة، فقد أخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

---

١ ـ سورة القدر ـ الآيتان ٤ ، ٥

٢ ـ سورة البقرة ـ الآية ٢٦٨



«والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لايقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيرا له من الدنيا وما فيها».. ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم «وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا»[1]

وفى مسند الإمام أحمد عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: **«الأنبياء إخوة لعلات[2]، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإنى أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه لم يكن نبى بينى وبينه، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع[3]، إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران، كأن رأسه يقطر إن لم يصبه بلل، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله فى زمانه المسيخ الدجال، ثم تقع الأمانة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات ولاتضرهم، فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون»**

وعلى هذا فنزول عيسى عليه السلام لايقدح فى ختم النبوة، لأنه لايأتى بنبوة جديدة، وإنما ينزل آية من آيات الله على صدق الإسلام والقصص الحق الذى جاء به القرآن، ويكون حجة على اليهود والنصارى، ويدعوهم إلى عقيدة التوحيد وكلمة التقوى والعروة الوثقى: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

---

١ ـ سورة النساء ـ الآية ١٥٩

٢ ـ بنو العلات: أولاد الرجل من نسوة شتى

٣ ـ المربوع: الرجل ليس بالطويل ولا بالقصير

خاتمة

●● قدمنا ـ بتوفيق الله ـ فى هذه الدراسة ملامح الشخصية المحمدية، فسيدنا محمد ﷺهو اليتيم الطاهر النزيه والعفيف الزاكى..

وهو راعى الغنم العزيز النفس الذى تسامى على كل متع الحياة، وتعالى فوق كل إغراء..

وهو الصادق الأمين مع الناس ومع الله...

وهو الأمى الذى علم الفلاسفة، وأصلح شئون الحياة، وقدم للعالمين منهج الهداية والسعادة فى الأولى والآخرة..

●● وسقنا فى هذه الدارسة دلائل النبوة المحمدية:

ـ في عمقها التاريخى المتمثل فى ميثاق النبيين ودعوة إبراهيم وبشرى عيسى..

ـ وفى معجزة القرآن الذى تعددت وجوه إعجازه.

ـ وفى المعجزات الحسية التى جمعت لرسول الله ﷺ ماتفرق فى سائر الأنبياء.

ـ وفى الخلق العظيم الذى جمع الفضائل كلها وحاز المكارم بأجمعها..

●● وتتبعنا صور الوحى المحمدى ورددنا بعض الشبهات التى أثارها الحاقدون، إيمانا منا بأن الدفاع عن الوحى المحمدى هو دفاع عن شرف الأنبياء جميعا.

●● وأظهرنا خصائص النبوة المحمدية فى عموم الرسالة وختم النبوة كى نصل إلى حقيقة الإيمان الصحيح، فسيدنا محمد ﷺ هو خاتم النبيين، ورسالته عامة زمانا ومكانا حتى يرث الله الأرض ومن عليها..

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس / ٣٧).

المؤلف في سطور

دكتور / محمد سيد أحمد المسير

- أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر.

- عمل أستاذاً مشاركاً، ثم رئيساً لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية فى كلية التربية - فرع جامعة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة ١٩٨٣ - ١٩٨٧ م.

- أعير أستاذاً فى كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى بمكة المكرمة من سنة ١٩٩٣ - ١٩٩٨م.

- شارك فى عضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف.

- شارك فى عضوية جمعية الدراسات الإسلامية بالزمالك.

- يشارك فى عضوية الجمعية الفلسفية المصرية.

- يكتب المقالات فى المجلات والصحف الإسلامية فى مصر والعالم الإسلامى.

- كان الأول على طلاب الجمهورية فى الشهادة الإعدادية عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م، من معهد شبين الكوم.

- كان السادس عشر على طلاب الجمهورية فى الثانوية الأزهرية عام ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م، وكانت المرحلة الثانوية يومئذ خمس سنوات.

- حصل على تقدير ممتاز مع مرتبة الشرف فى الشهادة العالية من قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة عام ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م.

- شارك فى المؤتمرات والملتقيات الفكرية مثل:

- المؤتمر الحادى عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فى رجب ١٤٠٨هـ.

- ندوة الفقة الإسلامى فى سلطنة عمان فى شعبان ١٤٠٨هـ.

- الموسم الثقافى لشهر رمضان فى دولة الكويت ١٤٠٩ هـ.

- الندوة القومية لمواجهة الدس الشعوبي فى بغداد من ٢٢ ـ ٢٤، لشهر جمادي الأولى ١٤١٠هـ.

- المؤتمر الإسلامي العالمى لمناصرة العراق المنعقد فى بغداد، في شهر ذي القعدة ١٤١٠ هـ «قبل الغزو».

- المؤتمر القومي الذي نظمه المركز العربي للإعلام بالقاهرة تحت عنوان «الإدمان قضية العصر» من ١٨ ـ ٢٠ من فبراير ١٩٩٠م.

- المؤتمر الإسلامي العالمي لمناقشة أزمة الخليج، الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة من ٢١ ـ ٢٣ صفر ١٤١١ هـ.

- الندوة العلمية لمناقشة حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب، في طهران بتاريخ ٩ ـ ١٢ سبتمبر ١٩٩١م.

- المهرجان الإسلامي العالمى فى الكويت للإفراج عن الأسرى والمحتجزين في سجون العراق من ١٩ ـ ٢١ يناير ١٩٩٢م.

- الموسم الثقافي لشهر رمضان فى دولة الإمارات العربية المتحدة ١٤١٢ هـ.

- ندوة الإعلام الإسلامي بين تحديات الواقع وطموحات المستقبل، التي نظمتها مؤسسة «إقرأ» الخيرية، بالتعاون مع جامعة الأزهر في ذي القعدة ١٤١٢ هـ. مايو ١٩٩٢.

- سافر مع وزير الأوقاف المصري ضمن وفد رسمي لزيارة دول الكومنولث الإسلامية بتاريخ ١٣ ـ ٢٥ سبتمبر ١٩٩٢م.

ـ المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر من ٢ ـ ٥ لشهر جمادي الأولى سنة ١٤١٣هـ.

ـ مؤتمر التوجيه الإسلامي للعلوم الذي نظمته رابطة الجامعات الإسلامية بالاشتراك مع جامعة الأزهر سنة ١٤١٣هـ.

ـ الندوة العلمية «في قلب الشرق: قراءة معاصرة لأعمال لوي ماسنيون»، التي نظمها قسم الفلسفة بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة مع المركز الفرنسي للثقافة والتعاون يومى ١٤، ١٥/ ٣/ ١٩٩٩م.

ـ المؤتمر الدولي الرابع للفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة تحت عنوان «الإسلام في عصر العولمة» بتاريخ ١٨، ١٩ من المحرم ١٤٢٠ هـ ـ ٤، ٥ من مايو ١٩٩٩م.

ـ ندوة «الفساد الاقتصادي ـ الواقع المعاصر والحل الإسلامي» التي أقامها مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر بتاريخ ٢٢: ٢٣ من مارس ٢٠٠٠م.

ـ المؤتمر الدولى الخامس للفلسفة الإسلامية فى كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة، تحت عنوان «الإسلام وحوار الحضارات» بتاريخ ٢٧/ ٢٨ من المحرم ١٤٢١هـ ٢، ٣ من مايو سنة ٢٠٠٠م.

***

كتب للمؤلف

فى العقيدة:

١ ـ في نور العقيدة الإسلامية.

٢ ـ أدب الحديث عن الله.

٣ ـ علم التوحيد للشهادة الإعدادية الأزهرية.

٤ ـ التمهيد في دراسة العقيدة الإسلامية.

٥ ـ الإلهيات في العقيدة الإسلامية.

٦ ـ الشفاعة في الإسلام.

٧ ـ النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها.

فى الفلسفة:

٨ ـ الروح في دراسات المتكملين والفلاسفة.

٩ ـ المجتمع المثالي في الفكر الفلسفى وموقف الإسلام منه.

١٠ ـ قضايا إنسانية في الفكر الديني والفلسفى.

فى الأديان:

١١ ـ المدخل لدراسة الأديان.

١٢ ـ أصول النصرانية في الميزان.

١٣ ـ أوروبا والنصرانية.

١٤ ـ المسيح ورسالته فى القرآن.

١٥ ـ عبادة الشيطان فى البيان القرآني والتاريخ الإنساني.

في الفرق الإسلامية.

١٦ ـ الحوار بين الجماعات الإسلامية.

١٧ ـ مقدمة في دراسة الفرق الإسلامية.

١٨ ـ قضية التكفير فى الفكر الإسلامى.

في السيرة النبوية والحديث الشريف:

١٩ ـ الرسول في رمضان.

٢٠ ـ الرسول حول الكعبة.

٢١ ـ الرسول والوحى [١]

٢٢ ـ الرسول وقضايا المجتمع.

٢٣ ـ الرسول والموافقات.

٢٤ ـ وعندئذ قال الرسول.

٢٥ ـ أيسر البيان فى شرح الحكمة النبوية.

---

(١) صدر فى طبعة جديدة بعنوان «النبوة المحمدية».

في الشريعة الإسلامية

٢٦ ـ محاورة تطبيق الشريعة.

٢٧ ـ نحو دستور إسلامى.

٢٨ ـ أخلاق الأسرة المسلمة.

تحقيق مؤلفات فضيلة الدكتور سيد أحمد رمضان المسير ـ رحمه الله تعالى :

٢٩ ـ السنة مع القرآن.

٣٠ ـ السنة المطهرة.

٣١ ـ إلزام القرآن للماديين والمليين.

٣٢ ـ دراسات قرآنية.

فهرس الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٩٥٣/ ٢٠٠٠

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ــ ١١٢٣١

دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازى ـ القاهرة
هاتف . ٧٩٥١٧٤٨ - ٧٩٤٤٧٤٨ - فاكس : ٧٩٤٦٠٣١
ص . ب . ٤٧٠ القاهرة - الرمز البريدى : ١١٥١١